فتحي غانم

الأفيال

فتح عينيه

فوقه سقفا من البلاستيك الأبيض ·

تحسس بأصابعه ذلك الشيء الذى يرقد عليه · انه سرير أو لعله أريكة من الجلد الطرى ، ولمح بطرف عينه عن يمينه كوة زجاجية تطل على سماء · وسمع صوت رجل يغنى · سمع صوتا مرحا يردد كلمات غريبة بلغة لا يتبينها أو لا يعرفها ولا يفهمها · ولكن الصوت مرح لا شك فى ذلك ، كأنه يفتح عينيه على صباح مشرق · الصوت المرح يدخل على نفسه سكينة لم يألفها منذ زمن طويل ·· آه ·· آه ·· هل آن الآوان بعد كل هذه السنوات ، بعد كل هذا العذاب ، بعد ايام الشقاء والمرارة ليستريح · ولكن كيف يستريح وهذا الغناء المرح ينطلق بكلمات غير مفهومة تلزمه الحذر وتفرض عليه أن يحتاط ·

لعل من الحكمة أن يستجمع ذاكرته قبل أن يقدم على حركة متسرعة تدل على أنه استيقظ ، لابد أنه الآن طائر فى السماء متجها الى ذلك المكان المجهول الذى سيقضى فيه أجازته · آه لو كان صحيحا أنها أجازة وأيام راحة · على أية حال هذه هى فرصته الأخيرة · لو ضاعت منه هذه الفرصة ، فلا يدرى ماذا يكون ·

لقد جازف وقبل المخاطرة ، ليس أمامه الا أن يقبل · وعندما سألوه اذا كان قد اتخذ قراره وقبل القيام بهذه الرحلة ، كانوا يطلبون منه شيئا لا يملكه ، فهو عاجز عن اتخاذ مثل هذا القرار حتى ولو أنه تظاهر بأنه يقرر ويقبل وهو فى حقيقة الأمر ، يفر ويهرب ويستسلم لذلك المجهول الذى يخلصه من واقع يفترسه ويفتك به ·

ولقد اتخذوا احتياطات كثيرة ليتاكدوا أنه لن يعلم الى أين هو ذاهب ولكن من يدرى ، لعله استيقظ قبل الاوان ، ربما لو اطل من الكوة الزجاجية يستطيع أن يتبين بعض المعالم الجغرافية التى تكشف له عن خط سيره أو تساعده على أن يخمن موقعه من خريطة العالم ·

كان مولعا فى أسفاره السابقة بمراقبة ما يراه تحته من نافذة الطائرة وهو يذكر مشاهد ومعالم محفورة فى ذاكرته ، جبال الألب ، كعب حذاء ايطاليا ، الطريق الإسفلت ، الشريط الأسود الطويل بحذاء شاطىء البحر يقطع الصحارى والجبال شمالى افريقيا ، غابات كندا ، كغابات النرويج والسويد ، احراش سيبيريا ، سهول الصين · جبال الروكى بأمريكا · ترى أين هو الآن · هل يستطيع حقا أن يعرف مكانه · ولو صدفة ، وتفسد المغامرة وينهار المشروع السياحى الكبير الذى تقوم عليه شهرة الشركة العالمية السياحية « د·س » ·

لابد أنهم محتاطون لجميع الاحتمالات ، وأنهم يراقبونه ،

ولعلهم عرفوا الآن أنه قد استيقظ ، ان السقف البلاستيك فوق رأسه تطل منه عيون زجاجية وأزرار ، ولن يدهشه ان تكون باحدى هذه العيون آلة تصوير تسجل كل حركة أو سكنة تبدر منه ، وهم يعلمون الآن • انه فتح عينيه واستيقظ ، وبدأ يفكر ويتذكر •

وهذا الصوت المرح الذى يغنى يؤكد له أن هناك من يصاحبه فى هذه الرحلة ، غالبا هو صوت أحد عمال الشركة كلفوه بمراقبته وحراسته • ترى هل يستطيع ان يرفع رأسه قليلا ، أم أن المخدر مازال يشل قدرته على الحركة • ان ضوء النهار ينفذ من الكوة الزجاجية ، يتدفق غزيرا من شمس ساطعة ، وعملية التخدير تمت قبل الفجر ، وها هو يحرك أصابعه ، فهل يقدم على خطوة اخرى وينهض ، يعلن أنه استيقظ ، ويرى ذلك الرجل الذى يغنى ، حاول أن يرفع رأسه ، ولكنه لم يرفعها ، ولم يدهش او يقلق لأنه لم يرفع رأسه ، كان يدرك انه لو تحرك فستبدأ المغامرة ، وسيواجه المجهول الذى سعى اليه ، أو هرب اليه ، أو انساق اليه ، وهو يريد أن يؤجل لحظة المواجهة حتى يتذكر ما حدث له قبيل الفجر فى حجرته بفندق « ترومبى » بزيورخ •

كان قد استيقظ على ألم حاد يمزق أمعاءه ويمتد الى كتفه الأيسر ويتركز فى بؤرة فى حجم قطعة نقود معدنية يخترقها مسمار من لهب ، ترنح متهالكا الى الحمام الملحق بالحجرة ،

وهناك أصابه دوار ، ورأى وجهه فى المرآة مصفرا ، عيناه تضيقان ، وحبات عرق على جبينه ، ورجفة باردة تسرى فى جسده ، وتهاوى على البلاط ، وارتطمت رأسه بالحوض أثناء سقوطه ، وقال لنفسه هذا الدوار أمره هين ، واستطاع ان يقنع نفسه بما يقوله ، فأفاق ونهض بصعوبة ، فرأى شريطا من الدم يسيل من شفتيه وترنح خارجا من الحمام وقبل ان يصل الى السرير والتليفون سمع طرقا على الباب •

ولا يذكر اذا كان قد فتح هو الباب ، أو صاح بالطارق أن يدخل ، كل ما يذكره الآن هو الرجلان يدخلان عليه يقفان فى الحجرة الضيقة التى يشغل نصفها السرير ، أمامه حوض نباتات خضراء ، فوقه رف عليه تليفزيون شاهد على شاشته قبل أن ينام مباراة كرة سلة بين الاتحاد السوفيتى واسرائيل ويلتصق الجانب الأيسر للسرير بنافذة تطل على البحيرة ، وركن من الحديقة التى بها خيمة لفرقة مسرحية ، تقدم كل يوم ساعة الغروب رواية يقبل ناس كثيرون على مشاهدتها •

وكان قد قرر منذ يومين ان يدخل الحديقة ويشاهد المسرحية ، ولكنه توقف عند مدخل الخيمة عندما اكتشف أن التمثيل باللغة الألمانية ، وكانت هناك لوحة كبيرة معلقة على حامل سبورة مكتوب عليها اسم الرواية بكلمات لم يفهمها ولكنه استنتج انها كلمات المانية ، شعر بالضيق لانه محروم من شىء يتمتع به الآخرون ، وكان الناس يقبلون فى نشاط

لا يخلو من حمـــاس ، تأملهم بعض الوقت ، عندما فوجىء برجل وسيم طويل له وجه طفل وعينان زرقاوتان باسمتان ، كان متجها الى مدخل الخيمة ، ثم استدار فجاة ، واتجه اليه ، وفوجىء بالرجل يبادره قائلا بالانجليزية :

ـ أنا سعيد بأن ألقاك هنا يا سيد يوسف منصور ·· أنا مندوب « د · س » التى عقدت معها الاتفاق ·· ويسرنى أن أخطـرك أن الرحلة سـيبدأ تنفيذها بعـد يومين ·· هل أنت مستعد ·

قال ذاهلا :

ـ نعم ··

وقبل أن يستفسر من الرجل عن معلومات خاصة بالرحلة ، رآه يستأذن فى الانصراف ليلحق بالمسرحية قبل رفع الستار ·· وابتعد الرجل الوسيم وهو يتمتم :

ـ ســتبدأ الرحلة قبيل الفجر ·· الوداع يا سـيد يوسف منصور ·

رغم أنه ســمع الرجل ، وفهم كل كلمة قالها ، الا أنه لم يصدقه ، أو كأن هذا اللقاء غير حقيقى · صحيح أنه تعاقد على القيام بالرحلة ، وأنه يحتفظ بالعقد فى احدى حقـائبه بحجرته بالفندق ولكنه لم يشعر فى لحظة ما أن هذه الرحلة حقيقية ، حتى وهو يسلم صديقه مراد فى القاهرة شـيكا بالألف جنيه لحساب الرحلة ·

كان يخيل اليه أن مجرد التفكير فى هذه المغـامرة ، هو العلاج المؤقت ، المخدر أو المسكن الذى يريحه بعض الوقت بما يثيره فى نفسـه من أحلام وخيالات عن رحلة الى مكان مجهول تبعد به عن المشاكل والأزمات التى تحاصره ·

كان صوتا فى أعماقه يهمس أن صديقه مراد سوف يحتفظ بالشيك لبعض الوقت ثم يعيده اليه ، ولما سافر الى زيورخ ظن أنها نهاية المطاف ، وأن مؤسسة « د · س » تستخدم شعار « الرحلة الى المجهول » كوسيلة حديثة وبارعة فى الدعاية ، اعتمدت فيهـا على خبراء فى علم النفس درسـوا فن جذب الزبائن وتشويقهم الى السياحة عن طريق هذه المؤسسة ·

ونفس الشعور لازمه وهو يوقع العقد · بعد أن قرأ شروطه العجيبة ، عادت الى ذاكرته زيارته لمدينـة « ديزنى لاند » فى ولاية كاليفورنيا ، وركوبه صاروخ الى القمر · والشهادة التى منحوه اياها لاثبات أنه واحـد من رواد الفضـاء · تمثيلية مسلية تمت على الأرض ، قضى أثناءها بعض الوقت تحيط به مؤثرات تشبه تلك التى يتعرض لها راكب الصاروخ الحقيقى · ولما حصل على الشهادة بأختامها وتوقيعاتهـا وما تسجله من أحـداث وأوهام وخيالات · امتلأ زهـوا وفخرا · وقال لكل من يقابله بعد هـذه المغامرة انه سـافر الى القمر ومعه شهادة تثبت ذلك ·

انها لعبة ، لهو أطفال يستخدمه الكبـار للترويح عن

النفس · ولقد فرح بالعقد الذى تتحمل بمقتضاه مؤسسة « د · س » أن تعد له رحلة الى مكان مجهول · كان يكفيه أن يقرأ العقد ليحلم ويامل بان يتخلص من كل مشاكله بهذه الرحلة العجيبة الى ذلك المكان الذى يجهله ولا يعلم عنه شيئا ·

والآن بعد ان حدد له الرجل الوسيم موعد السفر بعد يومين قبيل الفجر · مازال ينظر للأمر على أنه تمثيلية محبوكة ، وأن ظهور هذا الرجل فى هذا المكان بالذات ، هو ضمن خطة يعدها خبراء النفس الذين تستشيرهم مؤسسة « د · س » ليقضى أثناء سياحته فى « زيورخ » وقتا مع أحلام تخرجه من مشاغله وهمومه ، وتمنحه راحة نفسية هو فى اشد الحاجة اليها ·

ولقد حدث بالفعل أن اجتاحته نوبة نشاط وحماس بعد لقائه بالرجل الوسيم ، فانطلق من الحديقة ، واخترق ميدان المحطة الى « بانهوف شتراس » الطريق الذى يضم على جانبيه أفخر فاترينات زيورخ ، وتأمل المعروضات ·· وتأمل اجساد البنات والسيدات الواقفات أمام الواجهات ، ووقف برهة يستمع الى مجموعة من طالبات ينشدون على قارعة الطريق ، وحملته قدماه فى نهاية الطريق الى البحيرة ، وسرحت عيناه مع المياه والزوارق والاشرعة والسحاب وسفوح الجبال وقممها عند الافق ، واتجه يسارا الى شاطىء

« المنظر الجميل » واخترق أكثر من مقهى ، وعبر جسرا ، ودخل المدينة القديمة بأسواقها وشوارعها الضيقة ، وعاهراتها المتسكعات عند تقاطع الأزقة الضيقة ، وخيام الغجر بمعروضاتهم من النسيج المطرز والموشى والتماثيل الفجة ، والأمشاط والعقود ،وظل يسير حتى استوقفه عند جسر آخر جماعة ممثلين يقدمون مشاهد اسطورية على وجوههم اقنعة شياطين ورجل يضرب صفائح تحدث اصواتا للبرق والرعد والرياح ، كان يبتلع زيورخ بكل ما فيها ، كان متفتحا لكل ما يراه ، كانت أعماقه رحبية فسيحة ، خلت من كل ما كان يزحمها من الأهل والأصدقاء والمعارف بذكرياتهم ورواسبهم التى تكدست وتعفنت فى اعماقه ·

لم يعد يذكر حياته الماضية ، حياته التى فشلت ، وتفتحت شهيته لحياة جديدة ، يشعر بجوع ونهم اليها ، لقد تخلص من حصار الماضى · انتهت أيام زينب ، انقطعت صلته بحسن ، تحول التليفزيون بحلقاته ومسلسلاته وعقوده ومخرجيه الى انقاض وأشلاء ، انه اليوم قادر على ان يفكر فى عمل جديد ، فى علاقات جديدة ، بيت جديد وامراة جديدة وعمل جديد والمستقبل يفتح له ذراعيه ويدعوه الى أحضانه ، كانه ولد من جديد · لقد ذهب الماضى ، فذهبت معه ، والى غير رجعة ، سنوات عمره التى صنعت كهولته ·

التهم شريحة لحم فى المطعم بجوار سوق الغجر ، وقد

اعتزم أن يحتفل بقضاء ليلته مع فتاة جميلة سيجدها حتما هنا أو هناك ولسوف يتمتع بصحبتها كما لم يتمتع من قبل ، عندما فرغ من فطيرة التفاح شعر بثقل فى معدته ، ونعاس يثقل جفونه ، فنهض وهو يلوم نفسه على اسرافه فى الطعام ، ولكن لا بأس ، الليلة يسرف فى الطعام ، وغدا يسرف فى الرجولة ، ويكفيه الليلة أنه اتخذ قراراته الجديدة ، ولما دخل فراشه كان التليفزيون يذيع مباراة كرة السلة ، وكان شابا نحيفا يحاور عملاقا ضخما ، منظر مثير لولا ضغط النعاس على جفنيه ، حتى استيقظ على الألم الحاد فى أمعائه، وسقوطه فى الحمام ، وهاهما رجلان يقفان عند الجانب الأيمن من السرير يتفحصان وجهه ، ولابد أنهما يريان الدم الذى يسيل من شفتيه ·

وقال لهما بصوت ضعيف ، كأنه يخاطب نفسه :

ـ هل أنتما ··

ولم يكمل ، كانا قد أسرعا يتلقفانه ، يمسك كل واحد منهما باحدى ذراعيه ، وقال الذى يمسك بيمينه :

ـ اطمئن ·· سوف تستريح ·

فهمس :

ـ نعم ·· أريد أن أستريح ··

فقال الذى يمسك بيساره وهو يجذبه برفق الى الفراش :

ـ استرخ ·· لا تشد عضلاتك ·

وشرع الرجلان فى خلع ملابسه ، حتى تعرى جسده تماما · تذكر ليلة الغرام التى كان يسعى اليها ، هل أسرف فى التمنيات كما أسرف فى الطعام ، وظهرت حقيبة فى يد أحدهما أخرج منها زجاجة وقطعة كبيرة من القطن بللها بالسائل الذى يسكبه من الزجاجة ، ومسح بالقطن المبلل وجهه وصدره ، فسرت برودة فى أطرافه ، رحب بها بعد لهيب الألم الذى كان يمزقه · وواصل الرجل عملية سكب السائل على قطع أخرى من القطن ومسح كل جزء فى جسمه · وشعر أنه يفيق وأنه يسترد أنفاسه · وابتسم وفتح فمه ليسأل الرجلين اذا كانا قد جاءا من أجل الرحلة · ولكن السؤال جمد فى حلقه عندما رأى حقنة فى يد الرجل الذى يمسك بالحقيبة وقال الرجل باسما وهو يتقدم منه :

ـ بعد قليل تبدأ الرحلة يا سيدى ·

تمتم غير مصدق :

ـ أحقا ما تقوله ؟!

قال الرجل فى هدوء :

ـ نحن ننفذ الاتفاق يا سيدى ··

فرفع يده ليمنع الحقنة من الاقتراب منه وسأل :

ـ ولكن الى أين أذهب ؟

قال الرجل :

ـ سوف تذهب الى هناك ·· وتعود وقت أن تشاء دون أن تعرف الى أين ذهبت ·· أو من أين عدت ·

همس محتجا :

ـ ولكنى أريد أن أعرف اسم المكان ·

قال الرجل :

ـ أنت تعلم يا سيدى شروط العقد الذى وقعت عليه ··

همس :

ـ ولكنى لا أريد أن أذهب الى مكان مجهول ·

قال الرجل بوقار :

ـ هذا شأنك يا سيدى ·· كلمة منك تلغى الاتفاق ··

دمدمت كلمات الرجل فى رأسه ، تلغى الاتفاق ، تلغى الاجازة · تلغى المغامرة ، تلغى الأمل ، تلغى الخلاص من الماضى ومشاكله وهمومه ·

قالت عيناه للرجل انه لن يلغى الاتفاق ، ولابد أن الرجل قد فهم ذلك ، لأنه تبادل النظرات مع زميله الذى تقدم وأمسك بذراعه ، ولف حول معصمه أسارا رقيقا من البلاستيك ـ وامسك بقلم وكتب على الاسار · بحروف عربية « يوسف منصور » ·

وساله يوسف :

ـ لماذا تكتب اسمى ؟

همس الرجل :

ـ هذا اجراء معتاد فى هذه المناسبة ·

قال يوسف باسما فى استسلام :

ـ لعلك تتوقع أن أضل طريقى ·

فقال الرجل فى هدوء :

ـ منذ الآن نحن المسئولون عن الطريق ·

وشعر بوخزة الابرة فى ذراعه ، وأدرك أن المخدر قد سرى فى جسده · وأنه بعد قليل سوف يغيب عن الوعى ، وتبدأ الرحلة · فصاح فى قلق مفاجىء :

ـ ولكنى ما زلت قد أعدل عن رأيى ·

قال الرجل وهو يعيد الحقنة الى الحقيبة :

ـ فى أية لحظة تريد أن تعود ·· سنعيدك الى حيث تريد ·

ودمدمت مرة أخرى كلمات الرجل فى رأس يوسف : سنعيدك الى حيث تريد · سنعيدك الى زوجتك زينب ، الى ابنك حسن · الى مبنى التليفزيون فى شارع ماسبيرو · الى محكمة الجنايات · الى تأليف الروايات · سنعيدك الى الذل والاهانة والفشل ·· وانتفض جسد يوسف ، واندفعت خارجة من حلقه شهقة جامحة ، وغاب عن الوعى ·

كان الصوت الذى يغنى ، الصوت المرح كأنه صباح مشرق ، يردد الآن كلمة تشبه « تود » أو لعلها « مود » ، أوضح ما فى

الكلمة هو عينها ، حرف الواو الذى يتوسـط الحرف الأول والحرف الثالث والأخير ٠

واو ممطوطة أحيـانا ، سـاكنة أحيانا ، واختلط بالغناء المرح صوت هدير المحركات ، نعم انه صوت محركات ٠ ووجد نفسـه ينهض فجـأة ، ليتبين أنه راقد وحده فى هليوكبتر صغيرة ٠ وان الذى يغنى هو قائد الهليوكبتر ، وأطل من الكوة الزجاجية فرأى ثمة صحراء ممتدة بلا نهاية ٠ والهليوكبتر يهبط اليها ، ورأى حقائبه الثلاث عند باب الهليوكبتر ، وقطع القائد غناءه ، وقال دون أن يلتفت اليه :

ـ لقد وصلنا ٠٠ استعد للهبوط ٠

اعتدل فى جلسـته ، فهذا هو كل ما يسـتطيع أن يفعله ليستعد للهبوط ٠ بدت الأشياء من حوله غير حقيقية ، يغلفها طنين المحركات ، وبقايا الغناء عالقة بأذنيه ، وعاد يطل من الكوة ، فرأى الصحراء تقترب ، وحاول أن يدقق النظر باحثا عن شىء غير الصـحراء ، فلما رأى سـيارة سـوداء واقفة ولا أحد حولها ، كان قد بذل جهدا أرهقه ، وارتطمت عجلات الهليوكبتر برمال الصحراء برفق ٠ وحاول أن يقف ، ولكنه فضل أن يختبر ساقيه فى حذر ، وانتظر حتى هدأت المحركات ليقف ، والتفت اليه القائد ، وفوجىء به أنه نفس الشـاب الوسـيم الطويل الذى قابله خارج خيمة المسرح فى الحديقة بزيورخ ٠ أمازال فى مكان قريب من زيورخ ، ولكن هل توجد

مثل هذه الصـحراء الفسـيحة الممتدة الى نهاية الأفق فى سويسرا أو أى مكان فى أوروبا ٠

ابتسم له القائد ٠٠ وقال له فى مرح وهو يفتح الباب :

ـ هالوه ٠٠

واستقبل القائد رجلا يصعد السلم ٠ كان القادم قصـيرا بدينا ، رأسه مستدير ، عيناه واسـعتان مستديرتان ، وله شارب قصير مقصوص بعناية ، وصـاح القادم مناديا عليه بصوت آلى حاسم :

ـ تفضل يا سيد يوسف منصور ٠

تحرك ببطء ، نحو القائد ، ونحو القادم على السلم الذى ينادى عليه فلمـا وصـل الباب ، توقف عند حقائبه الثلاث ، فطلب الرجل منه ألا يهتم بها ٠ ولكن كيف لا يهتم بها فى هذه اللحظة بالذات ، لو أخذوها منه ، لو ضاعت منه لأى سبب ، لانقطعت كل صلة بينه وبين العالم الذى جاء منه ٠ زينب ٠ وحسن ٠ والتليفزيون والرواية التى لم يسـتطع كتـابتها ، والأطباء والسيارة التى دفع قسطها الأول ٠ تدفقت عليه صور الماضى ٠ كأنها تريد أن تنتزعه انتزاعا من هذا المكان ٠

وانتبه على صوت القائد الذى كان يغنى يقول له باسـما بالانجليزية :

ـ مرحبا بك ٠

قال واجما :

ـ مرحبا بى أين ؟

قال القائد وقد اتسعت ابتسامته ملوحا بيده نحو الباب والفضاء العريض من بعده :

ـ هنـــا ٠٠

تفحص وجه القائد ٠ لعله يجد فيه تفســيرا لمعنى هنـا وخرجت كلمات من فمه تسأل :

ـ لقد رايتك من قبل ؟!

قال القائد :

ـ نعم ٠٠ فى الحديقة ٠

قال له :

ـ لم تقل لى انك ستقود الطائرة ٠

قال القائد مصححا بسرعة :

ـ لا ٠٠ لم اتول قيادة الطائرة ٠٠ ان مهمتى انحصرت فى قيادة الهليوكبتر بعد أن وصلت بك الطائرة ٠

فسأل القـائد :

ـ انت تعلم اذن من أين جئنا ؟

قال القائد :

ـ طبعا ٠٠

فعاد يسأله بلهفة :

ـ وتعرف الى اين جئنا ٠٠ ؟

قال القائد فى مرح :

ـ طبعا طبعا ٠٠ فنحن هنا ٠٠

فرفع صوته فى الحاح :

ـ ولابد انك تعرف الطريق بين المكان الذى كنـا فيه ٠٠ وهذا الذى وصلنا اليه ٠٠

اجاب القائد وقد اضاف الى مرحه ابتسامة عريضة :

ـ صـدقنى هذا هو الشىء الوحيد الذى لا اعرفه ٠٠ لقد تركت زيورخ معك بنفس الطريقة ٠٠

ولوح الرجل بيده كاشفا عن معصمه وقد أحاط به اسار من البلاستيك وقال :

ـ انظر ٠٠ ها هو اسار عليه اسـمى ٠٠ مثل الذى حول معصمك ٠٠ كل ما فى الأمر انى استيقظت قبلك لاجد نفسى فى محطة فى هذه الأرض الممتدة امامك وقد هبطنا من طائرة ٠ ورأيتهم يحملونك الى الهليوكبتر التى توليت قيادتها ٠

صاح يوسف وقد تملكه الغضب :

ـ لا تسخر منى ٠٠

قال القائد فى أدب وتحفظ :

ـ انا لا أسخر من احد يا سيدى ٠٠ ولا اقول الا الصدق٠٠

صاح يوسف وهو يتبين ان الغضب ينهك قواه :

ـ انت لا تقول الا الكذب ٠٠

فهمس الرجل محتفظا بأدبه :

ـ لا داعى لهذه الاتهامات يا سيدى ⋅⋅ والأفضل أن تحترم توقيعك على شروط العقد ⋅

نفث يوسف آخر ما تبقى لديه من طاقة بصوت متحشرج :

ـ واذا أردت أن أعود ⋅⋅

قال القائد بسرعة :

ـ فى أية لحظة تشاء ⋅⋅

التفت يوسف الى الرجل القصير البدين الذى نادى عليه ، وهو ينتظره الآن عند رأس السلم ⋅ وهمس :

ـ أريد أن أعود الآن ⋅⋅

قال القائد وهو يتجه الى مقعد القيادة :

ـ حسنا يا سيدى ⋅⋅ سنبدأ فورا ⋅⋅

وتقدم الرجل القصير البدين ، وقال ليوسف بصوت كأنه صادر عن جهاز تسجيل :

ـ أرجو لك رحلة موفقة يا سيدى ⋅

ثم قال بصوت حاسم مشيرا الى الأريكة التى كان راقدا عليها طوال الرحلة :

ـ تفضل يا سيدى واسترح ⋅ فلابد من اتخاذ اجراءات سريعة ⋅

كان الرجل يتحدث وهو يخرج من جيبه محفظة جلـدية صغيرة ⋅ فتحها وأخرج منها حقنة ⋅

همس يوسف :

ـ أتعود الى حقنى بالمخدر ؟

قال الرجل بلا تردد :

ـ هذا أمر لابد منه ⋅⋅ وهو منصوص عليه فى العقد الذى تفضلتم بتوقيعه ⋅

قال يوسف وهو يتبين سخافة الموقف الذى وضع نفسـه فيه :

ـ وتضيع هذه الرحلة هباء ⋅⋅

ظل الرجل يرقبه صـامتا ، كأنه لا يعنيه ما يفكر فيـه يوسف ⋅ كل ما يعنيه هو أن يتخذ اجراءات العـودة ، التى تبدأ بحقن يوسف بمخدر ⋅ فقد جاء الى هنا منوما ⋅ وسوف يعود الى حيث يريد منوما ⋅

ورفع القائد صوته دون أن يلتفت الى يوسف :

ـ ستجد يا سـيدى اسـتمارة فى جيب خلف الأريكة ⋅ تفضل بملء البيانات المطلوبة التى تحدد فيها المكان الذى ترغب فى العودة اليه ⋅

قال يوسف فجأة :

ـ ربما يحسن أن أقضى ليلة هنا ⋅⋅

ولم يتلق أى تعليق على أفكـاره التى يعبر عنها بصـوت مسموع ⋅ كان الرجل القصير البدين ينظر اليه وقد خلا وجهه السمين المستدير من أى تعبير ⋅

واضطر يوسف أن يسأله :

ـ الا ترى أن الأفضل أن اقضى ليلة هنا ••

قال الرجل فى برود :

ـ كما تشاء يا سيدى •

قال يوسف مخاطبا نفسه :

ـ وقد اعود الليلة •

قال الرجل القصير اليدين بصوت رتيب :

ـ هذا قرارك يا سيدى ••

قال يوسف :

ـ نعم •• هو قرارى ••

فاتجه الرجل القصير اليدين الى القائد ، وهمس فى أذنه •
فنهض القائد من مقعده •• وتقدم الى يوسف قائلا له بالانجليزية :

ـ تستطيع ان تترك حقائبك هنا •

فاسرع يوسف يقول فى لهفة :

ـ لا •• لا استطيع ان اتخلى عنها •• سناخذها معنا ••

فاقترب منه القائد باسما ، وربت على كتفه فى ألفة قائلا بصوته المرح :

ـ المهم الآن أن تستريح •• وتتخذ قرارك فى هدوء •

فوجد يوسف نفسه يردد نفس الكلمات التى سمعها هامسا :

ـ المهم الآن أن تستريح •• وتتخذ قرارك فى هدوء •

وتلقفته يد الرجل القصير اليدين ، وتدحرج أمامه الى السيارة ، وادخله فى المقعد الخلفى ، ثم ابتعد وعاد ومعه

القائد يحملان حقائبه الثلاث •

وضعاها فى المكان المخصص لها فى مؤخرة السيارة ، ثم اتجه الرجل القصير اليدين الى عجلة القيادة ، بينما وقف القائد خارج السيارة ، يلوح بيده ليوسف والمرح يفيض من قسمات وجهه وعينيه •

واندفعت السيارة فوق طريق رملى متوغلة فى الصحراء •

التزم السائق الصمت

بينما انشغل يوسف بالصحراء الصامتة ، خيل اليه أن الرمال لونها غريب ، ورفع رأسه الى السماء ، كانت بلا سحاب والشمس عالية ، ولكن ضوءها هادىء ناعم ، وضحك فى سره وسأل نفسه : ما الذى جاء بى الى هذا المكان ؟ وعاد يحدق فى الشمس متعجبا لأمرها ، وفجأة انطلق السؤال من فمه :

- أين نحن ..

وبدا أن السائق القصير البدين لم يسمعه أو يتظاهر بأنه لم يسمعه .. وفكر فى أن يكرر السؤال ، ولكنه خشى أن يسمع الاجابة التى يتوقعها . أن شروط العقد لا تسمح له أن يعرف أين هو الآن . انه لموقف عجيب . ان وجوده فى المكان لا يعنى أنه يعرفه . انه يحتاج الى كلمة . الى عنوان . لا يكفى أن يرى ما يراه . وأن يتنفس الهواء المحيط به ، وأن ينطلق فى سيارة فى هذه الأرض ، كل هذا لا يعوضه عن اسم ليرتبط بما حوله ، انه لا يستطيع أن يتصور نفسه يسير فى شوارع القاهرة ، ويدخل بيوتها ، ويتردد على أماكن عمله ، دون أن ترتبط حركته بوعى دائم بالقاهرة ، لا يستطيع أن

يتحمل حقولا وترعا وترى ونهرا وصحارى وشطآن يجوس خلالها ويعيش فى ربوعها وهو لا يعرف أن لها اسما هو مصر .



عندما زار الصين · كان كل ما تقع عليه عيناه · يتحول الى صينى · هذه سماء الصين وهذه هى مدنها · وبيوتها وطرقاتها وناسها وحقولها ومصانعها · لو تجول فى الصين وهو لا يعرف لها اسما لأصابه الجنون · اننا نعيش بظرف الزمان وظرف المكان وكليهما لابد من فهمه بكلمه · باسم نسميه به · فما هو اسم هذا المكان · ايكفى أن يقول انها صحراء · انه يقضى هذه اللحظة صباحا فى صحراء · اى صباح · اية صحراء · انه على الاقل يعرف أن الأمس كان الخميس واليوم هو الجمعة · وخطر له خاطر مفزع · اواثق هو أن اليوم هو الجمعة · وانه انتقل الى هذا المكان بعد أن تم تخديره قبيل فجر اليوم · وصاح بالسائق :

ـ اليوم الجمعة ·· اليس كذلك ·

لم يكترث السائق البدين القصير لما يسمعه · فرفع صوته فى عناد :

ـ اتسمعنى انى اخاطبك ؟

سمع السائق يقول بصوته الآلى دون أن يدير راسه :

ـ نعم انى اسمعك يا سيدى ·

فصاح فى قلق · فبدا صوته آمرا :

ـ اليوم الجمعة ·· اليس كذلك ·

اجاب السائق بصوته المعدنى الرتيب كانه صادر من جهاز تسجيل :

ـ لا ادرى يا سيدى ·

هتف منفعلا :

ـ ماذا ·· لا تدرى فى اى يوم نحن ·

اجاب السائق ببلادة ، أو لعلها صفاقة :

ـ نحن لا نعرف هنا أسماء للأيام يا سيدى ·

صـاح :

ـ مستحيل · هذا تخريف ·

قال السائق يحسم الأمر :

ـ صدقنى · لا أسماء للأيام هنا ·

فانفجر غاضـبا :

ـ ولكنى أعلم أن اليوم هو الجمعة ·

قال السائق محتفظا ببلادته أو صفاقته :

ـ اذن فهو الجمعة يا سيدى ·

فعاجل السائق بالسؤال الذى يلح عليه :

ـ واين نحن ؟

اجاب السائق :

ـ نحن هنا ·

فرفع صوته مهددا :

ـ ماذا تعنى بقولك هنا ·· أليس لهذا المكان اسم ··

اجاب السائق :

لا اعرف اسماء يا سيدى ··

صاح هائجا :

ـ اية صحراء هذه ؟

فتمتم السائق :

ـ صحراء .. صحراء .. ماذا تعنى يا سيدى ؟

كاد يهجم على رقبة الرجل ويخنقه وهو يسأله بالحاح امتزج بغيظ شديد :

ـ لا تراوغ .. انها صحراء .

أجاب السائق بنفس البلادة أو الصفاقة :

ـ اذن هى صحراء يا سيدى .

صاح :

ـ أعلم أنك ممنوع من الاجابة على أسئلتى .. ولكنى عرفت الكثير .. أنت تتكلم العربية .. وهذه هى صحراء .. اذن نحن فى صحراء عربية .

قال السائق بلا تردد :

ـ حسنا يا سيدى . اذا كان هذا هو ما تريده .. فلتكن صحراء عربية .

تهالك يوسف على مسند الظهر وقد بلغ به الارهاق غايته. لا فائدة من مواصلة هذا الحوار المجنون . انه يعذب نفسه بلا فائدة . وعليه أن يختار . اما أن يواصل الرحلة بلا أسئلة أو يطلب العودة فورا . نعم عليه أن يختار وأن يقرر . انه منذ سمع مراد يحدثه فى أمر هذه الرحلة . وهو يواجه قضية الاختيار .

قال له مراد :

ـ فكر جيدا فيما أعرضه عليك يا يوسف . أنت تقول انك تعيس . وأنك لم تعد قادرا على تحمل الظروف القاسية التى تحيط بك .. وأن أفكارا سوداء تراودك لتتخلص من نفسك التى لم تعد تستقبل الا الهموم والمصائب والأمراض . ما رأيك فى أن تقبل ما أعرضه عليك .. رحلة الى مكان مجهول .. تغسل فيها نفسك تماما من كل هذا الذى تعانى منه . تنقطع صلتك بكل ماعرفته كأنك ولدت من جديد . وتعطى نفسك فرصة للتفكير الهادىء المتزن لتبدأ حياتك من جديد . مرحلة جديدة تماما تتخلص فيها من كل مساوىء الماضى وعيوبه ومضاره . تبنى مستقبلا مشرقا سعيدا .. أنصحك يا يوسف .. لا تحرم نفسك من هذه الفرصة .

ومضى مراد يشرح له مزايا المشروع الذى يعرضه عليه . ان الدراسات العلمية التمهيدية التى قامت بها مؤسسة « د . س » السياحية . قد أثبتت أن هناك حاجة حقيقية لدى الناس فى هذا العالم . لأن يفروا مما هم فيه من مشاكل ومعاناة الى أماكن مجهولة لا يعلمها أحد . ولا يعلم موقعها فى هذه الدنيا نفس الذين جاءوا اليها طالبين الراحة . أثبتت الدراسات أن مثل هذا المشروع سيكون عليه اقبال غير عادى بل ان بعض خبراء التسويق أكدوا فى تقاريرهم أنه يندر أو يستحيل تصور وجود انسان على هذه الأرض لن يحتاج فى وقت ما الى القيام بمثل هذه الرحلة فى مرحلة ما من حياته اذا

ما توافرت له امكاناتها • وهذا يعنى أن المشروع مضمون النجاح وسوف يحقق أرباحا خيالية • وسيكون صيحة العصر فى المشروعات المبتكرة التى يستقبل بها الناس القرن الواحد والعشرين • فاذا كان القرن العشرون قد فرض على البشرية حاجتها للاتصالات الهاتفية والصوتية والمرئية والانتقال من أى مكان الى أى مكان بالطائرات والصواريخ• فان القرن الواحد والعشرين سوف يخلق حاجة أساسية للبشر • تتمثل فى امكانية التواجد فى اماكن مجهولة لبعض الوقت • تنقطع خلاله صلتهم بكل ما واجهوه ويواجهونه من مشاكل • لقد فشل مجتمع القرن العشرين فى تحقيق الخلاص الحقيقى للانسان • ولم تفلح المخدرات وعقاقير الهلوسة والحبوب المهدئة والمنومة فى صنع الملاجىء التى يحتمى بها الناس من هجمات الهموم والمصائب عليهم • ومن قبل لم تفلح الأفكار والمذاهب السياسية والاقتصادية فى صنع المجتمع المريح المرفه الذى ينعم فيه البشر بالراحة • والانسان الذى هو من لحم وعظم ودم • لم يعد قادرا على مواصلة تحمل ما يتعرض له من صعاب تزداد تعقيدا وخطورة جيلا بعد جيل • لم يعد هناك مفر من سياحة الى المجهول • انها أروع اكتشاف وصلت اليه الانسانية وهى على مشارف القرن الجديد • انه الاكتشاف الذى يوازى ما سيتم من اكتشاف للكواكب والمجرات فى الفضاء اللانهائى •

استمع الى مراد وهو غير مصدق • ولكن مراد حسنين كان رجلا عمليا • لا يضيع وقته فى الجرى وراء الأوهام • كان زميلا له فى ادارة التحقيقات بوزارة المعارف • وفجأة استقال وهاجر الى أمريكا الجنوبية • فلما قابله بعد سنوات فى القاهرة • كان قد تحول من موظف فى ادارة بالحكومة المصرية الى واحد من كبار الأثرياء فى العالم • ولكن هذا التطور الذى طرأ على مراد لم يجعله يقطع صلته بيوسف • فقد ظل الذى يربط بينهما صامدا على مر الأيام • كانا قد أحبا شقيقتين توءم • أحب مراد مريم وأحب يوسف زينب • ثم كان ذلك الحادث الذى انقلبت فيه السيارة التى تقل الخطيبين والخطيبتين • وفقد مراد خطيبته مريم • وبقيت زينب لتتزوج يوسف • وليوقع مراد كشاهد على عقد زواجهما •

كانت عينا مراد تلمعان وهو يستمع الى شكوى يوسف مما انتهى اليه أمر زواجه بزينب • كأنه يقول لنفسه : لقد نجوت من هذا المصير • فنهاية علاقتى بمريم اكرم من هذا الذى تنتهى اليه علاقتك يا يوسف بزينب •ولكن أزمة زواج او طلاق ليست وحدها التى تدفع بالانسان الى أن يفكر فى الخلاص من نفسه • ان القوى التى تتصارع وتتفاعل داخل يوسف مركبة من عناصر كثيرة • لو جمعها لملأت كل هذا الفضاء من حوله • هذه الصحراء الفسيحة التى تنطلق فيها هذه السيارة السوداء لا تتسع لما فى قلبه من احزان ومهانات•

الكذب فى ثوب صدق • الخسة فى رداء الشهرة والبطولة •
ذلك التزيف المستمر لأى معنى لاحترام النفس • ثم هذا الولد
من يوسف منصور • ابنه الذى لم يعد ابنه • كيف يخمد هذه
الأصوات ؟

لقد بدأ المغامرة وشعاره ليكن ما يكون • كان يقولهـــا
يرددها • دون أن يحدد لها معنى واضحا يستقر عليه • اكتفى
بأن يندفع فى المغامرة نحو هذا المجهول الذى هو بين أحضانه
الآن • وهو لا يصدق حتى آخر لحظة ما يقوله مراد •

كان واثقا أن مراد حسنين يشغله بما قد يتورط فيه بعض
الوقت لعله ينسىأفكاره « السوداء » فهكذا وصفها مراد وهو
يشجعه بابتسامة ولهجة واثقة : لماذا لا تتخلص يا يوســـف
يا أخى من شراك هذه المصيدة • قل انك موافق وســـوف
ترى العجب •

قال لمـراد :

ـ انا موافق •

قالها ساخرا • أو قالها يائسا • أو قالها لمجرد مواصلة
حديث أجوف لا معنى له • بعد أيام طلب منه مراد أن يزوره
فى الفندق • جلسا يتناولان الافطار فى الشـــرفة المطلة على
النيل فى جناح أجره مائة وعشرون جنيها فى اليوم •

كان مراد يرتدى الروب دى شامبر يغطى به جسده العارى
وقد كشف صدره عن شعر رمادى يفضح سنه • وقد أمسك
بملعقة صغيرة يلتهم بها ثمرة مانجو فى طبق من الكريستال

محاطة بالثلج • وقال مراد وقد أمتلأ فمه بلحم المانجو :

ـ اسمع يا يوسف • كل شىء معد • لقد أجريت اتصالاتى
•• وكل ما هو مطلوب منك أن تسافر الى زيورخ •

قال وهو لا يخفى دهشته التى لا تخلو من سخرية :

ـ أسافر •• هكذا •• بلا أى ترتيب أو استعداد ؟

صاح مراد بصوت مختنق بما فى فمه :

ـ أى ترتيب •• قلت لك كل شىء معد •

فسأل محتجا :

ـ والنفقات ؟

قال مراد وهو يرشف القهوة :

ـ مسألة بسيطة •

ونظر اليه فاحصا قبل أن يكمل :

ـ ادفع الآن ألف جنيه ••

ولابد أن مراد قد لاحظ أنه وجم لسماع الرقم • فأسرع
يقول :

ـ أستطيع أن أقرضك •

اجاب متحديا :

ـ لا •• سأدفعها •

فصاح مراد :

ـ عظيم ••

وانطلق مراد يحدثه عن شعوره بالمسئولية نحوه كصديق•
انت الوحيد يا يوسف الذى بقى من أصحابى بل ومن أهلى فى

مصر • انا اعيش وحدى كما ترى • وحياتى ليس فيها مجال للعواطف • المال يمنحك النفوذ والسلطة • تستطيع ان تشترى به اى شيء • الا الصديق •• انت يا يوسف الانسان الوحيد الباقى على هذه الارض الذى يذكرنى بايام شـــبابى و ••

ولوح مراد بيده فى الهواء وحول نظراته الى النيل حتى لا يذكر اسم مريم •

وعرف الجميع ان يوسف منصور مسافر الى سويسرا • واعتذرت زينب عن العمل فى الفندق ليلة سفره • بذلت جهدا رائعا لتقوم بدور الزوجة • الدور التقـــليدى الذى كرهته وتحررت منه • اعدت له طعام العشاء بنفسها • ســـجق وبطاطس محمر وسلاطة خضراء • وآيس كريم • ولم تسأله ان يغسل الصحون • وصنعت له فنجانا كبيرا من القهـــوة وتجنبت الحديث عن عملها • طلب منها ان تحدد ما تريد ان يشتريه لها من سويسرا •

وسالها اذا كانت تفضل ساعة يد او معطفا او عطورا • او كل هذا ، ابتسمت وقالت له بحنان او لعله فى الحقيقـــة اشفاق : انها تعرف ان الغلاء فى أوروبا شديد • وفى سويسرا بالذات • وهى تعـــلم من عمـــلها فى الفـــندق ان الفرنكات السويسرية اصبحت بضاعة غالية فى سوق المال • ولا معنى لان يضحى بنقوده من اجلها • يكفيها اى شيء بسيط • هذا اذا اراد ان يتذكرها • وضحكت فى ثقة • كانت هذه هى اول مرة تقول له فيها باسلوب لبق انها مستقلة تماما عنه • لها

عملها ولها نقودها الخاصة • وهى قادرة على أن تعتمد على نفسها وليست فى حاجة اليه •

انتهت حرب الاستقلال • وانفصلت الدولتان • دولة الزوج ودولة الزوجة • انتهت الضغوط الاقتصـــادية • والمعونات المشـــروطة • انتهت العلاقات المالية والثقافية • اختلفت الدساتير وانفصلت مصادر التشريع • حتى اللغة المشتركة التى كانت تجمع بينهما يوما ما • أصبحت تحمـــل معانى متناقضة • ولم يبق بينهما الا المجاملات التى يعتمد عليهـــا الغرباء فى التعامل مع بعضهم بعضا • انتهت أيام الاشتباكات العاصفة • أيام الحرب الأهلية التى اشـــتعلت بين جدران البيت • أيام كانت تطالب باستقلالها بالدم • أيام كانت تصرخ وتبكى وتخرج من المطبخ فى يدها سكين طويل وتهجم عليه • فيقف لها متحديا فاتحا صـــدره • وتتجمد يدها المرفوعة بالسكين وتصرخ •• يجب أن تعلم أن لاشيء سوف يحـــول بينى وبين العمل حتى لو قتلتك • أو قتلت نفسى •

أصبحت هذه المشاهد فى ذمة التاريخ • ذهبت أيام زينب التى احبها •• وذهبت أيام زينب التى صارعها وكرهها •• اختفت زينب الصديقة •• واختفت زينب العدوة ، ولم تبق الا هذه المرأة التى اسمها زينب الغريبة تماما عنه • وها هى تفاجئه بسؤالها اذا ما كان فى حاجة الى دولارات • أن معها الكثير • وهى غنية على استعداد لأن تقرضه على أن يكون سداد القرض بعد عودته من سويسرا • تتذكر مراد وهو يقول

له نفس الكلام وهما جالسان فى الشرفة المطلة على النيل · لقد شعر بالتحدى أمام عرض مراد ·ولكنه رجل ذكى داهية ، شعر على الفور بما يجيش فى نفسه ، فســارع يحدثه عن الصداقة ويقول له أنت الوحيد يا يوسف الذى بقى لى ·· ولا أستطيع أن أشترى صديقا بالمال · أما زينب فلن تقول له ابدا مثل هذه الكلمات ، لن يخطــر ببالها أن علاقته بهـا لا تشترى ولاتقدر بمال · لن تعترف كما اعترف مراد بأن المال قد يمنح صاحبه النفوذ والسلطة ولكنه لا يمنحه عاطفـــة صديق أو حبيب ·

ان المال عند زينب هو السلاح الذى تستخدمه لتتخلص من الصديق أو الحبيب · هو الوسيلة السحرية التى تحركها من قيد العلاقة ، انها جائعة للمال · لأنها جائعة للسلطة ، وهى جائعة للسلطة لأنها خائفة من أى خضوع قد تتطلبه ارتباطاتها مع انسان آخر ، انها تعرض عليه القرض لتبعده عنها ، لتدعم شعور الغربة بينهما ، ولعلها تتشفى وتنتقم لأيام قضتها معه وهى تعتمد عليه فى معاشها ·

قال لزينب :

ـ لا · معى ما يكفى ·

قالت له بلهجة غامضة · قد تكون ساخرة أو غاضبة أو محتجة :

ـ ومن أين جئت بالنقود ؟

فلما أجابها بالصمت ، صفعته قائلة :

ـ مراد أعطاك النقود ؟

واحتفظ بصـــمته · وهـــو يعلم أنه يغيظها ، فلاحقته بصفعاتها ·

ـ أنه قادر على أن يمول رحلات ألف شخص · ولكن قبولك النقود منه سوف يجعله ينظر اليك نظرة أخرى غير نظـــرة الصديق· ·

قال لنفسه : وقبولى النقود منك ســـوف يجعلك تنظرين الى نظرة أخرى غير نظرة الزوجة · انها تسقط ما فى أعماقها من مشاعر وتفرزها فى كلمات ·

ووجد نفسه يضحك بقهقهه ·

سألته فى دهشة :

ـ ماذا بك ؟

قال وقد دمعت عيناه :

ـ لا أدرى ·· ولكنى أريد أن أضــحك ·· لعل شر البلية ما يضحك كما يقولون ·· وتجاهلته لبعض الوقت · ولكنها اقتربت منه فى السرير ، وسأل نفسه أهذا قرض آخر ، فلما خرج مما غاب فيه ، تذكر مراد وهو يقول له : الذى يذهب إلى هناك يا يوسف لا يعرف الى أين ذهب والذى يعود لا يعـرف من أين يعود ، هذه هى المتعة الحقيقية يا يوسف ، وها هى زينب التى كان يعرفها جســدا وروحا وعقلا ، كان يظن أنه يعرفها كما يعرف نفسه ·· أصبحت الآن زينب المجهولة ، غاب معها والابتســامة فى عينيه ، وهمست وهى تستقبله لـماذا

تبتسم ، فلم يجب ، وشعر معها بمتعة لم يشعر بها منذ زمن بعيد · وهى الآن راقدة بجواره مستسلمة حانية مرحبـــة ، ولكنها غريبة مجهولة بعيدة ، بينهما ما هو أقسى وأشد صلابة وتجهما من جدران السجن وقضبانه وظلماته وسجانيه ، وكل تلك الحواجز والعقبات المرعبة التى تحول بينه وبين ابنـــه حسن ، آه ·· لماذا يذكره ، ليس هذا وقته ، لو كان الأمـــر أمر زينب وحدها لهان ، لو كان الأمر أمر التزلف والنفـــاق والرياء وكل ما يفرضه عليه عمله من مذلة وهوان ، ربمـــا كان احتمله ، ولكن الانهيار قد تم بعد حسن ، ولعل مراد اختار له زيورخ لأن بها مصحة للعلاج النفسى ، هذا هو الاحتمـــال المعقول ، ومع ذلك بقى الحلم الساذج مستقرا فى أعماقه ، انه مسافر الى مكان مجهول ·

لقد كرر السؤال ومراد يسلمه تذكرة الســـفر بالطائرة ، ما الذى جعله يختـــار زيورخ ، هـــل هى البقعة المجهـــولة التى لم يســـمع بها أحد ، مكان فى ســـفح أو عنـــد قمـــة من قمم جبـــال الألب ·· هل هذا المشـــروع الأســـطورى مشـــروع القرن الواحـــد والعشـــرين الذى يدعوه الى التعامل معه ، هو مصحة نفسية تتعامل مع حالات الانهيار العصبى ، فضحك مراد وحدثه بلغة غامضـــة عن صعوبة شرح الخطوات العملية التى يجب أن يمر بهـــا ، قال لـــه :

ـ ثق أنى لا أعرف كل شىء ·· وعندما تصل الى زيورخ

سيقابلك من يعرض عليك التفاصـــيل ·· والأمر كما فهمت يتوقف على مدى ثقتك فى أصـــحاب المشروع ، وطبعـــا مدى حاجتك اليهم ، فأنت صاحب الشأن ولك الخيار ·

وعندئذ واجه مراد برأيه ، قال له :

ـ أنت تلعب يا مراد ·· وتظن أنك تشغلنى عن مشاكلى ··

فقاطعة مراد معاتبا :

ـ وهل تلومنى على ذلك ·

قال محتدا :

ـ بصراحـــة أنا لا أصدقك ·· ولقد قبلت منك اقتـــراح السفر ، لأنى شعرت باهتمامك ، ولأن السفر قد يفيدنى فعلا ·· ثم أعجبتنى لهجتك المرحة وأنت تقول لى ان ما تعرضه على هو طريقة مبتكرة لأتخلص من نفسى ، أعجبنى مرحك وحماسك كما أعجبنى أكثر خيـــالك ، تستطيع أن تقول انى ما قبلت اقتراحك بالسفر الا كنوع من الرد على تلك الدعاية المرحـــة الخيالية التى ابتكرتها حتى تدفعنى الى السفر الى مصحـــة للعـــلاج ·

ابتسم مراد وردد وقد لمعت عيناه :

ـ اذهب أولا الى زيورخ ، وسوف ترى ·

قال معاتبا له على محاولة التمادى فى الخيال :

ـ سوف أرى ماذا يا عزيزى ·· أنا اتحدث معـــك الآن حديثـــا جادا ··

قال مراد والابتسامة لا تفارقه :

- وانا ايضـــا ٠

فصـــــاح :

- اسمع يا مراد ٠٠ انا لا اقبل الاستمرار فى اللعب على هذا النحو ٠٠ الأمر كما أتصوره سخفا فى سخف ٠٠ خيالا فجا ٠٠ فما هى تلك المؤسسة التى تقوم بمثل هذا العمـــل الخرافى ، وكيف لم يكتشف أمرها ، ولم يحدد أحـــد المواقع السياحية التى يذهب زبائنها اليها ٠

قاطعه مراد مهاجما :

- اسمح لى أن أقول لك ان حياتك فى مصر قد حددت افق تفكيرك وحصرت معلوماتك فى مجال ضـــيق ٠٠ لقد تطورت الحياة ووسائل العيش ونفذت الى مجالات لم يحلم بها انسان من قبـــل ٠

والتقط مراد انفاسه وأردف :

- وعلى اية حـــال ٠٠ اذا اردت ان تلغى المشروع ٠٠ فافعل ٠٠ فهذا شأنك ٠٠

حيرته كلمات مراد وقال مترددا :

- ولكن من يقبل ان يذهب الى مكان لا يعلمه ويخاطر بدفع نفقات السفر ٠٠ وكيف يعيش ٠٠ وكيف يترك احواله وأمواله معلقة ٠٠ ولا أحد يستطيع ان يتصل به ٠٠ ولا هو يستطيع ان يتصل بأحد ٠٠

فقاطعه مـــراد :

- لك أن تعود وقت أن تشاء ، فأنت حر ٠٠ وفكرة المشروع قائمة فى اساسها على احترام حرية الانسان ، واعطائه الحق كاملا فى أن يتخذ قراره وحده دون مؤثرات خارجية من أحد ، فعندما تنقطع صلتك بالناس ، ستكون أنت وحدك صـــاحب الرأى وصـــاحب القرار ، فى تحديد موعد العودة وموعد استئناف الاتصال ٠ صدقنى يا يوسف ان هذا معنى كبير فى حياتنــا ، ولقـــد أدركته عندما عزلتنى ثروتى عن الناس ، وجعلتنى أعيش وحدى ، تحاصرنى الأطماع ونظرات الحسد والوان النفاق والكراهية والتذلل ومحاولات الخداع والنهب والسلب ، وسط هذا الحصار البغيض كنت أستفيد من انقطاع الصلة ، لأختـــار وحدى بمفردى قرار الاتصـــال بمن أريد الاتصال به ، أنت يا يوسف أكبر شاهد على صحة ما أقول ، فأنا الذى أتصـــل بك عندما أجيء الى القاهرة ، وأنا الذى أسعى اليك ، وعندما أغيب تنقطع الصلة بيننا ، أنت لم ترسل لى خطابا واحدا فى حياتك ، لم تطلب منى طلبـــا واحدا فى حياتك ، وأنا الجأ اليك كصديق ٠٠ بل الصديق الوحيد الذى أحتفظ به فى هذه الدنيا ، ولهذا كان من حقى أن أحاول انقاذك من متاعبك ٠٠ وأن ادلك على هذه السياحة الحديثـــة ، التى تعالج النفس وتجددها ، وتؤهلها للعودة من جديد لاستئناف اتصالاتها بالناس ، وقد أخذت فرصتها من الراحة والسكينة النفســـية ٠

همس كأنه يخاطب نفسه :

ـ مازلت غير مصدق ·· نفسى تحدثنى أن ما تقوله ليس أكثر من ترديد لعبارات قرأتها فى نشرة سياحية ·

قال مراد باسما :

ـ مؤسسة « د · س » ليس لها نشرات ·· ومع ذلك ··

وتوقف مراد ، وقد اختفت الابتسامة من وجهه وقال :

ـ ربما أنا أضحك عليك ·· ربما كان هذا كله تخريفا فى تخريف ·· ربما أنت مسافر فى الحقيقة الى زيورخ لبعض الوقت ثم تعود ·· ولكن ربما يكون الأمر ليس تخريفا ·· وليس مجرد رحلة الى زيورخ ، وأنها بالفعل مغامرة فريدة فى نوعها ·· وعليك أن تقرر بنفسك ، اذا أردت أن تقبل هذا الذى لا تصدقه الآن ·· فيكفى أن تمضى فى رحلتك الى زيورخ وهناك ستكون فى موقف أفضل للقبول أو الرفض ·

قال وهو يراجع كل كلمة يسمعها كما لو كان يراجع كشف حساب يكلفه أعباء مالية باهظة :

ـ وماذا لو أن نقودى نفدت قبل أن تحين الفرصة لأتدبر أمرى وأتخذ قرارى ··

قال مراد :

دعك من نغمة التشاؤم هذه ·· وثق انك سوف تتخذ قرارك باسرع مما تتصور ·

تنبه يوسف وقد لاح فى الأفق لون آخر غير لون الصحراء ، وظهر ما يدل على وجود بعض المبانى القليلة ، فدقق النظر ليكتشف ان السيارة مقبلة على أرض خضراء ·

سأل فى لهفة :

ما هـذا ؟

قال السائق :

ـ هناك تقيم يا سيدى ·

فسأل فى قلق :

ـ وحـدى ؟!

قال السائق :

ـ هناك كثيرون ·· ولابد أنهم فى انتظارك يا سيدى ··

ردد شاردا :

ـ فى انتظارى ·· لماذا فى انتظارى ··

قال السائق :

ـ أعنى أنهم يتوقعون قدوم ضيف جديد ·

أهو مقبل على ناس ، ومجتمع ، اى ناس ، وأى مجتمع ، بدا له أنه تورط فى لعبة لا معنى لها ، لابد أن يعود الليلة ، أليس هذا هو المكان الذى كان يحلم به ، صحيح أن الهدوء هنا مضمون ، ولكن مثل هذا الهدوء كفيل بأن يثير زوابع كثيرة فى أعماقه ·

منذ أن استيقظ فى الهليوكبتر والذكريات تهاجمه ، ان السيارة تنطلق به فى هذه الأرض المجهولة ، نحو تلك المبانى الغامضة القائمة عند الأفق ، بينما خيالاته تنطلق به الى عالم الذكريات ، فهل يجد راحة نفسه وهو موزع مشتت بين

النقيضين ، المجهول والذكريات ، لا شئ يريح النفس مثل الهرب الى مكان صاخب ممتلىء بالضجيج والحركة حيث ينشغل عن نفسه بما حوله ٠

كانت السيارة قد بلغت حافة الأرض الخضراء ، بساط من الحشائش الخضراء يخترقها طريق الأسفلت فى نهايته ، على امتداد البصر مبنى أبيض كبير من طابقين ، وخلفه أو حوله بعض المبانى الصغيرة المتناثرة ٠

وهتف يأمر السائق :

ـ قف ٠

قالها فى فزع ، وكأنه يمنع السيارة من الاصطدام بجدار لا ينتبه السائق اليه ، وتوقفت السيارة فى الحال ، وقال مخاطبا السائق :

ـ انتظر ٠٠ ربما طلبت منك أن تعود بى ٠٠

ظل السائق صامتا جامدا مكانه ، بينما فتح هو الباب ، وهبط الى الطريق وتحسس الأرض بقدميه ، وعبر الأسفلت الى الرمال على جانب الطريق ٠٠ الرمال ممتدة الى ما لا نهاية سوى هذه الأرض الخضراء المنبسطة التى كادت السيارة تتقدم فيها الى المبانى القابعة فى نهاية الطريق ٠

وشعر برغبة غير عادية تتملكه فى أن ينحنى ويلمس رمال الصحراء وجلس القرفصاء ، ومد يده وأمسك بحفنة من الرمال ، وارتجف جسده ، انها ليست رمالا ، هذا تراب ،

جعل يغترف بيديه يبحث عن الرمال بين التراب فلا يجد الا التراب ، تولاه الهلع ، كيف اخطأ وظن أنها رمال ، كيف توهم انها صحراء ، هذا تراب ، ولو أمطرت لتحول الى طين ٠

مشى كأنه يجرى وسط التراب ، يريد أن يتأكد ، ينحنى ويفحص ، ويقبض حفنة وراء حفنة ، ثم يتركها فينساب التراب بين أصابعه ، وعاد لاهثا حتى وصل الى السائق وأطل عليه من الخارج وقد وضع يديه يستند بهما على نافذة السيارة وصرخ :

ـ هذا تراب ٠

ولم يجبه السائق ، ظل جامدا مكانه ، فادخل يديه من نافذة السيارة وبسط كفيه أمام عينى السائق وهو يردد منفعلا :

ـ تراب ٠٠ أرض بور ٠٠ تراب ٠٠ قلت لك تراب ٠

تمتم السائق بصوته البليد :

ـ نعم يا سيدى ، تراب ٠

فصاح :

ـ ماذا تعنى بنعم هذه ؟!

قال السائق محتفظا بالهدوء ورتابة صوته :

ـ هذا هو ما تريده يا سيدى ٠٠ فليكن ترابا كما تشاء ٠٠

نظر الى السائق طويلا ٠٠ وهو يقول لنفسه :

ـ أعلم أنك ممنوع من الادلاء بأية معلومات ‥ والا فقدت وظيفتك ‥

لعل هذا هو مفتاح اللعبة ، أن يشغل نفسه بمحاولة كشف سر هذا المكان ، وبذلك ينشغل عن نفسه وعن أحزانه وهمومه ، انها لعبة معقدة ، غاية فى السخف ، ومع ذلك فهى تتحداه ، ولا بأس أن يشغل نفسه بها بعض الوقت ٠ حتى هذا المساء ، يلقى نظرة سريعة على هذا المكان ، يتقدم فى هذه الأرض الخضراء ، حتى ذلك المبنى ، ويرى ما به ويرى أولئك الذين يتوقعون قدومه ٠

وركب السيارة ٠ وما كاد يغلق الباب ، حتى انطلق السائق بالسيارة متقدما الى المبنى فى نهاية الطريق الأسفلت ٠

أسرع حارس عملاق الى السيارة وهى تقف عند البوابة الحديدية ، وفتح الباب داعيا يوسف منصور للهبوط ، تردد يوسف قبل أن يغادر السيارة ، فالبوابة بعيدة عن المبنى الأبيض من طابقين نوافذه الصفراء أغلبها مغلق ، هل يمشى مئات الأمتار فى تلك الحديقة الكبيرة ومعه حقائبه ، رفع عينيه الى وجه الحارس ، عيناه خضراوتان واسعتان ، أشقر الشعر يغطيه بقبعة رمادية أشبه بالبيريه ، من نفس لون القميص والبنطلون ٠

وهمس يوسف اذ لم يقو على رفع صوته :

ـ الا تدخل بنا السيارة ؟!

قال الحارس بلهجة مؤدبة ولكنها حاسمة :

ـ تفضل يا سيدى ‥ ممنوع دخول السيارات حتى لا تزعج النزلاء ‥

أراد يوسف أن يحتج ، ولكنه تراجع ، وأقنع نفسه أنه قد يكون من الأفضل أن يستسلم لكل ما يطلبونه منه فى هذه الفترة القصيرة التى سيقضيها فى هذا المكان ، لا داعى لأن يقضى وقته بين الاحتجاج والصراخ والغضب وابداء الدهشة ،



ولكن هناك مشكلة لابد من مواجهتها ·· حقائبه الثلاث

فى نفس اللحظة التى فكر فيها فى الحقائب ، سمع الحارس يقول له انه سيجد حقائبه فى انتظاره بحجرته ، وقاوم مخاوفه بصعوبة ، انه لا يثق فى كلام الحارس ولا يطمئن اليه ، ويزيد من مخاوفه أنه لا يستطيع أن يتصور أو يتحمل كارثة فقدان حقائبه ، لأمر ما أصبح ارتباطه بها أقوى وأعمق من مجرد احتياجه لما فى داخلها ، كأنها أصبحت جزءا منه ·

التفت يوسف الى السائق الذى هبط بدوره ، وهمس وقد عجز تماما عن رفع صوته :

ـ هل تأتى معى بالحقائب ؟!

لم يجب السائق ، بينما أشار الحارس العملاق الى باب جانبى صغير فى البوابة الحديدية الكبيرة المغلقة ، وقال بلهجته المؤدبة الحاسمة :

ـ تفضل يا سيدى ·· انهم فى انتظارك ··

ألقى يوسف بنظره عبر الفتحات فى الحديد المشغول على الحديقة ، وأشجارها وأحواض الورد والزهور والممر الذى يفضى الى المبنى فى نهايته ، ودلف من الباب الصغير ورجفة تسرى فى جسده ، لعلها رجفة الخوف من طول المشوار ، سار بين الخضرة على الممر المغطى بحصى صغير يحدث صوت احتكاك خفيف كأن شيئا ما يتهشم تحت قدميه ، وانتابته نفس الرغبة التى دفعته من قبل الى أن ينحنى على الرمال ويمسك بها ليكتشف انها تراب ··

أراد أن يلمس الحصى تحت قدميـــه ، وأن يلمس جذوع الأشجار على جانبى المشى ، وأن يلمس الحشائش ، والورد والأزهار بألوانها الزاهية ، لم يعد واثقا فيما تراه عينـــاه ، ما يدريه أن هذا الذى يحيط به ويمتد تحت قدميه ، ليس هـو نفس الشىء الذى يتوهم أنه يراه بعينيه ، ولكن أممكن هذا ، أن تكون هذه الأشجار ليست أشجارا ، مجرد منظر مصنوع من الخشب أو الورق مثلا ·· كتلك المناظر التى يعدونها فى ستوديوهات التصوير بالتليفزيون ، لماذا تهاجمه وتحاصره مثل هذه الخواطر المجنونة ؟

وتقدم خطوة الى شجرة كافور ليلمســـها ، ولكنه قبل أن يصل اليها رأى بعض الرجال يجلسون على مقربة منهـــا حول مائدة خشبية على يمين المشى ، رءوسهم نحوه ، فوجىء بهم ، فتعثرت خطواته ، أراد أن يحييهم ، ولكن نظراتهم بدت جامدة ، لا تشجعه على أن يلقى عليهم السلام ، ولكنهم بكل تأكيد ، رجال ، بشر ، انس ، وهو لن يجازف بأن يذهب اليهم ويلمسهم ليتأكد انهم ليسوا تمـــاثيل ، وحث السير مبتعدا عنهم ، وقد اشــتد صوت الحصى ·· يحتك أو يتهشـــم تحت قدميه ، وقال لنفسه : انه لو التفت الى الوراء ، فسيرى عيونهم تلاحقه ، كان ظهره منكمشا كأنه يتقى وخز نظراتهم ،

وواصـل السـير لاهثا ، حتى وصـل الى المبنى الأبيض ·

جناحان كبيران يتوسطهما باب رئيسى على جانبيه عمودان من الرخام الأبيض يحملان فوقهما مثلثا من الجبس الأبيض داخله نقوش زخرفية لدوائر متشابكة يتوسط كل دائرة نقطة سوداء لعلها من الأبنوس · أو لعلها عيون آلات تصـوير · أو لعلها عيون كائن عجيب ·

كان الباب بين عمودى الرخام من الزجاج السـميك ، وكان مغلقا ، وقبل أن يمد يده كان قد انفتح ، ودلف الى بهو يرتفع سقفه على أعمدة رخامية ، ويغطى أرضـه بســـاط رمادى ، تناثرت فوقه مقاعد وأرائك من الجلد الأخضـر الزيتونى · فى حلقات تفصل بينها الأعمدة الرخامية · وهناك فى أقصى اليمين لوحة من الأبنوس الأســـود تتدلى من السقف مكتوب عليها « الاستقبال » ، يقف تحتها رجل قصير بدين يكاد يشبه ســائق السيارة ، كأنه شقيقه التوءم · لولا أنه أصلع ، يرتدى ملابس ســـوداء ·

كان واقفا خلف حاجز خشـــبى أمامه طاولة عليها دفاتر وأوراق وجهاز لشـبكة اتصــالات تليفونية ، وخلف الرجل أرفف من الخشب « الماهوجنى » مقســـمة على هيئة مربعات كصناديق بلا غطاء مثبتة فى الجدار يتدلى من بعضها مفاتيح ، ومثبت أسفل كل مربع خشبى لوحة معدنية صفراء عليها رقم مكتوب بحروف حمراء ·

كان البهو خاليا ، يسوده الصمت ، ولاحظ وهو يس ير على

البساط الرمادى ، أنه لم يعد يسمع صوت التهشيم والتكسير تحت قدميه ، وأسرع الى الرجل القصير اليدين الأصلع ، وقد تملكته رغبة غير عادية فى أن يلمس الحاجز الخشبى الذى يقف خلفه الرجل ، وأن يتحدث مع الرجل ، وأن يثبت لنفسه بسرعة وبلا أدنى ابطاء ، أن يراه بعينيه ليس وهما ولا خداعا ٠

ظل الرجل القصير اليدين الأصلع يحدجه بنظرات جامدة غبية ، لا تتفق مع اللهفة التى يقبل بها عليه ، فلما لمس بيديه الحاجز الخشبى ، كان مرهقا الى درجة أنه تهالك على الحاجز ، ولولا أن أيقن أنه بالفعل حاجز خشبى لسقط مغشيا عليه ٠

ورأى شفتى الأصلع تتحركان فجاة وسمعه يقول :

ـ حضرتك الأستاذ يوسف منصور ؟

قال وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة :

ـ نعم ٠٠

أراد أن يسأله كيف عرف أنه هو ، اراد ان يصافحه ليلمسه ، أراد أن يثرثر ليخرج من صمته ، ولكنه عجز عن بذل الجهد والقاء الأسئلة ٠

وسمع الأصلع يقول :

ـ كل شىء معد ٠

وتحرك بجسده القصير اليدين مستديرا الى الحائط خلفه ، ومد يده الى مفتاح يتدلى من مربع خشبى ، رفعه ولوح به أمام عينيه ، مشيرا الى الرقم المدون على اللوحة المعدنية

الصفراء أسفل المربع ، وقال وهو يقدم له المفتاح :

ـ ثلاثة وخمسون ٠

دوى الرقم فى أذنيه ، ثلاثة وخمسون ، واشتدت قبضته على المفتاح والقرص المعدنى الموصول به يحمل الرقم ٠

وهمس سائلا الأصلع :

ـ هل تريد منى أن أكتب لك بيانات ؟

قاطعه الرجل قبل أن يكمل :

ـ لا ٠٠ البيانات التى عندنا تكفى ٠٠

فوقف حائرا ، أراد أن يسأل عن شىء هام ، ولكنه أفلت من ذاكرته ٠ لقد أربكته معاملة الأصلع ، وفاجأه هذا الاستقبال الهادىء الواثق ٠ كل شىء معد ، والرجل يعرف اسمه ، ولا يحتاج الى بيانات عنه ٠ ثم هو يقدم له مفتاحا له رقم يتفق صدفة مع سنوات عمره ٠ أو ربما أراد الرجل عن عمد أن يداعبه ، مقدما عرف من البيانات الكافية التى عنده ان القادم فى الثالثة والخمسين ، قرر أن يعطيه مفتاح الحجرة الذى يحمل نفس الرقم ٠ ولو صح هذا فهى دعابة سمجة ، فمن يريد أن يتذكر هذه السن ، الا يكفيه ما يلاقيه من زينب ٠٠ لا تنس أن بينى وبينك ربع قرن ٠٠ بينهما عشر سنوات ، ولكنها تصر على فارق ربع القرن ٠ وتذكر الشىء الهام الذى اراد أن يسأل عنه ٠ الحقائب ٠٠ نعم الحقائب ، زينب ذكرته بالحقائب ٠ وفاجأه الأصلع قبل أن يفتح فمه :

ـ حقائبك يا سيدى فى الحجرة ٠

وأشار الرجل بيده فى اتجاه الى يمينه قائلا :

ـ تفضل :

سأل فى حيرة :

ـ الى أين ؟

قال الأصلع :

ـ المصعد الى اليمين ٠٠ الطابق الثانى حيث تجد حجرتك اول الممر ٠

كان لابد أن يتحرك ٠ ويعود الى صمته ، فتلفت حوله ٠٠ وسمع الأصلع يقول له :

ـ اذا أردت أى شىء يا سيدى تستطيع أن تطلبه عن طريق التليفون فى حجرتك ٠٠ ان سيدى يحتاج الى الراحة بعد رحلته الطويلة ٠

فقال ضاحكا يخفى قلقه :

ـ كم كان طولها ٠٠ أين نحن الآن فى خريطة العالم ٠٠

قال الأصلع وابتسامة عريضة على شفتيه :

ـ صدقنى يا سيدى ـ لا أحد هنا يعلم ٠٠ فالشركة التى نعمل بها ٠٠ أخذت كل الاحتياطات ليظل هذا الموقع السياحى مجهولا ٠٠ انهم يعتبرون هذه السرية هى رأسمالهم الحقيقى ٠٠

قال وهو يقاوم غيظا مكبوتا ، لولا الارهاق لكشف عنه :

ـ ولكنى واثق اننا فى بلد عربى ٠٠ انتم تتكلمون العربية ٠٠

قال الأصلع :

ـ الشركة لها مواقع كثيرة ٠٠ وقد اختارت لهذا المكان من لهم صلة بالبلاد العربية ٠٠

فسأله وقد حول ما يشعر به من غيظ الى رغبة فى التحدى :

ـ هل هناك قيود على الحركة فى هذه المنطقة ٠٠ هل هناك ما يمنع من القيام برحلات استكشاف ٠

قال الأصلع :

ـ أبدا ٠٠ تستطيع يا سيدى أن تتحرك كما تشاء ٠٠

فسأله :

والعملة التى نتداولها هنا ؟ ٠

فقاطعه الرجل :

ـ سيدى لا يحتاج الى عملة ٠٠ كل ما تطلبه يقدم لك ٠٠

قال غير فاهم لما يسمعه :

ـ وكشف الحساب ٠٠ كيف يسدد ؟ ٠

قال الرجل بسرعة :

ـ اطمئن يا سيدى ٠٠ ان مصاريف رحلتك مدفوعة بالكامل ٠٠

قال فى دهشة :

تقصد الألف جنيه ••

قال الرجل :

ـ ان السيد مراد حسنين قد غطى هذه المصاريف الى أجل غير محدود ••

اراد أن يحتج • أن يعترض • ورأى نفســــه يهجم على مراد حسنين ويخنقه ، أو يصـــفعه أو يبصق فى وجهه ، انه لا يطلب منه مساعدة ، ولا احسانا ، وليس من حقه أن يورطه فى تصرفات مالية دون أن يستأذنه ، انه يهينه اذ يتصرف معه كمليونير لا كصديق •

ورفع صوته لأول مرة قائلا :

ـ على اية حال •• لن أبقى هنا طويلا ••

ثم اردف قائلا :

ـ وقد أغادركم •• الليلة ••

قال الأصلع :

ـ حسنا يا سيدى ••

فسأله فجأة •• وهو يفكر فى مراد حسنين •

ـ أليس هنا شــرطة •• أو ادارة •• أعنى ســـلطة من أى نوع ••

قال الرجل باسما :

ـ لســـنا بحاجة الى شرطة يا سيدى •• وما الداعى الى السلطة بين سائحين محترمين يقضون أجازاتهم •

قال غير مصدق :

ـ قد تحدث جريمة •• او يقع حادث •• البشر هم البشر فى أى مكان ••

قال الأصلع فى هدوء غريب :

ـ لا شىء يحدث هنا يا سيدى ••

فى هذه اللحظة ، رأى يوســف رجلا متوســط القامة يتقدم نحوهما ، شعره رمادى • عيناه رماديتان ، فى خده الأيسر ندبة حمراء • خدش دام ، وبادره الرجل بلا مقدمات مخاطبــا اياه بالفرنســـية :

ـ بونجور مسيو •

رد التحية بسرعة • وكأنه يخشى أن يكون قدوم هذا الرجل وظهوره المفاجىء قد أفقده النطق •

وسأله الرجل :

ـ هل أنت جديد هنا ؟

أجاب بسرعة :

ـ نعــم •

قال الرجل بأدبه مجاملا :

ـ هذا واضح •• وأرجو لك اقامة مريحة •

ثم أردف بسرعة وكأنه يســـحب كلماته السابقة معتذرا عنهــا :

ـ وان كنت لا أثق فى أن هذا المكان يستطيع فيه انسان أن يستريح ·· هل تلعب يا سيدى لعبة معينة ؟

لم يفهم ما الذى يعنيه الرجل بسؤاله · ولكن السائل لم ينتظر الاجابة ، اذ واصل كلامه :

ـ أنا ألعب الكروكيه ·· هل تلعبها ·· انها اللعبة المناسبة لنا ·· وسوف تتعلمها بسرعة ·· لابد أن تتعلمها ·· لا مفر ·· فهى المخرج الوحيد من هذا العذاب الذى نعيش فيه ·

واحتقن وجه الرجل وانفجر صارخا :

ـ انهم كلاب ·· كلهم كلاب ·

وهنا تدخل الأصلع من خلف الحاجز الخشبى هامسا بصوت هادىء · جعله يتذكر صوت قائد السيارة قائلا :

ـ لا تغضب يا مسيو كوستا ·

فدق كوستا الأرض بقدمه يفرغ شحنة انفعال لا يتحملها هاتفا بحرقة :

ـ أنا مجنون أن أرضى بالبقاء هنا ·

ثم التفت كوستا اليه وقال محاولا كبت انفعاله :

ـ آسف يا سيدى ·· ما كان يجب أن أغضب أمامك ·· ولكن ماذا تتوقع من هذا الحصار المفروض علينا ·· يجب أن أحذرك ·· فلا فائدة من خداع أنفسنا ·· اننا محاصرون·

همس يوسف وقلبه يخفق :

ـ ماذا تعنى يا سيدى ؟!

فنظر اليه كوستا نظرة طويلة · قبل أن يقول وعلى شفتيه ابتسامة اشفاق أو رثاء :

ـ أعنى الكثير ·· أقول لك ·· انقذ نفسك وارتبط بلعبة على الفور ·· اذهب الى ملعب الكروكيه ولا تغادره ·· هناك فى الملعب الأول ستجدهم يلعبون ليل نهار ·· صورة رائعة للعبة · شىء يفوق الخيال ·· أنت والكرة والمضرب تصبحون شيئا واحدا ·

وهنا سعل الأصلع خلف الحاجز الخشبى · ولعله أراد أن يتدخل فى الحديث · اذ أسرع يقول بالفرنسية :

ـ مسيو لا يعرف اللعبة ·· ولكننا مستعدون لتقديم كل ما هو ضرورى ليتعلمها ·· المطارق ·· والكور ·· والتدريب

لم يفهم ماذا يتحدث عنه الأصلع · ولا ذلك الذى يتحدث عنه كوستا · ووجد لسانه ينطق بكلمات سريعة :

ـ لست بحاجة الى هذا ·· فغالبا سأعود الليلة ·· وربما فى الصباح الباكر على أكثر تقدير ·

وهنا صرخ كوستا فى وجهه :

ـ هذا هو بالتحديد ما أردت أن أحذرك منه ·· أنت لن تغادر هذا المكان ·· ولم أسمع عن أحد جاء الى هنا وغادره·

فقال الأصلع محتجا :

ـ مسيو كوستا ·· تستطيع أنت أيضا أن تعود مع مسيو منصور ·

فصرخ كوستا فى وجهه :

ـ اخرس يا كلب ٠

وأمسك يوسف من يده ٠ وجذبه قائلا :

ـ تعال معى ٠٠ ان ضميرى لن يسمح لى بأن أتركك تتعذب كما تعذبت أنا ٠

سار مستسلما ليد كوستا التى تجذبه ٠ وألقى نظرة خلفه فرأى الرجل الأصلع قد استرجع وقفته الجامدة ٠ ونظراته الغبية ٠ كأنه لا يعنيه شىء ٠ وسار به كوستا الى ممر يفضى الى باب ، خرجا منه الى حديقة خلفية للمبنى ٠

ووقف كوستا عند عتبة الباب بعد أن خرجا ٠ وقال منفعلا :

ـ أنا كوستا جوانيدس ٠

قال له :

ـ وأنا يوسف منصور ٠

قال كوستا :

ـ أنا أيضا من مصر ٠٠ ولدت فى الابراهيمية بالاسكندرية وقد جئت الى هنا بعد الزلزال الذى حدث فى «ايثاكا» كنت أزور أبى وأمى ٠٠ بعد أن عادا اليها ٠٠ وكان أبى قد شيد بيتا صغيرا يشرف على معصرة الزيتون ٠٠ وأشجار الزيتون ٠٠ كنت قد خرجت من البيت الى المرحاض الصغير فى الحديقة ٠٠ تعودت أن أقضى به حاجتى ٠٠ وقام الزلزال ٠٠ مطرقة هائلة

هشمت البيت ٠٠ كنت أجرى مع بعض القرويين فأرى الأرض تنشق أمامنا ٠٠ رأيت المعصرة تنهار ٠٠ ضاع البيت ٠٠ وضاع أهلى ٠٠ وكان لابد لى أن أبحث عن مكان أستريح فيه ٠٠ عدت الى القاهرة ٠٠ فوجدت زلزالا آخر استولى على مصنع الكازوزة ٠٠ زوجتى أقامت فى الكنيسة ٠٠ لم يعد يهمها شىء غير الكنيسة ٠ ابنتى تزوجت ورحلت الى كندا ٠٠ وجاء مراد حسنين ٠

همس يوسف غير مصدق :

ـ مراد حسنين ٠٠

سأله كوستا :

ـ أتعرفه ؟ !

قال يوسف بصوت متحشرج :

ـ اذا كنت تعنى المليونير ٠٠

فقاطعه كوستا :

ـ نعم ٠ هو الذى اشترى منى البيت ٠٠ وشجعنى على المجىء الى هنا ٠٠ أهو الذى تعرفه ٠٠

قال يوسف :

ـ نعم هو ٠٠

صاح كوستا :

ـ اذن لا فائدة ٠٠ لقد خدعك كما خدعنى ٠٠

قال يوسف محتجا :

ـ لا ·· انه صديقى ··

قال كوستا فى تصميم :

ـ اسمعنى جيدا ·· أنا يونانى ·· رجل عملى لا أعترف بغير الواقع لا أعرف مثلكم الاحلام والخيالات ·· لقد عشت فى مصر · ·ولو اختبرتنى ستجدنى ابن بلد أعرق منك ·· لم أعشق الا النسوان البلدى · أنا أفهمها وهى طائرة ·· ولقد خدعك مراد حسنين كما خدعنى ·· وأنت لن تترك هذا المكان ·· ولا شىء تستطيع أن تصنعه ·· سوى أن تتعلم اللعبة التى سنذهب الى مشاهدتها الآن ·

قال لكوستا محتدا :

ـ لا أستطيع أن أتفرج على لعب الآن ·· أنا متعب وفى حاجة الى بعض الراحة ·

قال كوستا وهو يجذبه :

ـ لا راحة لك ·· افهمنى ·· حتى تنسى نفسك فى اللعبة ·

فجذب يده يخلصها من قبضة كوستا · وقال :

ـ أرجوك ·· لا تفرض على شيئا ·

صاح كوستا فى الحاح :

ـ أنا أحاول أن أخفف من عذابك ··

قال فى حسم :

ـ آسف · ·يجب أن أنصرف الى حجرتى ·· ان حقائبى تنتظرنى ·

فقال كوستا وهو ينظر اليه فى أسى :

ـ انى أرثى لك ·· ولقد كان يسعدنى أن أوفر عليك بعض ما مررت به ·· ولكنك لا تقبل النصيحة ·· ويخيل الى اننا ما التقينا الا لتعرف منى ·· ان مراد حسنين قد خدعك ·· وستكون هذه المعرفة أحد أسباب تعذيبك ·· لقد حاولت أن أختصر لك الوقت ·· أن أفوت عليك فترة معاناة ·· لا يستطيع أى انسان أن يتحملها ·· أردت أن أجعلك تبدأ اللعب فور وصولك ·· محاولة مجنونة وعقيمة كما أرى الآن ·· ولقد اندفعت فى هذه المحاولة ظنا منى أنى أستطيع أن أحقق بها تجربة مفيدة ·· ولكنى أعرف الآن ·· أن اندفاعى كان لهدف آخر ·· وهو أن أنقل اليك المعلومات التى سوف تؤرقك ·

لم يعد يتحمل مواصلة الاستماع الى كوستا ·· أحنى له رأسه وقال وهو يبتعد مسرعا :

ـ عن اذنك ·· اسمح لى بالانصراف ··

قال كوستا وهو يهز رأسه حزينا :

ـ ربما نلتقى ثانية ·· ولكن من يدرى كم من الوقت سوف يمر قبل أن أراك داخل الملاعب ·· وقد نسيت كل شىء ·· الا الكور الخشبية والمطرقة التى ستضربها بها ·

انطلق يوسف عائدا الى البهو ·· واتجه الى الرجل الأصلع البدين القصير عند مكتب الاستقبال ·· وسأله :

ـ هل صحيح ما يقوله مسيو كوستا ·· ان احدا ممن جاءوا الى هنا لم يترك المكان ·

قال الأصلع وهو ينتفض خارجا من جموده وقد احتلت الابتسامة شفتيه فطردت نظراته الغبية :

ـ هذا ما يتوهمه مسيو كوستا ·· أنت ترى يا سيدى أن حجراتنا محدودة ·· وبين وقت وآخر نستقبل نزلاء جددا ·· فكيف يتاح لنا ذلك اذا بقى الجميع هنا ؟

سأله يوسف وهو يتفحصه :

ـ أى أنهم يعودون ·

قال الأصلع :

ـ نعم ·· انهم يغادرون هذا المكان ·

ثم أردف قائلا :

ـ مسيو كوستا رجل عصبى ·· سريع الغضب ·· ولكنه طيب القلب ، وعندما تقابله فى المرة القادمة ستجده من أسعد الناس بهذا المكان ·

فهمس محاولا أن يسيطر على أفكاره ومشاعره المضطربة :

ـ ولكنه يقول انه محاصر ·· أو محبوس هنا ··

قال الأصلع :

ـ هو الذى يحبس نفسه لأنه يريد أن يعود الى بلده ·· أحيانا يقول : أعدوا عودتى الى « ايتاكا » ·· احيانا يقول : الاسكندرية ·· ثم يؤجل ويبدو يا سيدى أن لديه من المشاكل

ما يجعله يفضل البقاء حتى لا يواجهها ·· ويكتفى بأن يلقى باللوم علينا ·

أزعجته كلمات الأصلع · فتحرك مبتعدا · لا يريد أن يسمع المزيد · واتجه الى الممر الذى على يمينه حيث قال له الأصلع انه سيجد المصعد · أفضى به الممر الى قاعة صغيرة بها مقاعد من الجلد البنى حول موائد صغيرة من الأبنوس الأسود · ولا أحد بالقاعة · ورأى ثلاث درجات تفضى من القاعة الى ممر آخر طويل · صعد الدرجات ومشى فى الممر بضع خطوات حتى استوقفه صندوق زجاجى به شيكولاتة وبسكويت وحلوى مما يشتهيها الأطفال أو ما يشتهيه هو شخصياً ·

وقف يتأمل قطعة شيكولاتة لها غلاف أزرق · أيمد يده ويفتح الغطاء الزجاجى ويأخذ الشيكولاتة · تلفت حوله فلم يجد أحدا يسعفه بنصيحة · فتنهد وقرر أن يؤجل المحاولة · خاصة وقد لمح باب المصعد على يساره · دخل المصعد · جدرانه من الخشب الماهوجنى · وكانت مرآة كبيرة تكسو نصف جدار المصعد ·· تأمل فيها وجهه · نعم انه هو هو ·· وجه يوسف منصور · مد يده ولمس باصابعه سطح المرآة ورأى اصابعه فى المرآة · ثم تحسس وجهه وهو يراقب نفسه · ها هو يوسف منصور كما عرفه منذ أربع سنوات أو ثلاث · أهلا بك يا عم يوسف ·

هكذا قال لنفسه ساخرا · ووجهه الساخر يطل عليه من

من المرآة ٠ وضغط أحد الأزرار ٠ فارتفع المصعد ٠ وارتفعت معه المرآة ٠ وارتفع وجهه الســـاخر الذى يطل عليه من المرآة ٠ لو كان فتح الغطاء الزجاجي ومد يده وأخذ قطعة الشيكولاتة لرأى نفسه فى المرآة الآن وهو يقضمها ويأكلها ٠ ترى الى متى سوف يلازمه هذا الوجه ٠ سنة أخرى ٠ سنتين ثم يفترقان ٠ كما افترقت عنه وجوه كثيرة كانت له من قبل ٠ كلها كانت وجوه يوسف منصور ٠ وكلها افترقت عنه ٠ مثلما افترق عنه وجه حسن ٠ وكان وجه حسن يشـــبه وجهه وهو صغير ٠٠ الولد يشبهك يا يوسف ٠٠ لم يأخذ من أمه ســوى نعومة شـعره من شابه أباه فما ظلم ٠ ولكن حسن تنكر له ٠ قال له : نسيت أبى ٠ وقف المصـعد وخرج منه الى ممر طويل مغطى ببســـاط رمادى ٠ على جانبيه أبواب مغلقة ٠ فحص اللوحات المعـدنية المثبتة على الأبواب ٠ لابد أن يقترب بعينيه ليتأكد من الرقم ٠

وانفتح فجأة الباب الذى يكاد يلتصق به ٠ ورأى أمامه وجها عابسا يخرج من فمه غليون ٠

تراجع مرتبكا أمام عينين ضيقتين خرزتين فى وجه ضخم فوقه شعر أبيض غزير وأسفله فك بارز مستطيل ٠ فك صلب ورقبة قصيرة تربط بين الرأس الضخم والمنكبين العريضتين ٠ كان صاحب الغليون يرتدى قميصا أسود فوق سروال رمادى واسع متهدل ٠ جسمه ممتلىء بغير ترهل ٠جسم قــوى وبشرة وجهه كالحة ٠

خرجت الكلمات من فم الرجل كأنها تنبعث من فوهـة الغليون :

ـ حضرتك تبحث عن أية حجرة ٠

رفع المفتاح فى يده وقال مرتبكا :

ـ ثلاثة وخمسون ٠

قال الرجل والغليون يهتز بين شفتيه مشيرا الى باب عن يمينه بيد معروقة :

ـ هنـا ٠

شكر له ٠ وهو يتجه الى الباب الآخر ٠ ولكن صـاحب الغليون لم يتركه سأله وهو يتقدم خطوة معترضا طريقه الى الباب :

ـ هل انت النزيل الجديد ٠

قال :

ـ نعم ٠

قال الرجل وهو ينزع غليونه بيســراه ٠ ويمد يمناه لمصافحته :

ـ اذن نحن جيران ٠أسمح لى ان اعرفك بنفسى ٠٠ انا كريم شاكر المحامى ٠

قال وهو يتلقى يد المحامى فى يده ٠ ويشعر بضغطة قوية غير عادية على أصابعه :

ـ انا يوسف منصور ٠

قال كريم شاكر ٠ وهو لا يزال يهز يده بعنف والعـروق نافرة فى يده :

ـ ســـمعت اسمك من قبل ٠ اظن قرأت لك رواية ٠٠ أو شاهدتها فى التليفزيون ٠٠

تذكر فجأة أنه معروف وله شهرة تليفزيونية فهمس :

ـ نعم ٠٠

قال كريم شاكر ٠ وقد أطلق أخيرا سراح يده ٠ وامسك بالغليون فى اتجاه فمه استعدادا لأن يثبته بين شفتيه فى اية لحظة مناسبة :

ـ هذا مكسب كبير لنا يا أستاذ ٠ نحن هنا عائلة واحدة٠٠ وسوف يفرح الجميع بوجودك بيننا ٠٠ واسمح لى أن اعبر باسمهم جميعا عن سعادتنا بانضمامك الينا ٠

وهنا وصل الغليون الى الشفتين فى ثقة ٠ كأنه عمدة المكان الذى يعرف أهميته ويفترض أن الآخرين معترفون بأهميته ٠

ما كاد الغليون يستقر بين شفتيه ٠ حتى أسرع بابعاده ليكمل بلهجة من يتحدث فى أمر خطير ٠ فقد خفض صوته ٠ وأخرج الكلمات وقورة فخمة :

ـ من حسن الحظ أن نلتقى الآن ٠٠ لأنى أرى أن من واجبى أن أشرح لك بعض الأوضاع القائمة هنا ٠

وتجرأ كريم شاكر فقال وهو يضغط على الحروف محذرا :

ـ هذا ضرورى لمصلحتك ٠٠ وحتى لا تحدث مشاكل ٠

قال مرتبكا :

ـ مشاكل ، أى مشاكل تعنى ؟ !

قال كريم شاكر وهو يعيد الغليون الى فمه ٠ فيخفف من قهقهة عريضة انطلقت من فمه :

ـ هذا أمر يطول شرحه ٠٠ ادخل الآن حجرتك ٠٠ وبعد أن تستريح سأقابلك فى قاعة الدومينو ٠

سأل فى غير فهم :

ـ الدومينو ٠٠

رفع كريم شاكر رأسه فى كبرياء ٠٠ وارتفع الغليون فى فمه ٠٠ وارتفع حاجباه قبل أن يقول :

ـ لا أحد هنا يجهل مكانها ٠

وضاقت عينا كريم شاكر وسأله متفحصا :

ـ هل قابلت أحدا غيرى هنا ٠٠

قال :

ـ نعم ٠٠ مسيو كوستا ٠٠

زادت عينا كريم شاكر ضيقا ٠ وزاد بروز ذقنه ٠ واستطال الغليون الذى يخرج من فمه ٠٠ وقال باستخفاف :

ـ أرجو ألا يكون قد أزعجك ٠٠

قال محاولا أن يتخلص من أى تورط فى أمر يجهله :

ـ على أية حال ٠٠ لا أظن أنى سأمكث هنا أكثر من هذه الليلة ٠

فمد كريم شاكر يده فى قحة ووضعها على كتفه · وقال بلهجة غريبة كأنه يسخر مما يسمعه :

– أرجوك لا تردد مثل هذا الكلام كثيرا ·

هتف سائلا فى احتجاج :

– لماذا ؟

قال كريم شاكر :

– انه يستفز النزلاء ·· أعنى العائلة ·

وأردف كريم شاكر وهو يصوب عينيه الخرزتين ·· فى عينيه قائلا :

وربما تندم ·

قال محتدا :

– لماذا أندم ؟

فتجاهل كريم شاكر سؤاله · وتمتم بكلمات ترحيب اخرى·

وقال : ان الحديث يحتاج الى جلسة هادئة · وانه مضطر للانصراف الآن فلديه موعد هام تأخر عنه ·

وتركه امام باب الحجرة يقرأ الرقم ثلاثة وخمسين ·

أدخل المفتاح

فى ثقب الباب ، وأداره دورتين قبل أن ينفتح ، فاستقبلته حقائبه الثلاث ، لم يسرقوها ، وأسرع ينقلها الى سرير عريض فى الحجرة الواسعة ، وفتحها ليراجع محتوياتها ، قمصانه ، ملابسه الداخلية ، أربطة عنقه ، جواربه ، وكتبه ، كل شىء يذكره بأنه كان يوما ما فى القاهرة ، وأنه كان يعيش مع زينب التى أنجبت له حسن يوسف منصور ، وأنه كتب روايات ومسلسلات تليفزيونية ، وأنه كان مديرا له شأنه فى ادارة التحقيقات بوزارة التربية ·

ترك محتويات الحقائب مبعثرة فوق السرير ، وجال ببصره فى الحجرة ·

هناك مائدة مستديرة بجوارها مقعد وثير له مسندان عريضان ، وعند الحائط الذى يواجه السرير منضدة تصلح للكتابة ، والأرض مغطاة بالبساط الرمادى ، وعلى يمين السرير ستارة عريضة رمادية ، أزاحها فرأى خلفها زجاج نافذة عريضة وباب شرفة فتحه وأطل على الحديقة ، ليفاجئه مشهد ملاعب مزدحمة برجال ونساء يمسكون بمطارق خشبية ، يضربون بها كرات خشبية فى حجم البرتقالة الكبيرة ،

لونها أحمر وأصفر وأزرق وأسود ، فتجرى الكرات على بساط من الحشيش تصطدم ببعضها بعضا ، أو تنفذ بين أقواس حديدية صغيرة مثبتة فى أكثر من مكان بين الحشائش ٠

خلف الملاعب تقوم مبان صغيرة متناثرة ، وتنتهى الأرض الخضراء لتبدأ الصحراء من جديد ، تلال الرمال ، أو تلال التراب ، حتى الأفق حيث تلتقى السماء بالتراب ، حاول أن يتبين « كوستا » بين اللاعبين ، ولكن نظره الضعيف لم يسعفه ، انه بالكاد يرى الملامح العامة ، وحاول أن يستعيد ما قاله له كوستا ، فتذكر كريم شاكر ، وهو يحذره ويطلب منه فى لهجة صريحة شبه آمرة أن يلتقى به ويستمع الى نصائحه حتى يتجنب المشاكل ، لم يسترح لشخص كريم شاكر ، بدا له أنه يفرض نفسه ، بلهجته وغلظته ، وطريقته فى الضغط بقوة على اليد التى يصافحها ، ثم هذا التصرف غير اللائق الذى أقدم عليه عندما مد يده ووضعها على كتفه ، متظاهرا بالأبوة ، أو بالسلطة أو بأنه الأكبر الذى يجب أن يحترمه الأصغر وينقاد اليه ٠

همس يوسف لنفسه ٠٠ قال له : ربما تندم لأنك تفكر فى مغادرة هذا المكان ، بأى حق يدعى لنفسه معرفة مشاعرى أو مصلحتى ٠

وشعر بغصة فى حلقه ، فترك الشرفة ، واتجه الى باب

ملحق بالحجرة يعرف بتجاربه السابقة فى الفنادق أنه باب الحمام ٠

ولكن الباب أفضى الى حجرة صغيرة بها دولاب كبير للملابس ، ثم باب يفضى الى الحمام ، تأمل القيشانى الأبيض بزخارفه السوداء ، كان حوض الاستحمام كبيرا ، مثبتا فى الجدار ٠٠ فوقه صنابير الماء مزودة بخراطيم معدنية تنتهى برشاش على هيئة سماعة التليفون ٠ والتفت الى حوض الغسيل فوقه مرآة أطل منها نفس الوجه الذى صعد فى مرآة المصعد ، تذكر أنه فيما مضى فى حجرة بفندق « كلاريدج » فى باريس ، أطل على وجهه فى المرآة ، فرأى عينين عسليتين مضيئتين ببريق كله حيوية وتحد ، وتحسس بعد أن حلق ذقنه بشرته الناعمة ، ومر بأصبعه على شفتيه يضغط عليهما ، وهو يقرر أن يعود فى الليل الى حجرته والى هذا الحمام ومعه غادة فرنسية ، كان واثقا من نفسه من طابع الحسن فى ذقنه ، واثقا من كلمات أمه « اسم الله عليه ٠٠ اسمه يوسف ٠٠ وله طابع حسن يوسف ٠٠ » ولكن التى صعدت معه تلك الليلة كانت سائحة أمريكية ، كان فى الثلاثين وكانت فى الاربعين وربما اكثر ، كيف رضى بها ، كيف خدعته وصعدت معه ، لماذا لم يعثر على الغادة التى كان يحلم بها ، انه لا ينكر الآن ، سوى وجهها بتجاعيده ٠ وكرمشة جلد بطنها ، وسخريته وقسوته وهو يقول لها انها عجوز شمطاء عندما

سألته اذا كان قد أعجب بها ؟! رأى فى عينيها دموعا جافة ، وفجيعة متجمدة ٠

نفس الذى يراه الآن فى عينيه تطلان عليه بلا بريق ولا عسل ، البشرة مصفرة ، وطابع الحسن تلاشى فى تهدل الذقن ، أما الرغبة والعناد فى الشفتين فهيهات أن يلتقى بهما، لقد قرأ أمام الحريق الأبيض الذى زحف على شعره وانتشر هنا وهناك ، آه يا يوسف ٠٠ أتبكى وجهك الذى ضاع منك ، كم من الوجوه ضاعت منك ، تخلت عنك ٠٠ وما العمل ، هل جئت الى هنا لتطل على وجهك فى هذه المرآة وترثى نفسك ، وتذكر كوستا وهو يصرخ يا كلاب ٠ ووجد نفسه يقلده صارخا :

ـ آه ٠٠ آه ٠٠ يا كلاب ٠

انعشته الصرخة التى لم يسمعها أحد غيره ، انعشه ولو لبعض الوقت هذا السباب يبدو أنه مفيد تطلق قذائفك فى هذا المكان المجهول لتسقط على أى هدف ، تلطخ أى شىء ، تنسف أى موقع ، تدمر ، تخرب ، تهشم ٠ هذا يشعرك بالقوة ولو لبعض الوقت ٠

عاد يصرخ وصورة كوستا لا تفارق مخيلته ٠

٠٠ كلاب ٠٠ كلاب ٠

وزمجر فى وجهه الكئيب الذى يطل عليه من المرآة وهتف ٠

ـ أريد أن أفتك بكم ٠٠ افترسكم ٠ ٠

يفتك بمن ٠ انه لا يستطيع أن يحدد ، أغلب ظنه أنه يريد

أن يفتك بكل شىء ، بالدنيا كلها ، ولكن وجهه الذى يطل عليه من المرآة لم يشجعه على التمادى فيما هو فيه ، وجه تطل منه عينان دموعهما جافة وفى نظراتهما فجيعة متجمدة ، وجه يتوسل فى مرارة ويأس أن يكون نقيا طاهرا ٠٠ ملاكا ٠٠ مثلا أعلى ٠٠ بطلا عظيما ٠٠ انسانا خالدا ٠

وانتفض على صوت يهمس فى أعماقه ٠٠ حذار يا يوسف ٠٠ لا تكثر من الحديث مع نفسك فى المرآة ٠٠ أو فى غيرها ٠٠ فهذا هو أسرع طريق للجنون ٠

أشاح بوجهه ، ليقطع هذا الحديث المجنون مع الوجه المطل عليه ، وخرج هاربا من الحمام ، وعندما وصل الى السرير فى الحجرة الكبيرة لم يستطع أن يتوقف فى اللحظة المناسبة فاختل توازنه واصطدم بحافة السرير ، فتألمت ساقه اليمنى ، وجلس على السرير وقد التهبت عيناه بسكين الألم الذى ينفذ حادا قاسيا من ساقه الى رأسه ، ومسح بيده على موضع الصدمة ورفع بنطلونه فرأى كدمة ، ضغط عليها بأصبعه ، ثم نهض متثاقلا ينقل ما فى حقائبه الى الدولاب الكبير ، وقضى بعض الوقت فى حركة آلية بين السرير والدولاب ٠ حتى اطمأن الى أن كل شىء فى موضعه بالدولاب ، فخلع ملابسه ، ودخل الحمام ، وجلس فى حوض الاستحمام ، وفتح صنبور الماء فخرج ساخنا من سماعة التليفون ، وعالج السخونة بصنبور الماء البارد ،

حتى استراح الى درجة الحرارة فوضع السدادة فى الحوض ، واسترخى تاركا الماء يتدفق ويرتفع ، وهو يراقبه يعلو فى دوائر تتذبذب فى تقدمها لتغطى ساقيه ·

وقد ركز عينيه على أداة ذكورته وبطنه المتهدلة والشعر الأكرت تحتها ، وصوت حزين يردد فى أعماقه ، الى متى يستمر هذا التحول المدمر لجسدى ؟! هذا الدمار يزحف كهذا الماء الذى يعلو ، ليقضى عليك أو ليغرقك ·

ثم عدل عن هذا الخاطر ، وأقنع نفسه بأن يرحب بالماء يغطيه ويستره ويمنحه دفئا وراحة هو فى أشد الحاجة اليهما ·

بعد ان يسترخى تماما ، سوف يخرج من الماء ويرتدى ملابسه ، ويذهب للقاء ذلك الرجل الذى قابله عند باب الحجرة · ما اسمه · نعم · شاكر ·· كريم شاكر المحامى ، رجل مظاهر وادعاء ، ذلك الغليون الذى يثبته فى فمه خدعة كبرى · وابتسم للخاطر الذى تراءى له · كريم شاكر عاجز يعوض عجزه كرجل بابراز غليونه أمام كل من يقابله · أليس هذا هو ما يقوله فرويد ؟! لابد أنه قال شيئا مثل هذا ، وأعجبه هذا الخاطر ، وتمنى لو يكون صحيحا ، وتخيل نفسه وهو يلتقى بنزلاء هذا الفندق ويتحدث معهم عن اكتشافه الذى وصل اليه ، وتتناقل الهمسات ، وتتحول الى فضيحة ، تزلزل كيان ذلك الرجل المتعجرف ، فيبكى وينهار · ما ألذ وأروع

الفضيحة التى تستطيع أن تدمر بها الرجل الذى لا تستريح اليه · انه لم يفضح انسانا من قبل ، كان عليه أن يتحمل هو الفضائح ، منذ زمن بعيد ، منذ كان صبيا والفضيحة تلاحقه ، الآن فى هذا المكان المجهول الذى يبدو وكأن ليس له صاحب ، يستطيع أن يلهو ، وأن يفجر ، وأن يفضح ، وأن يرتكب الاثم الذى كان يخشاه ، ربما ارتكب الجريمة ·

ان ذلك الرجل الأصلع فى مكتب الاستقبال يدعى أنهم ليسوا فى حاجة الى شرطة أو قانون ، حرية كاملة ، كيف لا تنقلب الى فوضى ، سيثبت لهم انه قادر على أن يفاجئهم بتصرفاته ، ولسوف يدبر لذلك الرجل المقيت ·· نعم انه يكرهه ، ويكره تظاهره بأنه العليم بالأسرار ، سيدبر له فضيحة أو جريمة ، أى شىء يتحدى به كل ماضيه ، بل يتحدى به كل تقاليد يزعمون أنها سائدة ومرعبة فى هذا المكان ·

كان الماء يتدفق على جسده ، يزحف حثيثا ليغرق بطنه ، عندما نظر الى سماعة التليفون وتمنى لو كانت سماعة حقيقية ، رأى نفسه يدير قرص التليفون طالبا رقم بيته وزينب ترد عليه ، زينب أنا هنا ، هل تستطيعين اللحاق بى ، نقضى معا شهر عسل جديدا ، مسكينة ، تحملته فى شهر العسل ، الذى كان شهر نقاهة ، التيفود فتك بأمعائه فأجل موعد الزواج أسبوعا ، بعد يومين من انخفاض الحرارة عقدا الزواج ، لا فرح ولا احتفال ، زواج عصرى ، المهر خمسة

وعشرون قرشا ، لأن الحب لا يقدر بمال ، ولأنه لا يستطيع أن يتحمل حضور لطيف صبرى زوج أمه مراسم العقد ٠

قالت له زينب وهو يرتمى يتصبب عرقا لاهثا خائرا بجوارها على السرير : لا تجهد نفسك ، المضادات الحيوية تضعف الجسم ، والطبيب قال انك فى حاجة الى راحة وفترة نقاهة لا تقل عن أسبوع ، نفس أسبوع العسل ٠

هذا الفندق ، وهذا الحمام أفخر بكثير من فندق الاسكندرية ، ما أسخف هذا الذى يفكر فيه ، كأن فخامة الفندق كفيلة بالقضاء على كل ما حدث بينه وبين زينب ، ليعترف لنفسه أنه ما فكر فى زينب الا لأنها المغامرة الأسهل ، فهى تعرفه ، وتعرف عجزه ، واهانتها له ليست بالشىء الجديد الفاجع ، ثم انه لقى معها متعة حقيقية ليلة سفره الى زيورخ ، لا يدرى كيف حدث هذا ، ربما لأنها أرادت أن تقدم له شيئا ، بعد أن رفض أن تقرضه المال ، ربما لأنها صممت على أن يذكرها ، كما يفعل الآن ، أثناء غيابه وهى واثقة أنه عندما يذكرها ، سيذكر فى نفس الوقت ، انتصارها عليه فى معركة استقلالها ، هى التى علمت حسن أن يستقل ، أو ربما حسن هو الذى علمها ضرورة أن تستقل ، ربما وربما وربما ٠

ها هو مفعول زينب بدأ يحدث تأثيره ، فيبدد استرخاءه وراحته ، انه ما جاء الى هنا الا لينجو من زينب ، ليته يدير قرص تليفون فيطلب فتاة مجهولة صغيرة تساعده على نسيان كل هذا الذى يريد أن ينساه ، لا بأس أن تخدعه وتكذب عليه

وتقول له انها سعيدة برجولته ، الوهم مريح ، والخداع مريح ، وكفى عذاب المواجهة ، ما فائدة المواجهة بعد أن أدار ظهره لابنه حسن وهو جالس فى القفص الحديدى بقاعة محكمة الجنايات ٠

من بعدها فهم معنى أن الكل باطل وقبض الريح ، الخير والشر سواء ، الحقيقة والكذب سواء ، كفاه ما عاناه من خداع الصدق ، ان هذا الماء الذى يزحف الآن الى صدره يستر جسده الذى يخدعه ، ولسوف يبدأ فى هذا المكان حياة جديدة سوف ينطلق انسانا آخر ، يفعل ما لم يفعله من قبل ، يتورط فيما لم يتورط فيه أبدا ، لن يتقيد بعرف أو تقاليد ، سيتمتع بكل مزايا هذا المكان الذى لا يعرف فيه دولة ولا جنسية ولا دستور ولا حاكم أو محاكم ولا أى شىء ربما كان هذا هو السبيل السليم لأن يعرف أين هو ، ومن هو ٠

نظر الى سماعة التليفون يتدفق منها الماء ، وهو يرى تلك الفتاة التى خرجت تجرى مندفعة على درج التليفزيون فتتعثر وتتشقلب وتفترش الأرض ، فيعرى جسدها البض ، وهو يتقدم لمساعدتها ، يرتجف خوفا مما فى أعماقه ، واثقا أن عينيه هما اللتان أسقطتاها وعرتا ساقيها ، وأنه لو كان يتبع المنطق الطبيعى لهذه الظاهرة العجيبة التى حدثت بتأثير نظراته ، لهجم على الفتاة قبل أن تنهض من رقدتها ، واستولى عليها ، فهى ملكه ، خاضعة لتأثيره ، ولكن ما فعله كان يختلف تماما عما يجيش ويفور فى أعماقه ، كان يبسمل ويحوقل ،

وييدى من مظاهر الأبوة والحنان والوقار لما صنع استارا وحجبا أخفت أعماقه ، وأسرع هاربا من المكان أو هاربا من نفسه ، وقد ترك الفتاة للآخرين الذين تكاثروا من حولها ، وعندما ابتعد شتم نفسه ولعن الشيطان الذى يوسوس فى صدره ، انه مسئول عن هذا الصراع الدامى الذى يمزقه بين أبوة واشفاق ، وشهوة وافتراس ، بين بسملة ورجفة داعرة ، بين نظرة تسقط الجسد ، ووقار وحنان ينتشله من سقطته ٠

ما الذى يجمع بين هذه المتناقضات سوى ذلك الاناء الذى هو جسد الانسان ، عندما ابتعد عن الفتاة ومبنى التليفزيون بصق على الأرض مشمئزا من حقارته ، ولكنه لم يبصق الشئ الذى ظل كامنا متربصا ، يجعله يلتفت فى هوس كلما صعد أو هبط درج التليفزيون لعله يعثر على الفتاة مرة أخرى فيسقطها ، ومن يدرى ، لعل الشيطان ينتصر هذه المرة ٠

ولكنه لم يجرؤ على أن يسأل عن تلك الفتاة ، ولم تسعفه الصدفة بأن يراها مرة أخرى ، ولعله لو كان رآها لما عرفها ، فقد طغى منظر ساقيها العاريتين على ما يذكره من ملامح وجهها ، وعندما لمست يداه ذراعها وهو يساعدها على النهوض ، فقد قدرته على البصر والسمع بضع لحظات ٠

وقد تركزت كل حواسه فى حاسة اللمس ، ان هذا الحادث يبدو له أحيانا وكأنه حلم ٠٠ مجرد أوهام تهاجم رأس رجل عجوز ، مثل هذه الأوهام التى تغالبه الآن بأن صنبور الماء قد يكون تليفونا حقيقيا ، يتصل به بمن يشاء ، أو بتلك الفتاة

التى لا يعرفها ، يطلبها فتلبى النداء ٠

وانتفض على صوت رنين جرس التليفون ، قام مفزوعا لا يصدق أنه يسمع ما يسمعه ، وانتثر الماء على بلاط الحمام متساقطا من جسده ، ومد يده الى منشفة كبيرة لفها حول جسمه ، وخرج مهرولا حيث التليفون بجوار السرير ، وامتدت يده المرتجفة الى السماعة ، أهى زينب ، أهى تلك الفتاة المجهولة جاءت له فى هذا المكان المجهول ٠

وسمع صوت الرجل الأصلع :

ـ هنا الاستقبال يا سيدى ٠٠ آسف لازعاجك ٠٠ ولكن وجدت أن من المناسب تذكيركم بأن المكالمات التليفونية والرسائل الى الخارج غير مسموح بها طوال مدة الاقامة ٠

هتف مذعورا :

ـ ما هذا ٠٠ لماذا تقول لى هذا الكلام ؟!

كان فى ذعره يكاد يصدق المستحيل ، انهم فى المكان يسترقون السمع للخواطر التى تجيش فى أعماق النفس ، والا فما تفسير هذا التحذير من التفكير فى المكالمات التليفونية فى هذه اللحظة بالذات وقد خلا لنفسه عريانا فى حمام مغلق يحلم بمكالمة تليفونية خرافية ليس فى مقدور انسان أن يعلم بها ٠

سمع الأصلع يقول له :

ـ غالبا ما يفكر النزلاء الجدد فى كتابة رسائل الى ذويهم

بمجرد وصولهم ولذلك نسارع بتنبيههم حتى لا يشعروا بضيق أو نشعر نحن بحرج اذا ما كتبوا الرسالة أو طلبوا المكالمة التليفونية ثم نضطر الى ابلاغهم بأن هذا الطلب لا يمكننا تحقيقه ·

صاح غاضبا :

- ولكنى أعرف هذا ·· ولست فى حاجة الى أن يذكرنى أحد به ·

سمع الأصلع يقول له :

- حسنا يا سيدى ·· وأكرر أسفى لازعاجك ·

كانت المنشفة قد سقطت عن جسده ، فانكشف أمامه الدمار الذى كان يغطيه الماء ، ثم ستره بالمنشفة ، عروق نافرة ، وجلد مكرمش ·· وسقط متهالكا على السرير ، وقد سرت قشعريرة فى جسده ، وتذكر قطعة الشيكولاته ذات الغلاف الأزرق أمام باب المصعد ، وسأل نفسه اذا ما كان قد حان الوقت ليتخذ قراره بالعودة فورا ؟ فلا داعى لأن يقابل الأستاذ كريم ، أو أحدا غيره ·

نهض واتجه الى دولاب الملابس وشرع فى ارتداء ملابسه ، وهو غير واثق اذا ما كان يرتديها ليهبط ويحصل على قطعة الشيكولاته ، أو ليركب السيارة فى طريق العودة طالبا منهم احضار حقائبه ، أو يذهب للقاء كريم شاكر فى قاعة الدومينو ، ويواصل تلك المغامرة التى تتفتح أمامه ، فيرتكب ما يشاء ،

ويفعل ما يشاء ، ليكن ما يكون ، فلما فرغ من ارتداء ملابسه وهو يدور حول نفسه فى الحجرة خرج الى الشرفة ، ورآهم فى الملاعب مازالوا يضربون الكرات الخشبية الملونة بمطارق خشبية كبيرة ، وكانت الشمس تميل عن يمينه لتلتقى فى الأفق بسحاب خفيف يزحف نحوها ، وسحاب أشد قتامة يزحف من بعيد ، والهواء يزداد برودة ، ولا صوت يصل الى أذنيه ، واستسلم لما تراه عيناه ولم يعد يفكر فى شىء ، فلما دخل الحجرة اتجه الى المنضدة التى وضع عليها كتبه التى اخرجها من الحقيبة · الملك لير لشكسبير أراد أن يقتبس منها فكرة لمسلسل تليفزيونى ، عن رجل عجوز صارعه اولاده وتنكروا له حتى جن الرجل · سوف يضيف الى ما كتبه شكسبير لمحات من صراعه مع ابنه حسن ، من يدرى ، لعل هذا هو أمله الوحيد ليرد اعتباره أمام ابنه ، ليعرف كل الأبناء والى الأبد أن الأب لا ينهزم ، وأن الابن لا ينتصر على أبيه ·

الذى منعه من كتابة هذا المسلسل حتى اليوم،هو تردده أمام خواطره المتناقضة ، فهل هو يريد فى حقيقة الأمر أن ينتقم من ولده ؟! أمهو يريد أن يكسبعطفه ؟! أو يفرضعليهاحترامه ؟! أو يقدم له رأيا مقنعا لا يستطيع الولد أن ينكره ؟! وهل هو قادر على أن ينتقم ؟! أو أن يكسب عطفا أو يفرض احتراما أو يقنع برأى سديد ؟! هل هو قادر حقا ؟! أم هو بالتأكيد سيفشل ومن الأفضل ان يقرأ الأمير لميكيافيللى ليتعلم كيف يفرض نفسه بأية وسيلة ، لا يقف عند اعتبار اخلاقى ،

او عقبة يفرضها ضمير مصاب بذلك الداء المســموم ، داء اليقظة ، أو لعله يقرأ « الجبل المسحور » لتوماس مان ، يعانى مع « هانز كاستروب » بطل الرواية ، عزلته عن العالم فى تلك المصحة على قمة الجبل وهناك تنتهى كل المعاناة ، الصــغيرة والكبيرة ، ويعيش هنا فى هذا المكان ، بعيدا عن كل ما فى حياة البشر من توافه وروائع لأن الكل باطل وقبض الريح ، وأمسك بالكتاب الأخير الذى قرر فى آخر لحظة أن يضــيفه الى كتبه « رجوع الشيخ الى صباه » فمن يدرى ، قد تكون ممارسة أساليب الجنس كما عرضها هذا الكتاب ، هى أمتع وأعظم وأروع ما فى الحياة من انجاز •

لقد شعر بالخجل والارتباك وهو يمد يده الى الكتــاب ليضيفه الى المجموعة التى سيحملها معه فى رحلته ، فتشجع ، وأمسك بالكتـاب بقوة حتى يقضى على أى تردد يهــاجمه ، وها هو الكتاب قد قطع معه هذه الرحلة ، يطل بغلافه الممزق ، يحوى بين دفتيه فنونا يلهث وراءها البشر منــذ أن يولدوا الى أن •••

وســمع طرقا على الباب ، وانفتح فرأى أمامه خادما فى ملابس سوداء ، وجهه أصفر ، خدوده سمينة ، شعره أسـود كثيف ، عينـــاه مشروطتان ، خادم صــينى •• كورى •• فيتنامى •• كل شرق وجنوب شرق آسيا انفجر أمام عينيه •

قال للخـــادم :

ــ أنت الخــادم ؟

فأجاب الخادم بأدب شديد :

ــ سيدى •• اننا لا نستخدم هذا اللفظ هنا •

سأله فى ارتباك :

ــ ماذا تعنى ؟

فقال الرجل بصوت ناعم هادىء :

ــ نحن لا نعترض يا سيدى على أى لقب تريد أن تنادينـــا به •• كل ما فى الأمر •• أنك تعرف يا سيدى أن خادم القوم هو سيدهم •• وهذا المعنى يتضح لك تماما فى لحظة معينة •• وعندئذ قد نتعرض لموقف حرج •• لأننا لا نريد أن نلقى فى روعك يوما ما أننا أسيادك •

قال فى غير فهم :

ــ ما هذا •• أية ألغاز تتحدث بها •

اعتدل الرجل فجأة •• وسأل بلهجة عملية •

ــ آســـف يا سيدى •• ما أردت أن أتحدث عن ألغاز •• مهمتى تنحصر فى أن أقدم لك ما تريد •• فاذا كان ســيدى يريد أن يتناول بعض الطعـــام الخفيف •• مع الشـــاى او القهـــوة •

ثم أضاف الرجل بسرعة سؤالا مفاجئا :

ــ سيدى جوعـــان ؟

اجاب بغير تفكير :

ــ نعم •

فسأله الرجـــل :

ـ قهوة أم شـــاى ٠

اجاب ذاهـــلا :

ـ أى شىء ٠

انحنى الرجل وخرج ٠ وتركه لمخـــــاوف تتقدم من أركان الحجرة وتحاصره ٠ ما الذى كان يعنيه هذا الخادم ٠٠ خادم القوم سيدهم ٠٠ هذا المعنى يتضح لك تماما فى لحظة معينة ٠٠ لا نريد أن نلقى فى روعك يوما ما أننا أسيادك ٠٠ ما هـــذا الأسلوب الغريب فى التخاطب ، ان الشىء الوحيد الذى فهمه من كلام هذا الـ ٠٠ هذا الرجـــل ٠٠ هو أنه يقول له نحن أسيادك ٠٠ هذا هو ما يشعر به الآن على الأقل ٠٠ أيكون ذلك اليونانى الذى قابله عند مكتب الاستقبال على حق ٠ وأنه وقع فى كمين تديره عصابة ، فأصبح سجينا محاصرا فى هـــذا المكان ، ان منظر ذلك الرجل الآسيوى يثير الريبة ٠

كانت تثيره دائما روايات وأفلام الجريمة والجاسوسية التى تظهر فيها شخصيات آسيوية مشروطة العينين منظرهـــا مثل هذا الرجل ٠ انه بملابسه وحركاته ولهجته وطريقـــة تعبيره نموذج طبق الأصل للشخصيات التى أرهبته وأعجبته على الشاشة ، هل هذه هى بعض المشـــاكل التى حذره كريم شاكر من الوقوع فيها ؟ لابد أن يرجع الى صيغة الاتفاق التى دفعته للقيام بهذه الرحلة ٠ ويعيد قراءتها بعناية ٠ لقد وضع

الأوراق فى الحقيبة الصغيرة ٠ ذهب اليها وفتحها ، ودس يده فى جيب جلدى به الأوراق فلم يجدها ٠ أين العقد ؟ أين اختفى ٠ هل سرقوه ؟ وما الحكمة من ذلك ، من الذى يستفيد من سرقته ، انه واثق أنه وضع العقد هنا فى هذا الجيب ٠ فتش الحقائب الأخرى ، فتش جيوب ستراته وكل سراويله ، فتش محفظته ، فلم يجد الأوراق ٠

جلس منهـــارا على المقعد الوثير بجوار المنضـــدة وقد تضخمت مخاوفه ، وانفتح الباب ودخل الرجل الآســـيوى نشيطا خفيفا ، ووضع أمامه صحنا ، سندويتش كبير ووضع ادوات الشاى ، وانصرف فى هدوء ، وهو مطرق برأســـه خائف أن يرفع عينيه فتلتقيان بوجه الجاسوس أو رجـــل العصـــابة ٠

حاول أن يتذكر كل الخطوات التى مرت بها أوراق العقد ، ولكن قدرته على مواصلة التفكير لم تسعفه ، فامتدت يداه الى السندويتش ، وشرع فى التهامه ، كان يقضم الخبز الممتزج بصفار البيض بالطماطم بشرائح اللحم والجبن والمايونيز ، غير مكترث بما يسيل على ذقنه فيحاول أن يلعقه بلسانه فى نهم ، تحول الى أسنان تقضـــم ولســـان يلعق وحلق يبلع ويزدرد وجوف يمتلىء ، وشعر بدفء شفتيه مع تدفق الشاى فى بلعومه ، وتدفقت حيوية فى كتفيه ، وارتفـــع طنين فى رأسه ، فلما فرغ من طعامه وشرابه كان يلهث ، ومد يديه

رافعا أصابعه اللزجة فى الهواء كأنه منتصر فى معــركة ، واقبل على الحمام وغسل يديه وفمه ، وفتح زجاجة كولونيا ومسح وجهه بقطرات زادت من انتعاشه واتجه الى البـاب ليغادر الحجرة فى طريقة الى كريم شاكر ٠

انه فى حاجة الى أية معلومات حتى ولو كان سيسمعها من ذلك الرجل الكريه المتعجرف ٠

قبل أن يفتح الباب ، سمع نقرا ، فتوقف ، ثم تقدم وفتح الباب ليجد أمامه فتاة شقراء عيناها خضراوتان تنظر اليـه باسمه وتقول له بلهجة شامية :

ــ استاذ يوسف منصور ٠٠ تسمح لى أدخل ٠

لم تنتظر أن يقول لها شيئا ، مرقت من الحيز الضيق بين جسده والباب ، فاحتك صدرها بذراعه وكتفه ، ولكنه انشغل عن أى احساس بخواطر مريبة تعج بها رأسه ، عن الصلة بين مقدم هذه الفتاة وما كان يفكر فيه وهو فى الحمام ٠ وعن احتمالات انهم يسترقون بوســيلة ما ماتهمس به نفوس الزبائن ، ولم تسمح له الفتاة أن يواصل انشغاله بأفكاره ، كانت تجلس على المقعد ذى المسندين امام المائدة المستديرة ، كان جسمها فارعا وجهها مرسوما انيقا صارما ٠

وقالت : ارجو ان تعطينى بعض الوقت ٠

قال ذاهلا :

ــ انا تحت أمرك ٠

قالت بسرعة :

ــ اعرف انك على موعد من الأستاذ كريم شاكر ٠٠ وانه ينتظـرك ٠

همــس :

ــ هذا صحيح ٠

قالت بلهجة عتاب :

ــ الأديب الكبير يوسف منصور ٠٠ يضيع وقته فى لعب الدومينو ٠٠ انا أولى بك يا أستاذ ٠

ابتسم غير فاهم ماذا تعنى ، وأدركت انه يعانى من عـدم الفهم ، فقالت فى دلال مبالغ فيه :

الا أعجبــك ٠٠؟!

ونهضت مقتربة منه ، وامســكت بيديه واحاطت بهمــا خصرها ، تدعوه لأن يعانقها ، وهى تهمس :

ــ ان وظيفتى أن أساعدك ٠٠ وأنا أعلم أنك بحاجة الى ٠

همــس :

ــ ماذا تعنين بالضبط ؟!

قالت ببساطة :

ــ أعنى ان لدى تقريرا يقول انك أحضرت معك كتــاب « رجوع الشيخ الى صباه » وأنك تحلم بقراءة هذا الكتـاب ومهمتى أن أقرأه معك ، وأن أســاعدك على التعرف على ما فيه بطريقة عملية ٠

لايدرى اذا كان وجهه احمر أو اصفر ، ولكن شيئا ما كان يحدث لدورته الدموية ·· اصابها اضـــطراب شديد ، لأنه ارتبك ، وضاقت انفاسه وقد اخذته المراة بعرضها على غرة ، فهو لا يدرى اذا كان يفـــرح أو يغضـــب ، اذا كان يريد أو لا يريد ·

وسمع المراة تقول له :

ـ انت خجول اكثر مما كنت أتوقع ، ولكنى تعـودت على هذه الحالات وسوف تتخلص منها بسرعة ، ثق انى خبيرة مدربة وأتقن تماما عملى ·

كانت لا تزال تمسك بيديه ·· تطوق بهما خصرها ، ولكنها الآن أطلقت سراحه · وقالت :

ـ ساتركك الآن ·· وساعود اليك فى الليل ·· اى وقت تراه مناسبا ·

وجد نفسه يقول بصوت متحشرج :

ـ لا أدرى ·

قالت بلهجة عملية :

ـ الثانية والنصف وقت مناسب للبدء فى القراءة ·

ثم ضحكت فجاة قائلة :

ـ مالك ·· متجهم ·· اننـــا سنقضى معا وقتا ممتعا ·· افضل الف مرة من المصيبة التى يريد أن يورطك فيها الأستاذ كريم شـــاكر ·

همـــس :

ـ أية مصـــيبة ؟!

قالت وهى تتجه الى الباب :

ـ أتعلم انه كان يقف خلف باب حجـــرته فى انتظـــار قدومك ·· ليستولى عليك ويختطفك منى ·

ردد فى دهشـــة ·

ـ ولكن لماذا ·· لماذا ؟

قالت باصرار :

ـ لأنه شرير ·· ولكن اطمئن ، سانقذك من براثنه ، ولوحت له بيدهـــا ، واختفت ، ولم يستطعالبقاء وحـــده ، تحركت قدماه رغما عنه خارجا من الحجرة ، ساعيا للقاء الشرير ·

توقف فى طريقه

أمام قطعة الشيكولاتة ذات الغلاف الأزرق ، ثم أسرع ليبتعد عنها بقدر ما يستطيع ، كان الاغراء الذى ينبعث من قطعة الشيكولاته هو الاغراء الذى عرضته عليه المرأة الشقراء ، كلتاهما ـ الشيكولاته والمرأة ـ يتحديانه على نحو ما ٠

قال لنفسه وهو يهبط الدرجات الثلاث المفضية الى الحجرة التى تسبق الممر المفضى الى البهو الرئيسى :

هانذا اخلط بين الشيكولاته والمرأة فى محاولة ماكرة منى لتخفيف وطأة هجوم هذه المرأة ، ما كنت أظن أن الاباحية قد بلغت هذا المستوى الفاجر فى هذه المشروعات السياحية ، لقد سمعت عن نواد للعراة ، وشواطىء يستحم فيها العراة ، ولكنى لم أسمع من قبل عن هذه الدعارة السياحية ٠٠ ترى كم تكلفنى سهرة مع هذه المرأة ، وكم يتقاضون عن كل ساعة تقضيها معى فى قراءة الكتاب ٠

الأدهى انها تريد تطبيق ما تقرأه عمليا ، اتظن أنه هرقل او شمشون الجبار ٠

ومع ذلك لا بأس من المحاولة ، اليس شعاره هو فليكن



ما يكون ٠٠ ومع ذلك قد يسمع من كريم شاكر مايفيده، لقد حذره الرجل صراحة من التورط فى المشاكل وها هو لا يدرى اذا ما كانت المشاكل ستنجم من التخدير أم من تجاهله ٠

رأى داخل الحجرة رجلا خيل اليه أنه يعرفه ، شاهده على شاشة التليفزيون ، ولكنه لا يذكر تماما المناسبة ولكنها كانت مناسبة فاجعة كيف لا يتذكر الفاجعة ، كان جالسا ومعه رجلان آخران ، وكان يدخن سيجارا طويلا ٠

وقف مسمرا يحاول أن يتذكر تلك المناسبة الأليمة التى أظهرت هذا الرجل الذى لا يستريح له على شاشة التليفزيون ، ويسأل نفسه اذا كان يستطيع أن يتقدم منه ويعرفه بنفسه ٠

وكان رجل يراقبه بعينين ذكيتين وابتسامة ماكرة على شفتيه ، وفى اللحظة التى قرر فيها يوسف أن يتقدم من الرجل ، انطلقت ضحكة عالية من الرجال الثلاثة ، رجل التليفزيون ، وصاحبه عن يمينه ذو الصلعة،والثالث عن يساره ذو النظارات ، وأيقن لأمر ما أنهم يضحكون عليه فأسرع هاربا من الحجرة تطارده ضحكاتهم حتى وصل البهو فوجده مزدحما على غير ما شاهده لأول مرة ، رأى مجموعة من

الرجال والسيدات يجلسون الى مائدتين متجاورتين ، فى البهو ، التفتوا جميعا نحوه ، أو هكذا خيل اليه ، فتحاشاهم بنظراته وسار على غير هدى ، متوقعا أن يجد أمامه مدخل القاعة التى حدثه عنها كريم شاكر ، ولكنه لم يجده فتلفت حائرا وسمع صوتا يسأله :

ـ هل تبحث عن قاعة الدومينو ؟

تلفت مذعورا ، كان الصوت صادرا من الجماعة الذين يجلسون فى البهو ، كان مرتبكا ، ورأى ضبابا يتخلله صور رجال ونساء ، وسمع أكثر من صوت رجل وامرأة يصيح :

ـ انها أمامك ٠

ولابد أنه ارتبك تماما ، فقد تعالت الصيحات وتضخمت ٠

ـ أمامك ٠٠ أمامك ٠٠ كيف لا تراها ٠

وجلجلت فى أذنيه ضحكات نسائية حادة ، امتزجت بقهقهات عريضة خشنة صادرة من حناجر رجال ، خفق قلبه بعنف وتقدم الى الأمام وهو لا يرى الا جدارا من الخشب البنى ، عيناه تبذلان جهدا غير عادى لترىا ما يجب أن يراه ، وفجأة اكتشف أكرة باب ، ورأى الباب من نفس لون خشب الجدار ، ولاحقته الضحكات والقهقهات وسمع أصواتا تقول :

ـ انه جديد ٠

ـ هذه أول مرة نراه ٠

ـ الا يحذره أحد من الدخول ٠

ـ لعله صدق انه سيختصر زمن المشاكل ٠

قبل أن تمتد يده الى أكرة الباب ، شعر بيد تمتد الى كتفه ، تلفت هلعا ، فرآها أمامه بوجهها المرسوم الأنيق ، وقوامها الفارع الرياضى ، قالت وهى تغوص بعينيها الزرقاوتين فى عينيه ، بلهجتها الشامية :

ـ استاذ ٠٠ انسيت موعدنا ٠

نظر اليها فى غباء ٠٠ فامسكت بذراعه قائلة :

ـ اجلس معنا ٠٠ هذا افضل ٠

همس فى ذهول :

ـ ولكنى على موعد ٠

قاطعته فى ثقة :

ـ أعرف ٠٠ مع الاستاذ كريم شاكر ٠٠ انه ينتظرك بالداخل ٠٠ وكلنا نعرف ٠٠ ردد بصوت ضعيف وهو يتذكر تحذيرات الاستاذ :

ـ يعرفون ٠٠ لماذا ٠٠ ما شأنهم ٠

قالت الشقراء عاتبة :

الم أقل لك انى أولى بك ٠٠ أنا قارئة لك ٠٠ شاهدت فى التليفزيون كل رواياتك ٠٠ والجميع هنا متشوقون للحديث معك ٠٠ وسمع صوتا من بعيد ، صوت رجل يقول :

ـ يا أستاذ يوسف ٠

التفت الى مصدر الصوت فرأى كهلا ممتلىء الجسم يرتدى ملابس رمادية كاملة فوقها معطف لا يتناسب مع الجو المعتدل ، وطاقية من فراء تغطى رأسه ، كان وجهه مربعا وعلى شفتيه ابتسامة فيها طفولة وفى عينيه بريق ماكر ، وكان الرجل يجلس بين المجموعة التى كانت تضحك وتقهقه ٠

وهمست الشقراء :

ـ ميرزا بك الفلكى يناديك ٠٠ انه يقول انه يعرفك ٠٠

احنى رأسه تحية لميرزا بك ٠ الذى عاد يهتف :

ـ تعال يا أستاذ ٠

فرفع صوته معتزرا :

ـ آسف انى على موعد ٠

فقال ميرزا مستسلما بلهجة لا تخلو من سخرية :

ـ أمرك ٠٠ ولكن لا تحرمنا من لقائك ٠

قال يوسف معتذرا :

ـ انه شرف لى يا سيدى ٠

قالت له الشقراء بلهجة غامضة :

ـ انت مصمم على الدخول ٠

جمع قواه وقال :

ـ سيدتى لقد وعدت الاستاذ ولن اخلف وعدى ٠

كان يقول لنفسه لابد أن استمع الى كريم شاكر قبل ان اتورط فى أية علاقة فى هذا المكان ٠

قالت المرأة فى غضب أو لعله دلال مبالغ فيه :

ـ انى أعنى كل كلمة قلتها ٠٠ عندما حذرتك مما انت مقدم عليه ٠

نظر اليها صامتا ، متوسلا أن تسمح له بفتح الباب ، فسارعت بتغيير لهجتها ، ورشقته بنظرة جامحة ، وقالت بدلال مصنوع أو غضب مقنع بالدلال :

ـ كما وعدت الاستاذ كريم ٠٠ تعدنى بألا تخلف موعدك الليلة ٠ وأنك لن تتخلف عنه بحجة انك تلعب الدومينو ٠

قال باسما :

ـ أنا لا أعرف هذه اللعبة ٠

قالت وهى تهز رأسها منكرة ما تسمعه :

ـ اذا كنت لا تعرفها ٠٠ فسيحاول أن يعلمك اياها ٠٠

واقتربت منه ، حتى التصقت به وهمست :

ـ ولكنى أشعر أنى هذه المرة سأنتصر عليه ٠٠ وسأفوز بك ٠٠ وسمعها تقول وقد مطت شفتيها وكورتها فى مواجهة شفتيه

ـ ألا تريد أن تقبلنى ؟!

ارتبك ، وتدفق الدم الى رأسه فقد اشتد الطنين فى أذنيه ، ومالت عليه فقبلته بسرعة ، وغمزت له بعينها ، وتركته وقد خلفت وراءها عطرا له شذى قوى ، يجذبه اليها ويدفعه الى التفكير فى العدول عن فتح الباب المغلق أمامه ، وأن يشدها من

يدها ويصعد معها الى حجرته فقد بدا انها مستعدة لأى شىء لولا انها التفتت اليه وقد ابتعدت وأطلقت ضحكة همجية عالية وصاحت :

ـ الى اللقاء فى المساء ..
فاستوقفها مشيرا بيده رافعا صوته :

ـ ارجوك ..
قاطعته قبل ان يكمل .. قبل ان يطلب منها ان تاتى معه الآن وقالت :

ـ آسفه . لابد أن أذهب لأنى مشغولة بمواعيد اخرى ..
ورآها تنطلق خارجة من اليهو وميرزا والجماعة التى يجلس معها يراقبونه وهم يتهامسون .. أدار لهم ظهره ، واتجه الى الباب وفتحه . دخل قاعة صغيرة ، بها مناضد مغطاة بالجوخ الأخضر ، وعلى يمين الباب مشجب ودولاب ، ورأى الأستاذ كريم شاكر جالسا بجوار مائدة حولها رجال يلعبون الدومينو . وكانت بقية المناضد خالية ماعدا منضدة فى آخر القاعة حولها رجال يلعبون يحدثون ضجة عالية ، فقد سمع احدهم يرفع عقيرته بما يشبه الغناء ، وكان يردد مقطعا واحدا :

« يا أبله من عليها .. ترلم ترلم .. يا أبله من عليها .. ترلم .. ترلم .. » .

رفع صوته :
ـ السلام عليكم .

وجاءه رد التحية من الاستاذ كريم شاكر ، الذى نزع غليونه من فمه . ونهض واقفا مادا كلتا يديه ، اليد اليسرى وبها الغليون ، واليد اليمنى خالية ، تسعى الى مصافحته ، كان الأستاذ يقف منتصب القامة ، يشد بطنه ، ويرفع كتفيه ، وكأنه يشب على أصابع قدميه ، فيبدو كأنه يطول فى أصراره الواضح على ان يبدو فى موقف المسيطر على من يخاطبه . وهتف كريم شاكر :

ـ أهلا .. أهلا .. تفضل .
وضغطت يد الاستاذ على أصابعه بقوة ، وهو يتلفت برأسه يمينا وشمالا ، كأنه يطل على الحاضرين من منصة عالية محتفظا طوال الوقت بالأصابع التى يضغط عليها ، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة ، وفى نظراته الضيقة لمعة حماس غير عادى . وصاح الاستاذ فملأ صوته القاعة :
ـ اسمحوا لى آن أقدم لحضراتكم ضيفا عزيزا وصل اليوم .. الأستاذ يوسف منصور ..
أرتفع صوت غريب ، لعله صوت الذى كان يغنى وهتف :
ـ الاستاذ يوسف منصور .. بستة بالدش يا أحمق من عليها ترلم ترلم .. كان الهاتف الملهوف قد نهض وفى يده حجارة الدومينو ، وبدا ليوسف انه يستعد للترحيب به ،

ولكنه لم يفعل ضرب المنضدة الخضراء بالحجر محدثا دويا ، وهو يردد كلماته ·· ثم جلس وزعق فى الرجل الذى على يمينه وكان ممسكا بقلم وتحت يده ورقة :

ـ قلت لك ستة ·· اكتب ستة فى ·· يا ··

وحدد بصوت جهير الموضع الحساس البذىء الذى يريد أن يضع فيه الستة من جسم خصمه الذى يكتب · صاح الاستاذ كريم شاكر بصوت غاضب مجلجل :

ـ عيب يا خليل ·· ليست هذه هى الصورة التى تقدمها للأستاذ فى أول زيارة له لهذا المكان ·· ماذا تريد أن يقول عنا ؟!

والتفت كريم شاكر الى يوسف قائلا فى ألفة :

ـ خليل مجنون ··

ثم استدرك فى ترفع وتعال :

ـ انه طيب القلب كالطفل ·· وعندما تعرفه على حقيقته تكتشف أنه غير ذلك تماما ··

صاح خليل من مكانه فى آخر القاعة :

ـ ماذا يكتشف يا أستاذ ·· ؟

وعاد يضرب الحجر على الجوخ الأخضر بشدة صائحا فى هياج :

ـ خمسة ·· يا أبله من عليها ترلم ترلم :

صاح كريم شاكر بلهجة آمرة ·· وان خيل ليوسف أن فى عينيه وفى رجفة شفتيه فرحا غريبا يحاول أن يخفيه :

ـ خليل ·· قلت لك كف عن هذا ·· عيب ··

فرد عليه خليل بسرعة :

ـ عيونى من أجل الاستاذ يوسف منصور ·· يا أبله من عليها ترلم ··

قال كريم شاكر محتجا وقد انتفش صدره ، وانتفخت الكلمات التى تخرج من فمه ·

ـ كل شىء له أصول يا خليل ·· وعلى اية حال لى كلام آخر معك ··

وهنا قال خليل كالمخاطب نفسه بصوت كله أسى وقد توقف عن الغناء :

ـ الأستاذ غاضب منى ··

هتف كريم شاكر وانفعاله لا يخفى سروره :

ـ نعم غاضب ·· وهذا يكفى الآن ·

ارتفعت همسات من المنضدة التى كان يجلس كريم شاكر بجوارها ، وسمع صيحات :

ـ كفى يا خليل ··

ـ اسكت الآن يا خليل ·

هدىء اللعب ··

تعليقات تلوم وتعاتب ولكنها تحمل الى يوسف نفس

الاحساس بأنها تخفى سرورا ونشوة ·

وقف رجل متوسط القامة ، أسمر الوجه ، له عينان زجاجيتان ، ليس فيهما ما يدل على شيء · شفتاه كبيرتان غليظتان تحددان فما واسعا ، يكاد يصل بين أذنين كبيرتين ، زاد من حجمهما الشعر المقصوص الى أقصى درجات القصر ، فكشف عن الاذنين والقفا الذى بدا عاليا عاريا · ترك الرجل مقعده بالمنضدة التى بجوارها كريم ويوسف ، وابتسم أو هكذا بدا أنه يبتسم بشفتيه الواسعتين ·

وقال ليوسف :

ـ تفضل معنا هنا يا أستاذ · منذ سمعت بوصولك وأنا أنتظر حضورك ·

بينما صاح رجل آخر · له وجه رفيع على شكل مثلث مقلوب ، قمته هى ذقن الرجل اذ يبدو على شكل زاوية حادة · له حاجبان كثيفان ، وشعر رأس قليل متناثر نافر ، وكان الرجل يحتج على الرجل الذى وقف مرحبا بيوسف :

ـ هل هذه اصول ·· تترك اللعب بلا استئذان ··

قال الرجل الذى وقف :

ـ اسكت يا دكتور ·· أنت لا تفهم ماذا افعل ·

والتفت يجذب الاستاذ كريم شاكر ، ليحوله عن خليل هامسا :

ـ ألا تعرفنا بالاستاذ ؟

صاح الدكتور ذو الوجه المثلث فى الرجل الآخر :

ـ ليس هذا وقت الاجتماعيات اجلس والعب ··

فتدخل كريم شاكر بسرعة وقال :

ـ آسف يا جماعة ·· لا أريد أن أعطلكم ·

والتفت الى الرجل الذى وقف قائلا :

ـ سأعرفكم بالاستاذ يوسف ·· ولكن لا مانع من أن تستأنفوا اللعب ·· وقدم ليوسف مقعدا بجواره ، واشار أولا الى الرجل الذى وقف مرحبا بيوسف وكان قد جلس مستأنفا اللعب · أشار اليه كريم شاكر بيده فى حركة واسعة فى الهواء كأنه يشير الى جماهير من فوق منصة وقال :

طبعا سمعت عن سيادة اللواء سعد الحوت ·· كان الحاكم بأمره فى المباحث المصرية ·

أسرع اللواء الحوت يتمتم :

ـ أستغفر الله ·· أستغفر الله يا أستاذ ·

سمع الاسم فلم يعد يرى غير ابنه حسن فى قفص الاتهام ·

وأفاق من شروده وكريم شاكر يقدم له الرجل ذا الوجه المثلث :

ـ الدكتور ابراهيم المنجى ·

عبس وجه الدكتور وقطب حاجبيه كأنه ينفر مما يسمع

ـ ونظر اليه بعينيه الحزينتين وقال بصوت يغلب عليه السأم :

ـ هل ستطول جلستك هنا ··

صاح كريم شاكر مقهقها هذه المرة :

ـ أنه طبيب قليل الأدب ·· وهو يقول هـذا لكل من يجلس بجواره وهو خسران ··

قال ابراهيم المنجى وهو يواصل اللعب ·

ـ أنا تهمنى صحة الاستاذ ·· فهو مصاب بالبروستاتا ··

قال يوسف فى دهشة :

ـ أنا ··

قال المنجى :

ـ نعم ··

سأله يوسف متحديا ··

ـ كيف عرفت ·· ؟ أنا لم أشك لك يا دكتور ·

قال المنجى وهو يفحص حجارة الدومينو :

ـ لست فى حاجة الى أن تشـكو ·· كل من يأتى الى هنا مصاب بالتهاب البروستاتا · هذا أمر مفروغ منه ·

قاطعه كريم شاكر :

ـ أنت طبيب أمراض نسـاء ·· فما دخلك بأمراض الرجال ·· ؟

وقدم له الثالث الذى يجلس قبالة اللواء الحوت :

ـ سيد آدم ريشفسكى ·

كان سمينا مترهلا ، جسمه بالون ضخم ، ورأسه بالون صغير ، بشرته حمراء بها نمش كثير ، أنفه مقوس طويل ،

شفتاه رفيعتان صارمتان ، شعر رأسه أسود لامع مصبوغ بعناية ، فهو بكل تأكيد ليس سوادا طبيعيا ، مدهون بالبريانتين ، مفروق من اليسار ، عيناه بنيتان ، عينا قط عجوز ، عليهما نظارة زجاجها سميك ، تستقر على منتصف أنفه المقوس ·

قال مسيو آدم بصوت قوى يخرج من أنفه وفمه فى آن واحد :

ـ مرحبا يا أستاذ ·· تشرفنا ··

قالها بالفرنسية ·· ثم سأله بالعربية :

ـ هل تفضل أن تتكلم بالعربية ·· ؟

قال يوسف :

ـ الأمر سيان عندى

وهنا قدم له كريم شاكر اللاعب الرابع الذى يجلس قبالة الطبيب ابراهيم المنجى ·

ـ فؤاد برعى بك مدير عام بنك النيل ·

رجل قصير ذو عينين رماديتين مجهدتين ورأس صغير ، شعره أبيض ، رفع رأسه عن ورقة يسجل عليها النقط التى يكسبونها · وقال بلهجة رسمية وابتسامة جافة :

ـ تشرفنا ·

فتدخل آدم ريشفسكى محتدا :

ـ يا فؤاد يا حبيبى ·· تشرفنا هذه التى قلتها للاستاذ

يوسف ·· كلفتنا عشر نقط ·· حسابنا سبعة وثلاثون ·· لا سبعة وعشرون ·

قال اللواء الحوت :

ـ كفى سرقة يا فؤاد ·

قال الطبيب المنجي للحوت :

ـ اذا كان احد يغش على هذه المائدة فهو انت وزميلك آدم ·

فنظر آدم الى يوسف قائلا :

ـ هذا طبيب مسكين ·· انه يجلس تحت يدى فأمنع عنه الماء والهواء والأوكسجين انظر اليه ·· لقد ضاع ·· انتهى ··

ابتسم يوسف ، وفجأة سأله آدم :

ـ هل تعرف العبرية يا استاذ ·· ؟

قال فى دهشة :

ـ لا ··

فنظر اليه آدم نظرة فاحصة ، أو لعل نظرته بدت هكذا من خلف عويناته الزجاجية وقال بلهجة غريبة :

ـ ظننتك تجيدها ·

قال :

ـ للأسف لا ·· لماذا ظننت انى أجيدها ؟

قال آدم بسرعة كأنه أعد اجابته وتوقع أنه سيقولها ·

ـ اسمك ليس غريبا عنى ·· ويخيل الى انى قرأت له كتابا جعلنى أتصور أنك تعرف العبرية ·

كان خليل مازال يردد ·· يا أهبل من عليها ترلم ترلم ·· يا أحمق من عليها ترلم ترلم ··

وشعر بأنفاسه تضيق · كان يرى جابى اسكنازى جالسة القرفصاء بالبنطلون الذى أصبح الآن أسمه جينز وبجوارها دافيد المجند القادم من بولندا مع الجنود الآخرين الذين وصلوا الى القاهرة من كل مكان فى العالم قبل معركة العلمين · كانا يسندان ظهريهما الى حاجز الباخرة المتجهة فى الليل الى القناطر الخيرية ، من خلفهما النيل والليل وشاطىء تظهر فيه أشباح نخيل وبيوت متناثرة يكشفها أو يسترها ضوء القمر · كانت بين أحضان دافيد ·· يقبلها ·· وكان لا يفهم كيف أقدمت حبيبته على ما أقدمت عليه · هكذا فجأة بلا شرح أو تبرير أو اعتذار أو شجار أو أى شىء · عندما اختفى دافيد بعد أسبوعين ، عادت اليه ، يرقصان ، ويذهبان معا الى السينما ، ويقبلها آخر الليل وهما صاعدان السلم الى بيتها ، ولكنه كان قد عرف بعد حادث دافيد ، انها لن تكون له أبدا زوجة أو حبيبة ، انه مجرد رفيق رحلة فى فترة من فترات العمر ، ينفق وتتسلى معه ، ثم لا شىء بعد ذلك ، وكان ما توقعه ، هاجرت وتزوجت فى الأرجنتين ، ومن يدرى أنها ذهبت بعد ذلك لتعيش فى اسرائيل أو لا ·

كان آدم ريشفسكى مازال يسأله :

ـ ترى أى كتاب هذا الذى جعلنى أتصور انك تجيد العبرية ؟

همس :

ـ لعلها قصة قصيرة عن علاقة غرامية ايام شبابى بفتاة يهودية ..

فبدا الاهتمام على وجه آدم وتمتم كانه يتذكر شيئا كان يسعى بجدية لتذكره .

ـ آه .. نعم .. نعم .

وصوب اليه نظراته سائلا :

ـ كانت قصة واقعية يا استاذ .

هز رأسه وقال :

ـ بعض الوقائع صحيحة .. ولكن الواقع .

واتى يوسف بحركة من يده متخلصا من مواصلة كلام ضاع منه ولا يستطيع أن يتذكره .

بينما صاح ابراهيم المنجى :

ـ هل نواصل اللعب .. ام ننتقل الى الصالون لنسمع هذا الكلام الفارغ .. ليس هذا مكان الدردشة .

فى هذه اللحظة .. فتح الباب وظهر الرجل التليفزيونى المشهور مازال يدخن السيجار ، اقترب منهم .. لا .. انه يقترب من يوسف شخصيا ويبتسم .. يلوح بيده :

ـ حضرتك الأستاذ يوسف منصور .. الكاتب المشهور .. هل أفلح الأستاذ فى اصطيادك ؟

صاح كريم شاكر :

ـ آه .. جاء الألعبان الأكبر .. الذى يلعب بالبيضة والحجر .

والتفت اليه وسأله :

ـ هل تعرف الأستاذ رأفت الحلوانى ؟

ارتجف ، كيف فاته أنه شاهده فى التليفزيون يتحدث عن الارهاب ويطالب بأقصى العقوبة للأولاد المجرمين ، كان ينادى باعدام حسن . قال وهو لا يدرى من أين يأتى صوته :

ـ نعم .. انى رأيته فى التليفزيون .

صاح رأفت الحلوانى :

ـ الأستاذ الكبير يوسف منصور .. يتفرج على التليفزيون ، كنت أظن أنك تكتفى بالكتابة له .

قال يوسف لنفسه : انه يريد أن يتجاهل ما يعرفه عنى . وما فعله لالحاق الضرر بى ، الم يقل له محسن فهيم المخرج ، ان رأفت الحلوانى اقترح على مدير التليفزيون ، تكليف يوسف بكتابة حلقات ضد الارهاب ، على ان يستغل يوسف كأب يرفض الجرائم التى ارتكبها ابنه ، أب يقدم ابنه الى الجلاد .. عندما قال له المدير ان هذا الطلب فيه قسوة زائدة على يوسف ، صاح رأفت الحلوانى :

– انه المسئول عن تربية هذا الولد الفاسد ·· هذا الوحش الذى يسفك الدماء ، واذا لم يستطع أن يقوم بدور فى علاج الشرور التى أنجبها ·· فأبعـــدوه عن التليفزيون ·· منعوا رواياته ·· اوقفوا اذاعة أى شىء يصدر عنه ·· فقد ارتبط اسمه باسم ابنه الارهابى المجرم ·· ولا تسمحوا لمن أنجب الشر أن ينفث سمومه من خلاله أعماله فى شـــباب المجتمع المصـــرى ·

قال له محسن :

– هذا الكلب رأفت يريد اذلالك ·

قال له والألم يعتصره :

– لماذا ·· انى لا أعرفه ·· وهو لا يعـــرفنى ·· والأب لا يؤخذ بجريرة ابنه ·· أى شرع يقـــول هذا ·· أليس له اولاد ·

قال محسن :

– انه أعزب لم يتزوج ·

وخاف يوسف أن ينفذوا ما ينادى به رأفت الحلوانى ·· كان عليه أن يبتسم ، أن يعتـذر ·· أن يبدو ضـــعيفا ·· يائسا ·· أن يمثل ادوار الغلبان المسكين ليستدر العطف ، ليؤجل تنفيذ التهديد ، ليستمر بعض الوقت فى العمل ، جلس أمـــام مدير التليفزيون وبذل جهده لينهمر الدمع من عينيه · كان واثقا ان دموعه ستؤجل أى قرار قد يتخذه الرجل ضده ·

انتبه على صوت كريم شاكر يقول له :

– رأفت هذا محامى ·· يظن انه يستطيع أن يأكل الجو ·· ولكن على من !!

صـــاح رأفت :

– المهم انكم تضيعون وقتكم ·· وهذا لا يليق ·

قال ابراهيم المنجى فى سأم واضح مشيرا الى يوسف :

– هذا ما أقوله ·· والسبب هو ظهور الأستاذ بيننا ·· والمصيبة أنه منذ دخل وأنا أخسر ·· انه نحس ·

كان قد اعتاد على كلام المنجى ، وانشغل عنه بصـــياح خليل من مكانه البعيد :

– تعال هنا يا رأفت يا حبيبى ·· لا تلعب مع الدرجـــة الثالثة ·· تعال الجنرال موجود ومستعد ·

هتف الرجل الذى يمسك بالورقة والقلم بجوار خليل :

– نحن مشتاقون اليك يا حلو ·

وغنى خليل :

– تعال يا رأفت ·· يا أهبل من عليها ترلم ترلم ·

التفت اليه رأفت الحلوانى ، وقال له متوددا :

– جو جديد بالنسبة لك ·· هل تلعب الدومينو ؟

قال مرتبكا :

– لا ··

قال رأفت واثقا وبلهجة واضحة السخرية :

- سوف تتعلمها .. هذا قضاء وقدر .

سمعها كأن الرجل يقول له ان كل ما حدث لك كان قضاء وقدرا .. همس فى ضيق :

- هذه مجرد لعبة .. قد لا أتعلمها .

قال رأفت ساخرا :

- لا تستطيع .. مادام الأستاذ موجودا .. سوف يعلمك نظرياته .. وأهمها نظرية المسمار .. وسوف تكتشف لامؤاخذة .. أن هذا المسمار .. ليس مسمارا .. ولكنه .

ولوح بيديه فى حركة تمثيلية بذيئة قائلا :

- انه خازوق طويل .. كالذى أجلسوا عليه سليمان الحلبى .. سوف تجلس عليه وأنت مخدر .. ثم تصرخ عندما يذهب مفعول المخدر .

قال لنفسه : لا شك أن رأفت هذا يكرهنى .. لماذا .. لماذا ؟!

هتف خليل :

- يا أهبل من عليها ترلم ترلم .. نظرية الأستاذ لا غبار عليها .

صاح الرجل الذى يلقبونه بالجنرال :

- هذه أعظم نظرية عرفها التاريخ .

قال اللواء الحوت :

- يا جماعة .. اعطوا الأستاذ يوسف فرصة .. ليدرس بنفسه .

والتفت اليه قائلا :

- أليس كذلك يا أستاذ .. أنا شخصيا جديد هنا .. ويقولون انى مازلت درجة ثالثة .. ولكنى أتعلم بسرعة .

والتفت الى الأستاذ كريم شاكر يسأله :

- ألست أتعلم بسرعة يا أستاذ .

قال كريم شاكر بأنفه وترفع :

- مازال أمامك الكثير يا سيادة اللواء .. مازلت تزوغ .. مع بالى بالك .

فضحك الحوت . وقال لكريم شاكر بلهجة كلها مجاملة :

- انت روح هذا المكان .. اننا نضحك ونهرج .. ولولاك لكانت حياتنا فى غاية التعاسة .

قال ابراهيم المنجى بلهجة غاية فى الحزن :

- هذا صحيح .

قال كريم شاكر محتجا :

- لا يصح هذا الكلام يا سيادة اللواء .. نحن هنا لا نهرج .. مثل الآخرين الذين تقابلهم فى الصباح .

وهنا صرخ خليل :

- ماذا جرى لكم .. يا أهبل من عليها ترلم ترلم .. حرام هذا التبديد لوقتنا .

وتحرك رأفت الحلوانى ‥ الى المنضـــدة التى يجلس اليها خليل والجنرال · وتحرك وراءه كريم شاكر ويوسف ‥ كان يجلس على نفس المنضدة · رجل طويل رفيع صـــامت لا ينظر الى احد · ولا يبدو انه يريد ان يخاطبه احد · كان يعبث بأصابعه بحجارة الدومينو · أصـــابعه طويلة مرهفة غير عادية · جذبت أنظار يوسف · بينما انشـــغل الجميع بسحب مقاعد للالتفاف حول المنضدة التى يتزعمها خليـل وجلس رأفت الحلوانى قبالته وهو يقول :

– يستحيل ان ألعب مع الجنرال لأنى لا احتمل غباءه ‥
فلوح الجنرال بقبضته :
فسارع رأفت يقول :
– أقصد عبقريتك ·
ثم أردف قائلا :

– ولا أستطيع ان ألعب مع الدكتور المازنى لأنى لا افهم لعبة المقعد ·

صـــاح خليل :

– اذا تلعب معى ‥ يا اهبل من عليها ترلم ‥ ترلم ·
هنا شعر بيد الأستاذ تهبط على كتفه ، وسمعه يهمس :
– هيـــا بنـــا ·

كانوا جميعا قد احاطوا بمائدة اللعب · بينما تحـــرك

الأستاذ بخفة يريد أن يتسلل قبل أن يلحظه أحد متجها الى باب صغير لم يتبين وجوده حتى الآن ·

كان الباب بجوار الدولاب ، وبينه وبين النافذة ·

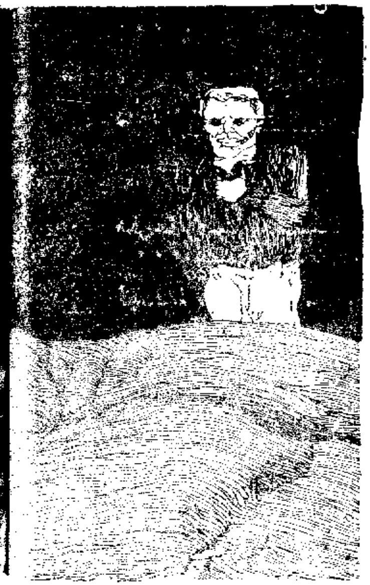
فتح الأستاذ الباب بهدوء وهو ينظر خلفه ليتاكد أن احدا لا ينتبه الى خروجه والتفت معه ، كان خليل يصرخ فى جنون فى الجنرال :

– أربعة فى ‥ يا أحمق من عليها ترلم ترلم ·

ولمح آدم ريشفسكى ‥ ينظر اليه والى الأســتاذ ، كان الوحيـــــد الذى تنبه الى خروجهما ، وخيل الى يوسف انه شاهده يغمز بعينه ، واستدار الى الأستاذ ، فوجد نظراته صامتة أمام غمزات عين آدم ‥ فلم يعرف اذا كان يغمـــز بعينه له · او لشاكر كريم ·

كانت

الحجرة الجديدة مريحة ، مقاعدها الوثيرة مكسورة بالجلد الاخضر ، اضاءتها هادئة،وبها دولاب زجاجي كبير ملىء بالكئوس الفضية



ملىء بالكوس الفضية · وسرع الاستاذ كريم شاكر يجلس على مقعد بجوار منضدة بجوار حائط عليها مصباح مغطى بمظلة من المخمل الأخضر · بدا ليوسف أن الاستاذ حريص على الجلوس على هذا المقعد بالذات ، ولاحظ أنه يواجه

الباب ، وهو لا يستريح عادة الى هذا الوضع اذ يجلس وخلفه باب لا يدرى متى يفتح ، أو من قد يدخل منه ،

وسوف يضطر الى الالتفاف الى الخلف ليرى الداخل ، هذا اذا شعر بالباب يفتح ، اما اذا لم يشعر فقد يفاجأ بوجود مجهول فى الحجرة ، ومجرد التفكير فى هذا الاحتمال أمر مزعج ، قد يتعرض لحركة مفاجئة خلفه أو لصوت صادر خلفه دون أن يتوقع الحركة أو الصوت ، وعندئذ ستكون الصدمة التى تحيق به عنيفة فوق احتماله ، لاحظ كريم



شاكر قلقه ، وأنه يتلفت خلفه فى اتجاه الباب فسأله اذا كان يتوقع دخول أحد ، فقال له ان الباب خلفه هو الذى يضايقه ، فنهض الاستاذ باهتمام كبير ، وانتقل الى ركن آخـــر من الحجـرة وأسرع بالجلوس بجـوار منضـدة أخرى عليهـا مصباح آخر ، وجلس هو فى مقعد عند الطرف الآخــر من المنضدة ، كلاهما يواجه الباب ولكنهما لا يواجهان بعضهما بعضا . وقال كريم شــاكر بصـوت خفيض على غـير عادته ، كأنه يخاطب نفسه :

ـ لا أظن أن أحدا سيدخل علينا .. ان استخدام الصالون قليل .. لأن اهتمامهم باللعب يفوق اهتمــامهم بالحديث والدردشــة .

واخرج علبة تبغ من جيبه وحشا غليونه . وهو يتكلم بنفس الصوت الخفيض وقد ارتسمت على وجهه علامات الجد :

انصت يوسف الى كلمات الأستاذ باهتمام وحذر .

ـ الموضوع الذى سأحدثك فيه بسيط غاية فى البساطة .. وهو يتلخص فى كلمتين .. انا ولا فخر صاحب مشروع قاعة الدومينو . ولقد حاربت من أجله وخضت معارك ضارية ، حتى اقتنعت المؤسسة اخيرا بادخال الدومينو فى فنادقهـا واستراحاتها .. وقد يبدو لك أن هذا موضـوع تافه .. ولكنك تقع فى خطـأ كبـير لو ظننت أنه تافه .. ان الفكرة بسيطة .. نعم غاية فى البساطة ، أن نقضى وقتنا ونحـن

نلعب الدومينــو .. ولكنها نقطة تحول خطــيرة فى تاريخ نزلاء المؤسسة .

واقترب منه كريم شاكر برأسه الضخم وعينيه الضـيقتين واهتز الغليون بين أسنانه وهو يقول بصوت خشن خفيض :

ـ اتدرى أن هذا المشروع قد خفض من نسبة الذين تاهوا فى الصحراء .

ردد يوسف فى غير فهم :

ـ تاهوا .. كيف ؟!

قال كريم شاكر بغير اكتراث :

ـ كما يتوه أى مغفل .. يحاول أن يقنع نفســه بأنه قادر على معرفة هذا المكان والاحاطة بموقعه بالنسبة للمكان الذى رحل عنـــه .

قال يوســــف :

ـ ولكنهم لا يعارضون القيام برحلات اســـتكشاف ، هذا ما فهمته من موظف الاستقبال .

قال كريم شاكر :

ـ انه لن يعارض ابدا .. ولكن فى حدود علمى أن الذين خرجوا للاستكشاف لم يعد منهم أحد .

ســال يوسف :

ـ كم لك من الوقت هنا ؟

قال كريم شاكر باسما :

ـ هذا سؤال لا نعرفه فى هذا المكان .

سأل يوسف فى لهفة لا تخلو من قلق جامح :

ـ الا توجد نتيجة ·· او مفكرة ·· ألا يوجد شىء يسجل لكم الأيام والأسابيع والشهور ؟

قال كريم شاكر مكملا :

ـ ولا السنوات ·· ولا أى شىء ·

قال يوسف بسرعة :

ـ أستطيع أن أعالج هذا الأمر ·

سأله كريم شاكر وهو يرمقه بابتسامة تكاد تسخر منه :

ـ كيف تعالجه يا أستاذ ؟

قال يوسف :

ـ بالأمس ·· كنت فى زيورخ ·· واليوم الجمعة ·· أى أننـــا ·

قاطعه كريم شاكر :

ـ هل أنت واثق أنك انتقلت من زيورخ الى هنا فى يوم ·

قال يوسف :

لا أعتقد ، ان المخدر الذى حقنونى به يستمر تأثيره أكثر من ســـاعات ·

سأله كريم شاكر :

ـ هل أنت متأكد ؟

قال يوسف فى ضيق من هذه الأسئلة التى بدت له سخيفة بلا معنى :

ـ لقد استيقظت بنفس ملابسى ·

هز كريم شاكر راسه وقال ساخرا :

ـ مثلما استيقظ اهل الكهف ·

تراجع يوسف فى مقعده الى الوراء ، وقال محتجا :

ـ لا تقل لى يا استاذ ·· انى بقيت مخدرا عدة قرون ·· ان لحيتى لم تطل ·· وأظافرى مقصوصة ·· والناس من حولى لا يبدون غرباء ·· والسيارة والهليوكبتر والتليفون ·· والأثاث من حولى · وملابسك وغليونك ·· كل شىء يؤكد لى أنى استيقظت فى زمانى ·

قال كريم شـــاكر فى تؤدة وهـــو ينفث دخانا كثيفا مـــن غليـــونه :

ـ نعم ·· استيقظت فى زمانك ·· ولكن ليس معنى هـــذا انك قطعت الرحلة فى ساعات أو يوم ·· بل انى اقول لك انه لا ضمان لصحة أى استنتاج تصل اليه ·

قال يوسف متحديا لما يسمعه ، متحديا للرجل الذى يجلس أمامه وقد شعر بأنه انسان بغيض :

ـ على اية حال ·· لن يطول بقـــائى هنـــا ·· ســـاترككم واعـــود غـــدا ·

قال كريم شاكر بهدوء وهو ينظر اليه بنظرة ثابتة :

ـ لى راى فيما تقوله ·· لن اخبرك به الآن ·

فساله متعجلا :

ـ لا ·· قل ما تريد ·· فلقد سبق انى سمعت من مســـيو كوستا انى محاصر ·· وانى لا استطيع العودة ·

وتلفت يوسف حوله فى ضيق قبل ان يكمل :

ـ ويخيل الى انى فى مصحة للأمراض النفسية ·· كل من فيها يعانى من أوهام تجعله على شفا الجنون ·

قال كريم شاكر محتفظا بهدوئه ، وهو يشعل غليونه الذى انطفأ :

ـ على أية حال ·· لا تحرمنى من الكلام الذى أريد أن أنقله اليك ·· أفضل أن أتحدث بالترتيب ، ولن أطيل فى حديثى ـ قبل أن أصل الى مناقشة قضية عودتك ·

ـ صاح يوسف باسما فى قلق :

ـ انها ليست قضية ·

قال كريم شاكر :

ـ فليكن ·· ولكن أرجوك استمع الى أولا ·

كان يتوقع ان يحدثه الأستاذ عن أسرار ، أو يدلى بنصائح هامة ، ولكنه شرع يحدثه من جديد عن جهوده التى بذلها فى مشروع الدومينو · كانوا هنا ضد لعب الدومينو ، قاوموا الفكرة عندما نادى بها ، اعترضوا عليها بكل الوسائل ، انه لايستطيع أن يصور ليوسف العقبات الهائلة التى قابلته ، قالوا ان الجلوس للعب مضر ، وان النزلاء فى حاجة الى الرياضة المستمرة ·· الى الهواء الطلق ، وان لعبة الكروكيه هى اللعبة المناسبة ، أما الدومينو فسوف تدعو الى الكسل وركود الدم فى الشرايين ، وهذا يؤدى بالتالى الى تصلب الشرايين والذبحة وانفجار شريان المخ وغير ذلك مما يصيب

الجسم ، قالوا : ان جماعة الدومينو تريد أن تسيطر ، أن تفسد المكان ، قالوا : ان الغرض منها غير واضح لأن تجمع اللاعبين فى قاعة سيهيء مناخا غير ملائم تسوده المشاحنات والأحقاد، ولكن الاستاذ واصل كفاحه حتى استطاع أن يحضر ستة صناديق من حجارة الدومينو ، تكفى لأن يلعب بها اربعة وعشرون لاعبا ، لأن كما تعلم يستطيع كل أربعة أن يلعبوا الدومينو الأمريكانى معا ، وهذا يعنى أن نصف النزلاء تقريبا يستطيعون اللعب ، بمجرد أن رأوا صناديق الدومينو هاجوا، لن أقول لك من هم ، ستعرفهم فيما بعد ، تصور لقد حاولوا سرقتها ، كلفوا أحد المساعدين بارتكاب هذه الجريمة ، ولكنه اعترف لى ، وواجهتهم ، قلت لهم انتم تتهموننى بأنى أريد أن العب الدومينو ، وأنا أتهمكم باللصوصية ، وطالبت باجتماع النزلاء هنا فى البهو ، كان معى بالطبع من يؤيدنى ، كانتأياما عصيبة ، ولما فوجئوا بالأغلبية تؤيدنى ، وضعوا عقبات أخرى ، قالوا لا يوجد مكان يصلح ، ولكننى كنت مستعدا لهذا الاعتراض ، كانت تلك القاعة التى رأيتها الآن ، وهذا الصالون الذى نجلس فيه ، مخزنا قذرا متربا ، فلما فوجئوا باقتراحى بتحويل المخزن الى قاعة للدومينو وصالون ملحق بها ، احتجوا بأن مباريات الكروكيه لن تجد متفرجين ومشجعين ·

هنا طفح بى الكيل ، قلت لهم : أين الحرية الشخصية ، أين حقى كانسان ، هل تفرضون على مشاهدة مباراة لا اريد مشاهدتها ، هل تحكمون على بأن أصفق وأشجع لاعبين ،

لا أريد أن أصفق لهم ولا حتى أراهم ، هذا مستحيل ، أن هذا المكان سوف ينهار من أساسه لو افترضتم اننا أصبحنا عبيد لعبة واحدة ، نحن هنا أحرار ، نحن كبار لنا احترامنا ·

وانتفض الأستاذ كريم شاكر واقفا ، أراد أن يتكلم وهو واقف كأنه يترافع فى محكمة وسار فى الحجرة خطوات ، وعاد ووقف امام يوسف ، ينظر اليه من عل ، والدخان يخرج فى حلقات كثيفة من غليونه ومضى يقول :

ـ ومع ذلك كانت التجربة لا تخلو من مخاطر ·· لعل أفظعها ان تتحول القاعة الى مكان للمناقشات والمشاحنات لا للعب ، وعلاج هذا الخطر يعتمد على دواء لا بديل له ، وهو التدريب ·· نعم تدريب الأعضاء على الأسس السليمة والقواعد الصحيحة للعب ، كان لابد أن أضع النظريات التى تساعدهم على فهم أسرار اللعبة واجادتها ·· فكل تقدم فى أساليب اللعب ، هو فى نفس الوقت ابتعاد عن مشاكلهم وذكرياتهم وهمومهم ومصالحهم القديمة التى تثير بينهم المناقشات ، وما تجده من انفعالات واحقاد ، لذلك تلاحظ أن اللاعبين ينقسمون الى درجات ، هناك الجدد ، مثل اللواء الحوت ، وهو مازال يميل الى الحديث ، والتذكر ، والمناقشة ، وهو يخرج أحيانا الى الصحراء ، مع كل ما فى هذا الخروج من مخاطر ، أرايت كيف اقبل عليك يريد التعرف بك انه مازال فى الدرجة الثالثة ، أما لاعبو الدرجة الأولى فهم أمثال خليل ·· والجنرال خليل هذا شاعر ولكنه لا يفكر الآن فى شئ غير الدومينو ·

ولقد استراح لها ، انها الشئ الوحيد الذى يهتم به ، لا مشاكل ولا هموم ولا ذكريات ، وكذلك الجنرال ، كان يوما ما حاكما لمدينة «ح» تعلم فنون الحرب فى كلية سانت سير ، عندما انهار نظام الحكم فى بلده جاء الى هنا ، كان أول الأمر يتحدث عن القومية العربية ، عن امجاد العرب ، كان كثير الشجار مع كل من يناقشه ، الآن هو واحد من أبرع لاعبى الدومينو ·

اللواء الحوت يحسده على براعته ، عنده الدكتور ابراهيم المنجى · أظن أنه مازال فى الدرجة الثانية ، حالته متوسطة هذا الطبيب أخرج الى الدنيا مئات من الصبيان والبنات ، لا فى مصر وحدها ، بل فى الشرق الأوسط ، انه الآن يتقدم فى اللعب ، ولم يعد يصبر على المناقشات ·

كان يرقب الأستاذ كريم شاكر ، وهو يترافع وقد اشتد حماسه ، وانتفخت أوداجه وجلجل صوته رغم انه احتفظ للجلجلة بدرجة منخفضة نسبيا ، وكانت كل نقطة يتناولها تنتهى بانه لولاه ·· لولا كريم شاكر شخصيا ·· لما تحقق الانتصار الكبير ، انتصار الدومينو واستقلالها عن الكروكية ، ثم انتصارها الحاسم على كل ما حمله اللاعبون الى قاعة اللعب من هموم واحزان ومشاكل وصراعات وذكريات ·

حاول يوسف اكثر من مرة ، أن يقول كلمة ، احيانا كان يخيل اليه ان الأستاذ كريم يوجه اليه السؤال ويريد منه الاجابة ، ولكنه قبل أن ينبس بكلمة يسارع الأستاذ بالاجابة

على السؤال الذى القاه عليه ، كأنه يسأل نفسه ، اصبح واضحا أن الأستاذ لا يريد منه أن يتكلم ، بل قد يضيق بأية مقاطعة ، حتى وهو يسأل سؤالا صريحا واضحا :

ـ أحقا أنت لا تعرف كيف تلعب الدومينو ؟

سارع الأستاذ بالاجابة ، آه لقد سمعتك تعترف لرأفت الحلوانى بأنك لا تعرفها ، ولكن اطمئن سوف أعلمك اللعب ، هذه ليست مشكلة ·

وانطلق كريم شاكر ، يشرح له ، فدارت رأسه ، لم يفهم ما يسمعه وهو يحدثه عن أرقام ، والمسمار الذى هو الحجر الأول الذى يوضع على مائدة اللعب الدبش او الدش أو الدرجى ، وتوالت الكلمات ، واهتز الغليون بشدة فى فم الأستاذ ، وأشعله من جديد بيد مرتعشة ثم تركه على مطفأة بجواره ليشرح الدرس بكلتا يديه ، واضطر يوسف أن يقاطعه معتذرا :

ـ لقد دارت رأسى ·

قهقه الأستاذ مسرورا وقال :

ـ قد يبدو لك الأمر صعبا فى البداية ، لأنه علم وفن ·· ولكنك لو راقبت اللعب فسيساعدك ذلك على قطع الخطوة الأولى ·

ومد كريم شاكر يده اليه قائلا :

ـ هيا نشاهد اللعب ·

قال رافضا ان يتحرك من مكانه :

ـ لن اذهب ·· لأنى مازلت انتظر رايك فى عودتى باكر ·

تجهم وجه الأستاذ ·· واختطف الغليون من المطفأة · بعد أن بحث عنه فى جيوبه ، وقال ببطء :

ـ بصراحة ·· ان عودتك لو تحققت تكون معجزة ·· ولا أظن أن هناك ما يدعو الى تحقيق معجزة خاصة بك ·

قال يوسف محتجا محاولا ضبط مشاعره بابتسامة :

ـ يبدو أنك لا تصدقنى ·

وسكت يوسف لحظة تململ فيها فى جلسته قبل أن يكمل :

ـ أو لعلك تتوقع أن يمنعنى أحد من العودة ·

قال الأستاذ بسرعة :

لا ·· أنا أعرف بالتجربة أنه لاتوجد قوة تستطيع أن تمنعك ·· ولكن المشكلة ·· هى فى ان تتخذ أنت القرار وتنفذه ·

قال يوسف باسما باستخفاف :

ـ اطمئن ·· لقد اتخذت قرارى وسأنفذه ·

قال الأستاذ وهو يعود للجلوس :

ـ كنت أفضل ألا أقول لك ما سأخبرك به الآن ·· وأتركك لتخوض التجربة بنفسك ، ولكنى أخاطر فى هذه الحالة ، بأن تستولى عليك ليلى الشقراء ، أو تضيع فى الصحراء ، أو تنضم الى خصومنا فى الكروكيه وعلى رأسهم ميرزا الفلكى ·· لا شك أنهم حاولوا الاتصال بك ·

قاطعه بدهشة :

ـ قلت لك أنى سأعود ·· لن أنضم الى أحد ·

قال كريم شاكر بلهجة قاسية :

- أنت لم تدرك تماما الوضع الذى أنت فيه ·· وهذا أمر طبيعى ·· الكل هنا مروا به ·· لقد أراد الجنرال يوما أن يعود ليقود انقلابا فى بلده ·· أعد الخطط كاملة للتنفيذ ·· فماذا كانت النتيجة ·· على ظهر أوراق خطط الانقلاب سجل النقاط التى يكسبونها فى الدومينو ، اللواء الحوت مازال حتى اليوم يواصل أعمال التحرى ·· احيانا يخيل اليه انه مبعوث فى مهمة من المباحث ·· انه يتوقع ان يكشف وكرا لجماعة ارهابية دينية فى الصحراء ·

هنا وجد يوسف نفسه يصرخ فجاة كأن الصوت يخرج من فمه رغما عنه :

- انها ليست صحراء ·· انها تراب ·

هز كريم شاكر راسه :

- هانت تعرف عنها اكثر مما يعرفه رجل المباحث ،

واجتاح يوسف خوف مفاجىء ، كان يفكر فى ترك المكان وأن يسرع الى رجل الاستقبال · يطالبه بان يعود فورا الى القاهرة او زيورخ ، أو اى مكان يعرفه ، وله فيه ذكريات ، ناجيا من هذا المكان المجهول الذى يحيط به التراب ·

قبل ان ينهض ، فتح الباب على مصراعيه ، ورأى ظهر رجل ، يتقدم وهو يحمل بين ذراعيه جسد رجل بينما حمل اثنان آخران قدما الجسد ، بعد لحظة تبين أنه جسد آدم ريشفسكى ·

هتف يوسف :

- ماذا جرى ·

لم يجبه احد ، كان المازنى هو الذى يحمل آدم من ابطيه ، وكان اللواء الحوت ، وفؤاد برعى يتوليان مسئولية حمله من ساقية··واتجهوا بالجسد الذى تخرج منه أصوات متحشرجة الى أريكة ومددوه فوقها ، ورفع المازنى رأس آدم على المسند، وشرع فى فك رباط عنقه وازرار قميصه ، بينما انشغل اللواء الحوت وفؤاد برعى يخلع حذائه ، كانت الرغاوى تخرج من فم آدم ، المصفر ، بينما ارتفع صياح رأفت الحلوانى من قاعة الدومينو مناديا :

- يا مازنى لا تضيع وقتنا ·· جاء دورك ·

وجاء صوت خليل ·· منشدا :

- يا أهبل من عليها ترلم ترلم ·

وأردف قائلا :

- كله من الأستاذ ·· هو المسئول عن هذه الفوضى ·· ترلم ترلم ·

وجاء صوت الجنرال :

- يخرب بيتك يا مازنى ماذا تفعل عندك ·

قال المازنى رافعا صوته :

ساحضر حالا ·

وتدخل اللواء الحوت معترضا :

- أتتركه هكذا ؟

هز المازنى كتفيه قائلا :

ـ وماذا أصنع له ؟!!

قال الحوت مستنكرا ما يسمعه :

ـ أنت طبيب ·

فقاطعه المزنى فى حزم :

ـ قلت لك اتركه ··وليس هناك ما تستطيع أن تفعله ·

فتدخل يوسف :

ـ انه فى حاجة الى اسعاف عاجل ·

فنظر اليه المازنى قائلا وهو ينسحب الى قاعة الدومينو وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة :

ـ ماذا يحدث له أكثر مما هو فيه ·· بعد قليل ·· سـيعود الينا ·· ويزعجنا بتعليقاته ·

همس يوسف غير مصدق :

ـ ولكنه يوشك ··

فقاطعه المازنى وقد توقف عند الباب ساخرا هازئا :

ـ يوشك ماذا ·· لا شىء يمكن أن يحدث له ·· غير ان يفيق ويعود الى ازعاجنا ·

وعاد الى اللعب · واستقبله خليل بنشيده :

ـ تعال ·· يا أهبل من عليها ·· اهكذا يضحك عليك آدم ويضطرك الى ترك الملعب ·

قال ابراهيم المنجى :

ـ أنا مستعد ألعب مكانه ·

وقال رافت الحلوانى :

ـ لا يا دكتور ·· أنت مازلت فى الدرجة الثالثة ·

فقال المنجى محتجا :

ـ الاستاذ يشهد بأنى فى الدرجة الثانية ·

سمع يوسف هذا الحوار عبر الباب المفتوح ، وقد اتجـه الى آدم ريشفسكى الذى كان يشهق محاولا أن يحصـــل على هواء لا يجده · وألقى الضوء من خلال القطيفة الخضراء لونا شاحبا مخضرا على وجهه · بينما وقف الاستاذ كريم شاكر يتحدث مع اللواء الحوت وفؤاد برعى قائلا لهما :

ـ نصحت آدم أكثر من مرة ·· ألا يفرط فى تناول الطعام · لقد شاهدته بنفسى يلتهم قطعة جاتوه كلها كريمة ·· ولكنـه عنيد لا يستمع الى النصيحة ·

وضحك اللواء الحوت فجأة · وكأنه نسى مخـــاوفه التى أبداها للمازنى وقال :

ـ لو كان معنا هنا نقود كنا لوحنـــا بها أمام عينيه ·· فينتعش فى الحال ·

قال كريم شاكر وهو يلوح بغليونه فى اتجاه آدم :

ـ لا لا أظن أنه فى حاجة الى نقود ·· انه مليونير··بل قل بليونيرا ·· لا أحد يستطيع أن يقدر ثروته ·· ولا هو شخصيا انه يستطيع أن يفعل ما يشاء فى أى وقت فى أى مكان ·· لا تنسوا أنه هو الذى توسط لاحضار مجمـوعات الدومينو التى نلعب بها ·

هنا تحركت يد آدم وفتح عينيه المغمضـــتين · وكان يلا

نظارة . فسأل كريم شاكر :
ـ أين نظارتى ؟
اخرجها اللواء الحوت من جيبه .. فامسك بها كريم شاكر وانحنى على آدم ووضع النظارة على عينيه وصاح :
ـ افق يا آدم .. صح النوم .
وتحركت شفتا آدم . قبل أن يخرج من فمه صوت ضعيف متحشرج !
ـ أريد ان أشرب .
اتجه كريم شاكر الى الباب وضغط على زر مثبت فى الحائط .. وعاد يقول :
ـ طلبت المساعد ..
همس آدم وهو يحاول فتح عينيه :
ـ أين أنا ..
سارع اللواء الحوت يقول له :
ـ هنا .. فى الصالون .
فتحرك آدم محاولا النهوض . فصرخ فيه الحوت :
ـ اياك أن تتحرك .. هذا خطر عليك ..
فلوح آدم بيده .. وقال بصوت أكثر انتعاشا :
ـ أى خطرتعنى .. أريد أن أعود الى اللعب .
وشرع فى النهوض ووقف مستندا الى اللواء الحوت وفؤاد برعى .. وسار يتوكأ عليهما الى قاعة الدومينو . ليستقبله خليل هاتفا !

ـ برافو . .عملتها يا مسيو آدم .. صحيح برافو لقد شاهدت ميرزا الفلكى وهو يسقط فلم يقم الا بعد أيام وليال .
كان قد دخل مع الاستاذ وراء آدم ريشفسكى الذى جلس الآن على مقعده وهمس الاستاذ فى أذن يوسف :
ـ أمامنا متسع من الوقت لاستئناف الحديث .. الآن أمامك فرصة لتشاهد اللعب .
قال معتذرا وقد نسى تماما أنه كان يفكر منذ لحظات فى مغادرة هذا المكان فى الحال :
ـ آسف لأنى مرتبط بموعد :
فتجهم وجه الأستاذ وهمس متعمدا ألا يسمعه أحد غير يوسف :
ـ موعد مع من ؟
نظر الى الاستاذ وهو يبحث عن كلمات مناسبة يشرح بها لقاءه مع السيدة الشقراء . والتى لابد أن الاستاذ كان يعنيها عندما تحدث عن ليلى الشقراء .
وأدرك كريم شاكر من صمته انه لا يريد أن يجيب فقال بسرعة :
ـ آسف لآنى تطفلت عليك بالسؤال .. ليس من حقى أن أسألك دن تقابل .. أنا من أنصار الحرية الشخصية .. التى لولاها لما كانت هذه القاعة .. أعتذر لك .
قال هامسا :

ـ ليس الأمر كذلك ·· فى الحقيقة أنا لا أعرف من سـوف أقابله ·

فضاقت عينا الأستاذ ··فأصبحتا ثقبين يحيط بهما جفنان مترهلان وقال :

ـ أعتقـد أنى شرحت لـك الموقف بما فيه الكفاية ·· والقضية واضحة لك الآن ·· انها قضية حريتى وحريتك فى هذا المكان الذى ارتبطنا به ·· وانا على يقين ان رجلا مثلك يكفيه ما يسمعه ·· لقد حرصت على أن أتحدث معك قبل أن تختلط بالآخـرين ·· ولا أريد أن اقول ومعذرة ·· قبل أن تتورط معهم · لأنى اخشى أن يستغلوا اسمك ·

ورفع الاستاذ يديه الى سقف الحجرة والغليون يطل من فمه وقال :

ـ استغفر الله ·· انا واثق ان احدا لا يستطيع ان يستغل اسمك ·· ولكن من السهل جدا أن تردد همسات أو شائعات فى أرجاء المكان تقول ان الكاتب الكبير يوسف منصور يعارض لعب الدومينو ·

ابتسم وقال بسرعة :

ـ أمازلت تعتقد أنى لن أترك هذا المكان ؟

قال كريم شاكر :

ـ على ان أتعامل معك على انك قد تتركنا غدا ·· او تبقى معنا للأبد · قال وهو يقاوم رغبته فى الضحك :

ـ لا أظن أن هذا سوف يحدث ·· وعلى أية حال ·· الذين

يريدون مقابلتى بينهم سيدات ·· وأعتقد أن السيدة التى سأقابلها ترحب بالحرية الشخصية للجميع ·

حدق الاستاذ فى وجهه مستريبا فى كلماته ·· وقال بصوت من يحاول السيطرة على انفعال :

ـ كنت واثقا أنها اتصلت بك ·· احذرها ولا تقل لى ان أديبا مثلك خبير بنفسية المرأة لا يعرف انها تسعى الى فرض سيطرتها على الرجل ·

وجاء الخادم الذى يقولون عنه انه مساعد · وصاح فيه الاستاذ كريم شاكر :

ـ أسرع بكوب ماء لمسيو آدم ··

فانتفض آدم واقفا ، وتقدم منهما ، قائلا بصوت خفيض :

ـ ألاحظ أنكما مشغولان عن مراقبة اللعب ·· هل هنـاك مشكلة ؟

قال كريم شاكر بلهجة رثاء :

ـ الاستاذ يوسف منصور على موعد مع ليلى ··

فهز آدم رأسه باسما ·· عيناه تلمعان وراء نظـارته السميكة الزجاج ·

وقال ليوسف :

ـ هل شاهدت ما حدث لى منذ قليل ·

اجـاب :

ـ نعم ··

قال آدم بلهجة الواثق مما يقوله :

ـ انك ستتعرض لما هو أبشع مع تلك المرأة ·· انها قاسية لا ترحم ·

توقف برهة كأن خاطرا قد طرأ عليه وقال مترددا :

ـ ومع ذلك ·· قد يكون من المفيد أن تمر بالتجربة ·· بشرط الا تسقط فيها فلا تخرج منها ·· ستكون خسارتنا غير محتملة ·· لأنك معنا سوف تكمل اللعبة ·

قال كريم شاكر مؤيدا آدم :

ـ هذا بالضبط ما قلته له ·· ان براثن هذه المرأة ·· ألعن من التوهان فى الصحراء بينما متعة اللعب مفتوحة أمامك بلا حدود ·

فهز آدم كتفيه قائلا :

ـ لا داعى للمقارنة لأننا لم نختبر التوهان فى الصحراء ولعل فيه متعة نجهلها ·

قال يوسف بلهجة تعمد أن تبدو مرحة :

ـ على أية حال ـ لا بأس من عذاب ليلة ·· يذكرنى بهذا المكان قبل أن أغادره فى الصباح ·

قال آدم وهو يهز رأسه وفى عينيه نظرات اشفاق :

ـ اذا الوداع ·· لقد كنت اتصور أنك ستبقى معنا ·· ولعل هذا هو سبب الأزمة القلبية التى أصابتنى ·

قال يوسف بدهشة :

ـ انا السبب ·

ـ قال آدم ريشفسكى :

ـ نعم ·· فلقد بدأت أتذكر ما سمعته عنك من عائلة ·· جابى اسكنازى ·· فاضطربت ولم أتحمل مشاهدة اللعب ·· والتذكر فى نفس الوقت ·· فحدث لى هذا الانهيار المفاجىء·

ردد يوسف ذاهلا :

ـ انت تعرف جابى اسكنازى ··

هز آدم رأسه قائلا :

ـ نعم ·

وفجأة شد الاستاذ كريم شاكر قامته ·· ومد يده اليه ، كأنه يستعجله الانصراف قائلا وهو يصافحه :

ـ لا داعى لتكرار الأزمة بمناسبة هذا الحديث ·· سوف نتركك الآن يا استاذ يوسف ·· وانا شخصيا واثق من حكمتك ·

ولم يتركه الاستاذ ليستأنف حديثه مع آدم ريشفسكى ·· تقدم الى الباب وهو يردد بلهجة خطابية :

ـ اذهب وقابل من تشاء ·· وثق أنك لن تجد راحة بال حتى تعود الى هذه القاعة ·

وارتفع صوت خليل :

ـ يذهب الى أين يا استاذ ·· أتتركه يخرج قبل ان يتعلم اللعبة ؟! ماذا حدث للاستاذ ؟!

ورفع حجر دومينو وهبط به محدثا دويا على الجوخ الاخضر ·· صارخا فى الجنرال :

ـ ستة ·· اكتب ستة ·· يا أهبل من عليها ترلم ترلم ··

واستدار الاستاذ وقد تأبط ذراع آدم ، وابتعدا عنه ، الاستاذ مشدود القامة رافع الرأس ، الغليون مثبت بين شفتيه · وآدم ريشفسكى يهرول بخطوات متعثرة · ساقاه تهتزان تحت ثقل جسمه المترهل ليصل الى مقعده خلف رأفت الحلوانى ·

وخرج من الباب فوجد البهو خاليا ·· والرجل الاصلع البدين واقفا تحت علامة الاستقبال فانفجرت فى أعماقه الرغبة فى الهروب وأسرع الى الرجل لاهثا ، وما كاد يصل اليه حتى قال منفعلا :

ـ أريد أن أعود الآن ·

وقال الرجل :

ـ حسنا يا سيدى ·· سأطلب لك السيارة ··

سأل بلهفة :

ـ متى تكون مستعدة ؟

قال الرجل :

ـ بعد خمس دقائق ·

وعاد الرجل يسأله :

ـ هل يقوم سيدى باعداد حقائبه ·· أم نتولى نحن حزمها ·

قال متخلصا من أى شىء قد يضطره الى العودة الى حجرته :

ـ تولوا أنتم ارسالها للسيارة ·

قال الرجل :

ـ اذا تفضل سيدى بالاتجاه الى البوابة ·· ستكون السيارة هناك قبل ان نصل اليها ·

خرج الى الحديقة كانت مظلمة · لولا اضواء تأتى من بعيد ، ومشى بجوار جدار المبنى ، واستدار معه ليجد الأضواء تنبعث من ملاعب الكروكيه ·

كان بينه وبين الملعب حاجز من الشجيرات الكثيفة بطول قامته · ورأى بوابة فى الحاجز من فروع الاشجار ·

قال لنفسه :

ـ ألقى نظرة ·· قبل أن أستأنف السير الى البوابة · ورفع رأسه الى المبنى ، والشرفة الملحقة بحجرته ، ورآها واقفة فى الشرفة تطل على الملاعب ، كان يراها · وقد ارتدت فستانا أحمر ، أما هى فكانت لا تراه وقد تستر بالظلام ·

وقال لنفسه : ماذا لو أجرب ؟ وتذكر كلمات كان يسمعها تتردد فيما مضى :

لا تدخلنا فى تجربة ·· ونجونا من الشرير ·

ارتبـــــــــك

امام الحيرة التى داهمته • لو واصل السير الى البوابة حيث تنتظره السيارة فستكون هذه هى نهاية أحلامه فى المغامرات وكسر القيود ، يعطى ظهره الى نهاية النهاية ولكل ما ينتظره عند تلك المرأة الواقفة تطل عليه من شرفة حجرته ، لن يتكرر هذا الموقف أبدا ، وأين • فى هذا المكان الذى لا ضابط فيه ولا رابط ، لا حــــكومة ولا قانون ، لا عرف أو تقاليد ، ولابد انه سيندم ، وسيتهم نفسه بالجبن والغباء ، وسيتذكر هذه اللحظة عندما يعود الى القاهرة أو أى مكان آخر ، سيتذكرها مرارا ، وربما الى درجة الجنون وسيخبط رأسه فى الحائط بلا جدوى •

قال لنفسه يشجعها على رفض هذا الذى تدعوه اليه تلك المرأة : لعل اخلاقى تسمح ، لعل ضــــميرى أقوى مما كنت أظن ، وارتجف جسده وقد هجمت عليه صورة أبنه حسن ، لقد اتهمنى الولد بالكفر فقلت له اننى مسلم ومؤمن بالله • قال لى ليس هذا ايمانا ، انت لا تصلى ولا تؤدى الفرائض أنت تنطق بالشهادتين لأنه ليس أسهل مــن النطق بهما نفاقا وسعيا وراء اجتماعى كاذب • قلت له لا تحاســـبنى فالله

وحده هو الذى يعلم ما فى القلوب ، أنت ولد مغرور ، تتخذ لنفسك وضع القاضى فى محكمة الدين ، والله لم يعينك قاضيا على أحـــد ، نحن جميعا بشـــــر والذى أراد أن يتميز عن بقية البشر هو الشيطان ، ابليس ، وكلامك باسم الدين هو الشر بعينه • نظر الى الولد غاضبا فى قلبه كراهيــة شريرة ، ولكن ما أدرانى أنه كان على حق ، وأن ابليس هو الذى تنكر فى هية تلك المرأة ليجذبنى الى دوامة الفســـق والفجور •

سمع أعماقه تصرخ من أنا • ماذا أريد • أن ما دعانى ابنى اليه حسن انتهى الى القتل وما تدعونى اليك تلك المرأة سينتهى بى الى الضياع • ولو مشيت حتى البوابة فسألقى



بنفسى فى غياهب دنيا لم أعــد اطيقها ، ولو صــعدت الى تلك الشرفة فسألقى بنفسى فى غياهب امرأة هى الشيطان •

وانتفض على صوت يقول فى الظلام :

ـ أهلا •• اهلا •• أهلا •

تلفت حوله فلم ير أحدا ، ولكن الصوت استمر يقول :

لماذا أنت واقف عندك ‥ تعال فأنا أريد أن أتحدث معك ‥ تبين ان الصوت يأتى من خلف حاجز شجيرات كثيفة بطول قامته ، ورأى فتحة فى الحاجز على شكل باب صغير من فروع الاشجار . وكان الصوت مازال يناديه :

ـ ادخل ‥ بعد دقائق سأكون معك .

تقدم من العتمة ، فرأى ملعبا وكان ميرزا الفلكى واقفا داخل الملعب يبتسم له . ما كاد يراه حتى هز رأسه المربع ذا القسمات الصارمة مرددا :

ـ أهلا ‥ أهلا ‥ أهلا ‥ نحن فى نهاية المباراة ‥ اشهد هزيمة كوستا وسألحق بك حالا .

كان كوستا ممسكا بالمطرقة الخشبية بين ساقيه ، وقد أحنى رأسه ، وأمامه على الحشيش كرة صفراء ، وظل جامدا فى وقفته ، ثم ضرب الكرة الصفراء بالمطرقة بعد أن حركها كالبندول بين ساقيه ، فاندفعت الكرة بقوة مسافة عشرة أمتار أو أكثر واصطدمت بكرة زرقاء فاطاحت بها بعيدا .

ورفع كوستا رأسه مهللا بالفرنسية :

ـ لايوجد الا كوستا واحد فى هذا العالم .

تحرك ميرزا الفلكى ببطء نحو الكرة الزرقاء التى اختفت فى الطرف الآخر من الملعب . كان منظره عجيبا وهو يلعب بملابسه كاملة ‥ المعطف والكوفية وغطاء الفراء فوق رأسه . وانتهز يوسف الفرصة ليرتب أفكاره ، ووجد نفسه

يقول : الخطر الحقيقى فى أنى مازلت أفكر . لقد جئت الى هذا المكان لأتخلص من أفكارى ، لأترك نفسى على سجيتها ، لأتحرر من هذه الأفكار التى تتربص بى وتتحين الفرصة لتحاصرنى وتخنقنى ، سأستسلم بعض الوقت لهذا الرجل الذى يريد أن يحدثنى . وبعد ذلك فليحدث ما يحدث . ورفع رأسه محاولا أن ينظر خلسة الى المرأة فى الشرفة فلم يجدها . أتكون قد غضبت منه عندما رأته يدخل الملعب ولا يسارع بالصعود اليها ؟ أم هى تنتظره بالداخل ؟ ولو كانت قد ذهبت فليبحث عنها ، ويعتذر لها . أو يطلب منها أن تعود له . ترى كيف يكون اللقاء بينه وبينها لقاء رجل وامرأة : سيخيب ظنها ، ولكنها وعدته بقراءة رجوع الشيخ الى صباه معه . ولابد أنها مدربة على الحالات الصعبة مثل حالته ، انه مهما اشتط به الخيال لا يستطيع ان يحصر احتمالات ما قد يحدث فى مقابلة من هذا النوع . لعله يعود الى صباه . لعله يتعلم منها فنونا ويتذوق معها الوانا من اللذة والمتعة لم يحلم بها لأنه يجهلها . أتكون تلك المرأة مجنونة ، أم هى تخدعه ، أو تدبر له مكيدة لا يعلمها ؟ ان ضحكاتها الهمجية البدائية لا تدل على أنها من النوع الذى يدبر المكائد ومع ذلك ما الضمان ؟ الاحتمالات قائمة والمجازفة قائمة فى كل الاحوال . ولا سبيل الى فض هذا الطنين فى رأسه الا بقبول المجازفة . والا ظل يسأل نفسه ، من تكون هذه المرأة ، وما الذى كانت تريده ؟ وما الذى كانت ستفعله معه ، أو كان سيفعله معها ؟

وقد يضطر الى أن يقلب الدنيا بحثا عنها ٠

انتبه على صياح ميرزا الفلكى ٠

ـ لن تهرب قبل أن أطلب الآيس كريم ٠٠

كان يخاطب كوستا وهما يتقدمان نحوه ، وقد فرغا من اللعب ، وسمع كوستا وهما يتقدمان نحوه ، وقد فرغا من اللعب ، وسمع كوستا يقول لميرزا الفلكى :

ـ ها هو النزيل الجديد ٠

وقف ميرزا ليتمكن من تثبيت غطاء الفراء على رأسه ٠ بينما قال كوستا ليوسف :

ـ أقدم لك ميرزا بك الفلكى ٠٠

قال ميرزا باسما أو ساخرا أو قاسيا :

ـ تعرفت به يا كوستا ٠٠

ودهش يوسف وهو يسمع ميرزا يكمل قائلا :

ـ أنا أعرفه من قبل أن يولد ٠

قال كوستا ساخرا :

ـ انت تعرف كل شىء يا ميرزا بك ٠٠

ثم التفت كوستا اليه يسأله :

ـ آسف يا سيدى ٠٠ ولكنى نسيت اسمك ٠٠ هل تسمح بأن تذكره لى مرة أخرى ، وثق انى لن أنساه بعد ذلك ابدا ٠

فقهقه ميرزا الفلكى وقال مزمجرا :

ياللخيبة ٠٠ تريد أن تعرفنى بـه ٠٠ وأنت لا تعـرف من هو ! ٠

كان يوسف يقول لنفسه وانا لا أعرف احدا منكمـا ٠٠ ولست ادرى كيف تدعى لنفسك انك تعرفنى قبل ان أولد ٠٠ هذه مبالغة سمجة ، وادعاء للمعرفة شديد الوقاحة ٠

وهمس يوسف لكوستا :

ـ يوسف منصور ٠

قال ميرزا :

ـ انه الاغريقى الوحيد هنا ٠٠ والذى سوف يقدم لثلاثتنا الآيس كريم بعد أن هزمته شر هزيمة ٠

قال كوستا منفعلا :

ـ الآيس كريم بكل سرور لمنصور بك ٠٠ اما لك أنت فبالسم الهارى ٠

هتف ميرزا وهو يمسك بذراع يوسف :

ـ انظر اليه كيف يستخدم تعبيرات اولاد البلد ٠٠ انـه اغريقى من الفجالة ٠٠ أما أبوه فكان فى الاسكندرية فى كرموز ٠٠ ولسوف أحكى لك قصته ٠٠

وقطع ميرزا كلامه فجأة ٠٠ ورفع بصره الى الشرفـة التى كانت تقف فيها المرأة ٠٠ وتبعه يوسف بنظراته وقلبه يخفق بشدة وصوب ميرزا عينيه الى يوسف وقال باسمـا بصوت عادى مشيرا باصبعه الى الشرفة :

ـ هل رأيتها ٠٠ كانت واقفة تنتظرك ٠٠

لابد أن وجهه قد أحمر أو أصفر ، ولم يعد واثقا أن قدميه ستتحملان جسمه ٠ وسمع وهو فى شبه غيبوبة من الذهول

كوستا هو يقول له بلهجة تحد غير مفهومة :
لا أحد يستطيع أن يتفوق على ··
قاطعه ميرزا هاتفا :
ـ فى الخيبة ··
فصاح كوستا منفعلا :

ـ انتظر ·· حتى انتهى من تصوير الفيلم معها ·· مدته ثلاث ساعات ونصف ·· سيكون اعظم فيلم فى العالم ·
قهقه ميرزا الفلكى وقال ليوسف وهو يقرصه فى ذراعه :

ـ لا تصدق هذا الاغريقى الأحمق ·· أنه يدعى أنـــــه سيصور فيلما من تلك الافلام الاباحية ·· التى انتشرت فى العالم وفى اشرطة الفيديو · قال كوستا باصرار :

ـ أنت تحسدنى ·· ولكنك سترى ·· عندما أعرض عليكم الفيلم ·

قاطعه ميرزا ونشوة سرور وسخرية تمرح فى قسمات وجهه دون أن تخفف من صرامتها :
ـ فى المشمش يا كوستا ·
سأله كوستا :
ـ ماذا تعنى فى المشمش ؟·
اهتز ميرزا الفلكى منتشيا وقال :
ـ آه ·· هذه لا تعرفها ·· أبوك كان يعرفها ··

وأعلن ميرزا أنه يرفض استمرار الحديث على هذا النحو ·· وأنه آن الأوان ليذهبوا الى البهو ويجلسوا فيه ليأكلوا الآيس كريم · وقال ليوسف وهو يغمز بعينه :
ـ لا تخف ·· انها تنتظرك ·
لم يستطع أن يجيبه بكلمة ·

واتجهوا الى المبنى الذى غادره يوسف وقد قرر ألا يعود اليه · كان يسأل نفسه : ترى ماذا يقول الرجل البدين الأصلع عند الاستقبال عندما يراه ؟ ولكن الرجل رآه وهو يدخل فلم يظهر أية علامة دهشة أو رغبة فى سؤاله اذا ما كان قد ألغى سفره أم أجله لبعض الوقت ·
وتركهما كوستا يجلسان بجوار أحد أعمدة البهو ، ليطلب الآيس كريم ·
وقال له ميرزا وهما يجلسان :

ـ كوستا هذا عقله خفيف ·· كلنا نقبله على علاته ··
وفجأة تغيرت لهجة ميرزا ، واكتست وجهه صرامة فوق صرامته وجعل يردد لنفسه كأنه يسترجع شيئا فى ذاكرته :
ـ يوسف منصور ·· يوسف منصور ·· مـــا الذى كنت تصنعه قبل حضورك ؟
قال مستسلما :
ـ كنت أكتب ·
سأله :

، تكتب ماذا :

قال وهو يشعر باختناق :

ـ كتب ·· مسلسلات تليفزيونية ··

سأله ميرزا بصوت رتيب وبالحاح رتيب :

ـ أية كتب ·· ما نوع الكتب ·

أجابه بصعوبة :

ـ روايات ··



ردد ميرزا :

ـ روايات ·· روايات ··

لم أقرأ لك ··

كيف عرفه ميرزا قبل أن يولد ، ومع ذلك لا يعرف شيئا عن كتبه ·· كان ميرزا يواجهه برأسه المربع وعينيه الفاحصتين ·· وسأله :

ـ هل سمعت اسمى من قبل ؟

خيل اليه فى هذه اللحظة انه لابد وان يكون سمع الاسم من

قبل ·· حاول أن يتذكر ·· ولكنه أسرع يقول متخلصا من مأزق الغموض الذى يخنقه ومعتمدا على احساسه الداخلى :

ـ أظن أنى سمعت بالاسم ··

قال ميرزا الفلكى :

ـ أنا واثق أنك سمعت باسمى ·· فقد ارتبط بأحداث هامة فى تاريخ البلد ·

وصمت ميرزا برهة ، متوقعا أن يسمع منه ما يؤكد له أنه يتذكر ما يتحدث عنه · ولكنه لم يطق صبرا · فانطلق يقول :

ـ ما من مصيبة وقعت الا وسبق أن حذرت من وقوعها ·· وسمعت أنه يزمع اعتقالى فسافرت ·· وسمع العالم صوتى ·· انه تاريخ طويل ·

وتوقف وصوب نظراته الفاحصة اليه وقال كأنه يسأل نفسه :

ـ كيف لم أقرأ لك ، مع أنى قارىء جيد ؟

ثم أجاب على سؤاله بنفسه :

ـ لابد أنك كنت تكتب فى تلك الأيام ·· فقد رفضت أن أقرأ اية كلمة يكتبها قلم خاضع لدكتاتور جبار مثله ·

انتبه على صوت كوستا يصيح غاضبا :

ـ آه ·· أنا لا أتحمل هذا الحديث ·· انه يثير اعصابى ويذكرنى بأسوأ أيام حياتى ·

قال ميرزا بصوت رتيب :

ـ يا اغريقى .. لا شأن لك بهذا الحديث .

فقال كوستا وكله انفعال وتحد ليوسف :

ـ هل كنت معه .. هل كنت من أتباعه .. قل بصراحة هل أنت ناصرى ..

شعر بخواء فى رأسه . انهم يرغمونه على أن يتذكر . وهو لا يستطيع أن يتذكر . أو لا يريد أن يتذكر .. الخطـــر يداهمه مرة أخرى . الخطر فى الجنس .. الخطر فى الدين .. الخطر فى السياسة .. كلها اخطار لها مخالب وأنياب تنهش وتفترس .

لابد أن علامات خوف أو ارتباك أو قلق قد ظهرت على وجهه . لابد أنه تململ وشحب وجهه . ولابد أن ميرزا قـــد أدرك أنه يعانى ويتألم فقد سمعه يقول لكوستا :

ـ كفى .. انه لن يناقش هذا الموضوع معك .

وسمع كوستا يقول محتجا : لا يدرى اذا كان يوجـــه الحديث لميرزا أو له ، فقد كان لا يقوى على مواجهته بعينيه :

ـ لماذا لا يناقش .. لماذا لا يتكلم .. أهو خائف ؟

ورفع كوستا صوته :

ـ اذا كنت خائفا فأنت لن تفلح فى شىء .. ألم أقل لك أنى الوحيد الذى يستطيع أن يحوز على اعجاب سوزان .

ثم أردف :

ـ تلك التى تقـول ان اسمها ليلى أو عايدة ..

وجد نفسه يقول بصعوبة :

ـ أنا مرهق .. وهذا أول يوم لى هنا .. وأجد صعوبة بالغة فى تذكر الأشياء .

ورفع رأسه ، كان وجه ميرزا مفعما بفرح خبيث أو هكذا خيل اليه ، أما كوستا فقد ارتسمت على وجهه علامات اشفاق وحنان ، وهمس :

ـ آسف .. انى أفهم شعورك .. كلنا مررنا بهذه التجربة .. والا ما كنا جئنا الى هنا .. أكرر لك أســفى .. كان يجب أن أفهم أن مجرد حضورك الى هنا يعنى أنك تريد أن تنجو .

رفع ميرزا صوته :

ـ حاولت أن أنبهك يا كوستا .. ولكنك أحمق مندفع .

قال كوستا متعذرا :

ـ أكرر أسفى ..

قال ميرزا :

ـ على العموم .. لقد شاركتك فى نفس الخطأ .. اننـــا ننسى بسرعة كيف جئنا .. وكيف كان حالنا فى أيامنا الأولى .

وانقذ الموقف وصـــول الخادم الآســـيوى ومعه كئوس الآيس كريم ، أقبلوا عليها ثلاثتهم فى نهم .. وكان كوســـــتا أسرعهم فى ابتلاع كأسه . فنهض مستأذنا فى الانصراف بعد أن قال ليوسف :

ـ أنت جديد ·· وانصحك بالراحة الكاملة ·· قبل أن تختار ··

وانحنى قائلا :

ـ بونسوار ·

وبقى هو وميرزا وحدهما ، بينهما صمت وخواء · بعد برهة تململ ميرزا وشرع يتحدث معه عن المكان ، ساله هل قابل أحدا ، فلما سمع اسم الأستاذ كريم شاكر هز رأسه كأنه يرفض أن يسمع الاســم · وقال انه رجل له تاريخ طويل ، ولا داعى لأن يرويه الآن · فهويحتاج لبعض الوقت قبل أن يفهم حقيقة كريم شاكر · ولكن قد ياتى يوم ليس بالبعيد يبوح له فيه بما يعرفه عن هذا الاستاذ · كان ميرزا يقول له بطريقة غير مباشرة أنه سيضعه فترة تحت الاختبار قبل أن يطلعه على أسراره ، وعليه أن يقرر بينه وبين نفسه اذا ما كان يريد أن ينجح فى الاختبار ويطلع على الاسرار ، أو يســقط فى الاختبار فلا يطلعه ميرزا على الخبايا التى يعرفها ·

وهنا أوشك يوسف أن يتذكر أنه قابل أو سمع فى وقت ما اسم ميرزا الفلكى · وعجب لأنه خيل اليه أنه قرأ رثاء أو نعيا له فى الصحف ، وطبعا هذا مستحيل ، فالرجل أمامه بلحمه ودمه · فلابد أن يطرد هذا الخاطر الذى يدل على أن افكاره مشوشة الى درجة كبيرة وانه أصبح لا يستطيع أن يعتمد على

ما فى رأسه من صور غير محددة · وحتى هذا الامتحان الذى يتوهم أن ميرزا يورطه فيه ليس الا خاطرا غير واضح · والا كان عرف شروط هذا الامتحان وألوان السلوك التى يرضى عنها ميرزا قبل أن يجعله شريكا لأسراره · أى امتحان وأية شروط وأية أسئلة وأية اجابات · أنه عاجز تماما عن المضى فى مواجهة أى شىء ، ويزيد من عجزه هذا الاتهام الصريح الذى وجهه اليه كوستا بانه جبان ·

قبل أن تكتمل صياغة الجملة فى رأسه أو فى صدره وجد نفسه يسأل ميرزا :

ـ ما الذى تعرفه عن تلك المرأة التى كانت فى شرفـــة حجـــرتى ؟

قال ميرزا وهو يمد يده ويضع كفه على ركبته ويقرصــه قائلا مقتربا برأسه المربع الصارم القسمات :

ـ هذه عاهرة ·

وعاد ميرزا يقرصه من جديد فى ركبته مرددا :

ـ عاهرة بالثلث ·· على استعداد لتقديم خدماتهـــا للجميع ·

وانطلق ميرزا يحدثه وقد اختفت الرتابة من صوته قائلا : ان هذه الشقراء ذات العينين الخضراوتين امرأة فى الخامسة والأربعين ، وربما جــاوزت هذه السن وهو لا يفشى سرا ، ولا يغتــابها ·

وضحك ميرزا ومد يده الى غطاء رأسه وأزاحه الى الخلف ليكشف عن مقدمة صلعة لامعة ٠ وقال انه عرفها باســـم كاميليا ، وهناك من يعرفها باسم ليلى ٠ وأسماؤها كثيرة ، وهى تختارها كما تختار لون فستانها لتصنع جوا معينـــا للزبون ٠ ولسوف تشكره كاميليا على أنه تحدث عنها معه ٠ فبالنسبة لها مثل هذا الحديث هو دعاية لنشاطها الذى تسعى لتعميمه ٠ والنزلاء طبعا لا ينادونها بلقب العاهرة أو يتعاملون معها بهذه الصفة ٠ ان الجميع يقبلون منها الصور والمواقف التى تقدمها لهم وهم فى نفس الوقت حريصون على الاحتفاظ بالمظاهر بمعنى معاملتها كامرأة ٠٠ ماذا يقول ٠٠

وقطع ميرزا استرساله ليسأل اذا كان يوافق على تشبيهها بموظفة تؤدى خدمة ، أو أنها ذات نفع عام ، أو هى مرفق يلبى الاحتياجات الضرورية التى لا غنى عنها بالنسبة للنزلاء بين وقت وآخر ٠ انها اذا نظرنا اليها من وجهة النظر هذه فلابد ان نعترف بأنها تؤدى عملها بكفاءة واتقان مع أن مهمتها صعبة للغاية ٠ وهى تطوير لصناعة الجيشا اليابانية ، ولكنه تطوير هائل يتمشى مع التغيرات الهائلة التى شهدها عصرنا ، ونجاح هذا التطوير لا يدركه الا الذين يلاحظون ان النزلاء أغلبهم شخصيات غير عادية وحضورهم الى هذا المكان يعنى انهم مروا بظروف غير عادية وتركوا وراءهم حياة كاملة ٠ كانت تتوافر فيها متطلبـــاتهم المتعـــددة المتنوعـــة والتى تختلف من نزيل الى آخر ٠

وفجأة قال له ميرزا الفلكى :

ـ انها قادرة أحيانا على أن تقوم بدور الأم أو الممرضة أو الشقيقة أو البنت ٠٠ فدور العشيقة هو أحد أدوارها ٠

وقال ميرزا وهو يهبط بكفه على ركبته يوقظه او يستحثه على الانتباه :

ـ انها قادرة على أن تذكرك بكوثر هانم ٠٠

سأله يوسف فى غير فهم :

ـ كوثر هانم ، من ؟

قال ميرزاوابتسامة صارمة تشق وجهه كسكين حاد :

ـ السيدة والدتك ٠٠ هل نسيت اسمها ٠٠

ولابد ان ميرزا لاحظ شيئا غير عادى قد حدث له ٠ لابد أنه رأى حبات العرق البارد تتصبب بغزارة من جبينه ٠ فقد قطع كلامه هامسا ، أو لعله سمع صوته بصـــعوبة كان ميرزا يهمس :

ـ سأذهب بك الى حجرتك ٠٠

وسمع يوسف نفسه كأنها تردد : كوثر هانم ٠٠ نعم ٠٠ انها امى ٠٠

وسمع ميرزا يقول له :

ـ هل أنت قادر على النهوض ٠٠ أم تريد مساعدة ٠٠ أرجوك لا تتردد ولا تخجل من طلب مثل هذه المساعدة ٠٠ انهم مستعدون تماما لمثل هذه الحالات ٠

همس ·· ولعله كان يحاول ان ينهض :

ـ أرجوك أريد أن أسمع منك ··

وسمع ميرزا يقول :

ـ أواثق أنت أنك تستطيع ··

ثم سمع كأنه يقول له :

ـ رقم حجرتك ··

وحاول أن يقول شيئا ·· والعرق الغزير يتدفق من عموده الفقرى ··

ورأى ميرزا الفلكى يرتفع فى الهواء وأظلمت عيناه ··

عندما فتح عينيه رأى وجها غريبا يطل عليه ·· أين رأى هذا الوجه ، واصطدمت نظراته بوجه الشقراء · ليلى أو كاميليا ، أو سوزان ، كانت الأسماء تدوى فى رأسه ، حتى انفجر اسم كوثر فارتجف وظن أن امه هى التى تتحسسه ولكن الشقراء كانت تقف خلف صاحب الوجه الغريب ، وتبين أنه راقد فى فراشه يرتدى بيجامته وأن أصابع الرجل الغريب هى التى تتحسس جبينه · انه رأى هذه الأصابع من قبل · نعم انها نفس الأصابع المرهفة التى كانت تعبث بحجارة الدومينو ، والتى كانت تتحسس آدم ريشفسكى عندما حملوه الى الصالون · وسمع الشقراء تقول باسمة :

ـ أنت بخير يا استاذ ·

وسمع صوت الرجل ذى الأصابع المرهفة والذى حاول عبثا ان يتذكر اسمه يتكلم فى برود وملل :

ـ لن يحدث لك أسوأ مما حدث ·· فاطمئن ··

انتبه الى جسده ، بطنه تتنفس ، اصابع قدميه تتحرك ، ركبتاه قادرتان على الانثناء ·· وسمع صوت الرجل :

ـ لا تحاول النهوض الآن ·· أنت جديد ولم تتعود بعد ·· فلا داعى لأن ترهق جسمك ·· لقد أعطيتك منوما وعندما تستيقظ سيكون كل شىء على ما يرام ·

قالت الشقراء باسمه فى دلال :

ـ اذا أردت بقيت معك ··

ضحك الرجل وقال رافعا أصابعه المرهفة :

ـ لا فائدة من بقائك معه ·· سوف ينام ملء جفنيه ·

قالت الشقراء ضاحكة :

ـ قد يحتاج الى فى أحلامه ·

فاستدار الرجل اليها وضربها بكفه على عجزها قائلا :

ـ هيا من هنا ··

ثم التفت اليه وقد اتسعت ابتسامته وقال :

ـ لو كنت تلعب الدومينو لوفرت وقتا يضيع هباء ··

قال هامسا :

ـ ولكن هذا المنوم ··

قال الرجل بسرعة :

ـ انه منوم خفيف ·

قال وخوفه يزداد :

ـ لقد أفقت بالكاد من النوم الآخر ·

قال الرجل :

ـ أعرف ·· ولكنك فى حاجة الى راحة طويلة ··

قال والخوف يضيق خناقه عليه :

ـ أخشى أن تستمر هذه الحال ·

قال الرجل محتجا :

ـ طالما لا تنضم الينا ·· ستعذب نفسك بلا مبرر ·· ان كل مهمتى هى أن أوفر عليك بعض هذا العذاب ·· عندما تستيقظ ·· أترك كل شىء وأذهب فورا الى قاعة الدومينو ·

قالت الشقراء محتجة :

ـ لن يذهب ·· انه لى ··

قال الرجل مداعبا :

ـ لا أحد يستطيع أن يستمر معك ·· الا اذا أراد أن يطيل فترة العذاب ·

وعاد يمد أصابعه المرهفة وأمسك بيده وضغط عليها برفق قائلا بصوت أقرب الى أن يكون صوتا حنونا :

ـ انى أعرف شعورك تماما ·· ولا معنى لمخاوفك ·· فأنت هنا · أى أنك اجتزت أى خطر وعبرت كل ما يدعو الى

الخوف ·· ولسوف تتبين هذا بالتدريج وعندئذ لن تكون فى حاجة الى منوم ··

همس :

ـ كنت أريد العودة ··

قال الرجل :

ـ عندما تفيق ·· اذهب حيث شئت ··

واقتربت منه الشقراء وهبطت بيدها على رأسه تمسح شعره قائلة :

ـ ثق أن هذه هى آخر مرة تستعمل فيها المنوم ·

فصاح الرجل مقهقها كأنه سمع دعابة :

ـ انها سوف تدعوك للنوم على طريقتها ··

فهتفت الشقراء :

ـ أنا أحاول أن أبقى عليه قبل أن يتحول مثلكم الى حجارة دومينو ··

فعاد الرجل يضربها على عجزها ، ودفع بها خارج الحجرة ، وخرج وراءها · أطال النظر الى الباب الذى خرجنا منه · كان مازال يشعر بوجودها معه · ويبدأ يغفو · ولكن قبل أن يدخل مملكة النوم ويستسلم لسلطانه · فتح الباب · ورأى رجلين يتقدمان منه · كأنهما نفس الرجلين اللذين دخلا عليه حجرته فى زيوريخ ليلة سفره ·· وحملاه ووضعاه فوق محفة · وسارا به خارجين من الحجرة · وقطعا دهاليز ،

ودخلا من أبواب · وكل باب يدخلان منه يتوقفان ليديرا مفتاحا فى ثقب الباب يوصدانه · حتى وصلا الى حجرة مظلمة ، مكان لا بصيص لنور فيه · ووضعاه وهو فوق المحفة وسط الظلام وسمع صوت أقدامهم يخرجان وصوت المفتاح فى ثقب باب يغلقانه :

وخطر له أنه سمع من قبل عن مصحات تعالج حالات الاكتئاب بحبس المرضى فى حجرات مغلقة حيث يتولى المنوم تخديرهم لفترات طويلة يستريح فيها الجسد راحة كاملة قبل ان يستيقظ المريض وقد استعاد كل حيويته ونشاطه لعل هناك أملا · هكذا قال لنفسه وسط الظلام الدامس ، وراح فى سبات عميق ·

خيـــل لـــه

أنه استيقظ فى فترات متقطعة ، وما يكاد يتبين الظلام المحيط به حتى يغيب عن وعيه من جديد ، كان كل ما يستطيع أن يدركه فى لحظات التنبيه أنه قادم من هناك ، دون تحديد لمكان ، وقد تطوف بمخيلته مشاهد أشبه بالأحلام · يرى نفسه وهو يدخل مبنى التليفزيون مع الممثل أحمد علوى ، يحمل لفافة كبيرة بها أرغفة محشوة بالكباب ، لعل وعسى عملية المونتاج لمسلسل تجربة حب لا تنتهى بتمزيق أوصال الحلقة الاولى التى ستعرض غدا ·

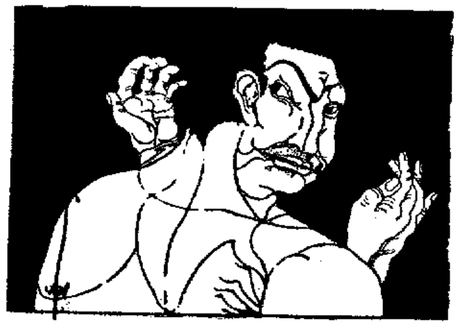
أحمد علوى خائف أن يمس أحد مشهدا من مشاهده ، هو الذى اشترى الكباب ، والأوراق المالية من فئة الخمسة الجنيهات تخرج من جيبه كأنها شلنات ، انه مصمم على أن يحافظ على مركزه كنجم كبير بأى ثمن · أما هو الأستاذ المؤلف فعليه أن يحمل الكباب ، وأن يبتسم ويجامل وينافق وأن يحرص على راحة أحمد علوى الذى سينتج المسلسل القادم « فترة من حياة امرأة » ويرى أحمد علوى ثائرا يصرخ فى وجهه :

ـ تصرف يا أستاذ ·· اتصل بالمسئولين ·· العمال

قطعوا الكهرباء عن الاستديو وأنت ساكت ••

كان عليه أن يهرول ويتوسل فهذه أول تجربة له فى التليفزيون وينقطع المشهد وتنفصل المشاهد عن رأسه ، ويغرق فى لا وعى الظلام ولا يعلم متى يفتح عينيه مرة أخرى ليرى زينب ويسمعها تصرخ فى الساعات الأولى من الصباح •• أنت لست رجلا •• ضاع عمرى معك •• ويسمعها تردد : أنت كريه •• أنت منفر •• أنت فاشل •

ويرى تلك اللحظة التى خيل اليه أنه اقتحم فيها كل العقبات بعد جهاد مضن اصطنع فيه المعرفة ، وروض ارادته على الصمود • وقد ضمخ جسده بالعطر واستجمع فى قلبه كل ما لديه من أمل فى الحياة وكل ما عرفه من طموح وكل ما فى عقله من قدرة على التدبير وكل ما فى حواسه من استعداد للتذوق ، وكل ما فى وعيه من رقابة وسيطرة واتزان • ويرى



وهو يتشبث بنظرة فى عينيها اعترافا خافتا ويسمع همسة مترددة تخرج من شفتيها • ثم يرى هذا الذى صنعه ينهار فى التجربة التالية لأنه لابد من تجربة تالية ، لابد من التكرار • لابد أن يسقط فيما يؤلمه • ويسمع من جديد الاتهام •• انه اضاع عمرها •• انه لم يقدم لها سوى الملل والسأم •• عليه أن يكشف عن سره ويعترف بأنه تزوجها لينتقم •• وتصرخ زينب ممن تريد أن تنتقم •• ولا يجيب ، اذ تتقطع الصور والمشاهد ويسقط فى الظلام • حتى يفتح عينيه على مشهد آخر فيرى جابى فى ملابس مارى انطوانيت وهو فى ملابس لويس السادس عشر يرقصان فى الحفل التنكرى فى الاريزونا والملك فاروق يتصدر المائدة الأولى من حوله حاشيته ، رجاله ونساؤه • وجابى تهمس اليه :

ـ اقترب من الملك •

وتوسلت :

ـ اريد أن آراه •

كانت لها عينان سوداوتان واسعتان ، ولكنها كانت مصابة بقصر نظر شديد • يضفى على نظراتها لونا من الدهشة والتأمل فى المجهول • كانت الموسيقى تعزف « نهارا وليلا » لكول بورتر • ورأى بطرف عينيه الملك وهو يتابعهما بنظراته • هل أعجبته الملابس التى استأجرها من مسرح « الكسار » أم أعجبته « جابى » التى اقتربت منه ومع ذلك تهمس غاضبة فى انفعال :

ـ انى لا آراه ..

قال لها :

ـ هل نحضر النظارة من حقيبتك .

ضحكت قائلة :

ـ فكـــرة .

ومطت شفتيها وهمست :

ـ الرقص أحسن حتى لا يخرجونا من المسابقة .

وعادت تقول منتشية بالرقص وقد قررت التخلى عن رغبتها الاقتراب من الملك :

ـ الليلة أنت مليكى .

وقال لها :

ـ وأنت ملكتى .

فضحكت ضحكة عالية لابد أن الملك سـمعها ، هكذا خيل اليه فى تلك اللحظة ولكنه بكل تاكيد لم يسمعها وهى تقول :

ـ لا تنس أن مصيرنا كان المقصلة .

ورأى الصينية الفضية الكبيرة المليئة بالشيكولاته والملبس ملفوفة بالورق السـوليفان وشريطا احمر ومدير الأريزونا يقدمها لها كجائزة أولى لأحسن زوجين فى الحفل التنكرى .. الكـل كان يصـفق ، وفاروق يقهقـه . وهو وجابى ينحنيان ومارش البحرية الأمريكيـة يعزف خلفهمـا ، وجابى فرحـة سعيدة تطير فى الهواء رغم ثقل الصينية وتحذره ان يمسكها

لأنها تعرف انه لا يستطيع مقاومة فض السـوليفان والتهام الشيكولاتة فى الحال .

كانت بسمة منعشة تجتاحه ، شعر أنه يوشك أن يستيقظ . وأن يخرج من هذا الظلام المحيط ، عندما خطر له أنه رأى آدم ريشفسكى بين رجال حاشية الملك فاروق التى كانت ملتفة حوله ليلة الحفل التنكرى . وغاب عن وعيه وسقط فى الظلام .

وجاء مشهد قصاصة الورق التى تحمل تحذير عصابة اليد السوداء كان سكينا حادا يشق راسه فيرى امه وهو يواجهها بالقصاصة ويسالها هل ما جاء بها صحيح ولم يحتمل الألم فغاب عن وعيه أو أغمى عليه، مشاهد وصور لا حصر لها تشق الظلام كضوء البرق وتختفى ، حتى جاء ذلك اليوم الذى أفاق فيه على ضوء الصباح يتسلل من فجوة فى سـتارة الشرفة بحجرته ، وتلفت حوله فى دهشة . ما هذا السرير ، وما هذا السقف وهذه الستائر ، وفى لحظات عادت اليه ذاكرته كاملة تتدفق كسـيل جارف ، فنهض واثبا من السرير ، ودار حول نفسه فى الحجرة . ثم ارتمى على حافة السرير ، والقى برأسه بين كفيه . انه يذكر كل شئ ينكر حياته كلها ماعدا ليلة الأمس بقيت منها صـور غامضة مشـتتة ممزقة تتداعى كأنها بقايا كابوس ، صور وجوه وكرات ملونة تضربها مطارق خشبية ، ووجه آسيوى . وغطاء رأس من الفراء ، واغريقى . اسـمه كوستا وامرأة شقراء كانت هنا فى هذه الحجرة ، نعم كانت

تقف هنا بجوار السرير ، وكان معها ذلك الرجل ·· لقد أصيب باغماء ونقلوه الى مكان مظلم أو لعله كان يحلم بذلك ، لا فائدة من مواصلة محاولة التذكر ·· انه الآن قادر على الحركة ، نهض وذهب الى الحمام ، سوف يستحم ويحلق ذقنه ، ويطلب الافطار فى حجرته ، وبعد ذلك سيواجه كل شىء ·

نظر الى صحن البيض المقلى الذى فرغ من التهامه ، وابتلع الرشفة الأخيرة من فنجان كبير من القهوة باللبن ، وخرج الى الشرفة يستنشق الهواء ، كان رجلان يلعبان الكروكيه بأحد الملاعب · انه يعرفهما · ميرزا الفلكى وكوستا · بينما انشغل عاملان فى رش الملعب الثانى بخرطوم يتدفق منه الماء · وكان عامل آخر يثبت الأقواس الحديدية فى الملعب الثالث ، لا وقت للفرجة · لابد أن يتحرك · كان ميرزا مازال يرتدى المعطف وغطاء فراء فوق رأسه ، وكان ممسكا المطرقة الخشبية بين ساقيه المنفرجتين وضرب كرة سوداء نفذت من قوس أمامها ، ورفع كوستا يده فى الهواء واتجه الى كرة صفراء وضربها بسرعة فى اتجاه قوس آخر · أيتعلم هذه اللعبة ، أم يتعلم الدومينو ؟

وجد نفسه يبتسم ثم يقهقه بصوت خافت ، هذه أول مرة منذ زمن طويل يسمع فيها قهقهته ، انه لأمر مضحك بكل تأكيد ، ما هذا الخيار الدرامى العظيم الحاسم الذى يعرضونه عليه

فى هذا المكان الدومينو أو الكروكيه كأن الخيار بين الشرف والواجب ، بين حب كبير لامرأة وحب للوطن · حقا انهم يعيشون هنا فى مكان للهو ، ثم هناك ذلك الخيار الثالث المطروح أمامه أن يقضى أيامه يتدرب على ممارسة الغريزة مع تلك المرأة الشقراء ·

اندفع خارجا من الحجرة ، وهبط على السلم ، كان يشعر بحيوية ونشاط لا يريد أن يحبسهما فى المصعد ولو لبضع ثوان · قدماه تتحركان بكل ما لديه من قوة وتصميم وقد تذكر فجأة صوت ذلك الطبيب ذى الأصابع المرهفة وهو يطلب منه أن يلحق به فى قاعة الدومينو بمجرد أن يستيقظ · نعم سيكون هو أول من يلجأ اليه ويتحدث معه · انه طبيب بارع أعاد اليه حيوية لم يتمتع بها منذ سنوات أعاد اليه مرحا وضحكات ضاعت منه منذ زمن بعيد ، كان رجلا عجيبا واثقا من نفسه ، انه يتذكر كيف ضرب الشقراء على عجزها كأنه يمتلكها ، وكانت مستسلمة له ، لن يتوقف فى سيره ولن يلتفت برأسه ليرى ما حوله · الطبيب أولا · ولسوف يجده خلف هذا الباب · باب قاعة الدومينو · وفتح الباب واقتحم الحجرة · ووجد الطبيب أمامه كأنهما على ميعاد · تذكر وهو يقترب منه أن اسمه المازنى · نعم بالأمس كان رأفت الحلوانى المحامى يقول مستحيل أن ألعب مع المازنى · وها هو المازنى يجلس على نفس مقعد الأمس ، ظهره للباب وللحجرة · وأمامه المنضدة الخضراء · وقبالته يجلس خليل ومن خلف خليل

الجدار · كانا وحدهما فى الحجرة واصبح ثالثهما · وها هو يقف بجوار المازنى فلا ينتبه اليه · ولا ينتبه خليل اليه · كانا غارقين فى صمت ، وحجــارة الدومينو بين أيديهم · وهمس وقد شعر برهبة :

ـ السلام عليكم ·

فلم يسمع ردا للتحية ، المازنى مستغرق فى التفكير وجهه مرهق ، وجه طويل شاحب ، شـــعره أسود اكرت اشـعث · خليل يحدق فى اصابع المازنى القابضة على الحجارة ، كانه يحـاول قراءتهـا مخترقا بنظراته الاصـابع وظهر الحجارة الأبيض الأملس ·

ســأل نفســه : ماذا أصــنع الآن ، لقد وصـل الى المازنى باندفاع كبير ·· حمل معه طاقات جديدة وآمالا جــديدة · ومرحا وتفاؤلا ، وها هو يتجمد امام هذا الصمت الثقيل الذى يرفض الترحيب به أو مجرد الاعتراف به ، حتى خليل الذى كان لا يكف عن الغناء · يا اهبل من عليها ·· يا احمق من عليها ·· صـامت جامد لا فرق بينه وبين حجارة الدومينو التى يمسك بها ·

مد يده ليهز كتف المازنى ، ولكن يده وصلت الى مسند مقعد فجذبه وجلس عليه بجوار المازنى وهو يكرر :

ـ السلام عليكم ·

لم يرد المازنى · وافاق خليـل من نظراته المركزة ، التفت

العيون ، عينا خليل رماديتان ، وجهه ابيض شمعى ، صوته صليل حديد ، وهو يهتف بحماس مصطنع ، وابتسامة محاصرة بشفتين متصلبتين :

ـ اهلا بالبروفسير العظيم ·

منحه لقب بروفسير ثم حول نظراته عنه · وهنـا امتدت يد المازنى بحجر دومينو وأضافه للحجارة المكشوفة المرصوصة على المنضدة الخضراء · وبسرعة ضرب خليل المائدة بحجر فى يده هاتفا بانفعال مكتوم :

ـ اربعـــة ·

وامتدت يد خليل الى قلم وسجل على ورق مكسبه ، بينما نظر اليه المازنى لأول مرة وكانه لا يراه ، وقال له ، أو لعله كان يخاطب نفسه ، ولعله كان لا يراه على الاطلاق :

ـ كان لابد أن يكتب اربعة ·

صاح خليل والانفعال يبدو غريبا فى وجهه الشمعى وعينيه الرماديتين :

ـ ولو لعبت الدرجى ·· كنت كتبت ستة ·

همس المازنى :

ـ حظ عوالم ·

صاح خليل بقسوة :

ـ اتشكو كالنسوان ·· العب ··

قرر أن يتدخل ·· قال للمازنى :

ـ جئت اشكر لك ··

لم يسمعه المازنى ·· او رفض أن يسمعه ·

ولكنه صمم على أن يستمر · كان لابد أن يحدثه · لابد أن يبذل جهدا من أجل الاحتفاظ بصـــلته بالرجل الذى اعاد له حيويته :

ـ ترى هل أستطيع أن أتحدث معك خمس دقائق ··

وسمع خليل يصرخ ، بينما المازنى مشغول ، كانه لم يسمع كلمة مما قال · انفجر خليل :

ـ يا اهبل من عليها ترلم ترلم ·· هذا وقت الكـــلام ·· ألا ترى ما نحن فيه ؟ ·

وشعر بيد تربت على كتفه ·· فاستدار يحمى نفســـه من هجوم مفاجىء · فراى اللواء الحوت يطل عليه بابتســامته المنفرجة بعرض وجهه · وعيناه الزجاجيتان تلمعان · واشار اليه بإصبعه أن يتبعه · كانت اشـــارة آمرة · وكان لابد أن يتبعه ، وصـــحبه الحوت الى مائدة بعيدة · وطلب منه أن يجلس · فلما استقرا ، همس الحوت بصوت شديد النعومة :

ـ اســمح لى ·· لا تؤاخذنى ·· هنا تقاليد مرعية ·· أرجوك لا تنزعج ·· ولا تظن سوءا بخليل · ولكن لا يصح ابدا أن تشغل اللاعبين لأى سبب اثناء اللعب ·

قال مرتبكا :

ـ آسف ·· لم أكن اتصور ·

فقاطعه الحوت بصوت ناعم صـــارم · النعومة فى طبقة الصوت · والصرامة فى زجاج العينين ·

ـ لا تتصور أى شىء يا أستاذ ··

وسمع خليل يهتف شاكيا :

ـ الحقيقة يا اســتاذ ·· كيف تترك اخوانك يحدث لهم ما حدث ·· وكأنك غير موجود ؟

كان كريم شاكر قد دخل الحجرة ·· واستمع الى شكوى خليل باهتمام بالغ · والدخـان يندفع بشـــدة من فمه ومن غليونه · وسأل وقد ضاقت عيناه :

ـ ماذا حدث ؟

صاح خليل محتجا :

ـ انظـر فى أمـــر هؤلاء الغرباء الذين يأتون من حيث لا ندرى ·· وينحلون وبرنا ، النحل هبط علينا يا أستاذ ·

هز كريم شاكر رأسه بوقار وقال :

ـ فهمت ·· سأتصرف يا خليل ·

صاح خليل :

ـ نحل ·· يا أستاذ ·

رأى الحوت يغمز له باسما ويقول :

ـ يبدو أن خليل يخسر ·· فهو يظن أن مجيئك أصـــابه بنحس ·

ارتبك وهو يســـتمع الى شرح الحوت ، أن « نحل » هى

« تحس » وشعر أن الحوت كان قاسيا ، كان يفضل الا يسمع التفسير ، فما شتمك الا من بلغك ·

واقترب منه كريم شاكر قائلا بصوت خفيض :

ـ معذرة يا استاذ يوسف ·· لقد مضى وقت طويل منذ رأيتك آخر مرة ·· وكنت أتوقع أن اشرح لك بعض التقاليد التى نراعيها فى هذا المكان ·· ولكنك اختفيت ·

سمع فى غباء وقت طويل ·· ترى كم من الوقت ، سال بسرعة :

ـ كم مضى من الوقت ؟

هز الأستاذ كريم شاكر كتفه بغير مبالاة :

ـ لا ادرى ·

فهمس وقد استولى عليه القلق :

ـ أيام ·· أسابيع ·· اريد أن اعرف ·

قال كريم شاكر بوقار اضاف اليه لهجة ساخرة يحاول ان يخفيها :

ـ هذه اسئلة لا نعرف الاجابة عليها فى هذا المكان ·· انها تفسد الأجازة ·· وتفسد الراحة ·· وتعطل الوصول الى الهدف ·

همس :

ـ لا افهم ·· اى هدف ·

قال كريم شاكر وقد اتسعت ابتسامته :

ـ ان تنضم الينا وتلعب الدومينو ·

رفع صوته منفعلا :

ـ ليس هذا هو هدف الحياة يا استاذ ·

رفع كريم شاكر قامته · كم يبغض هذا الرجل ·· كم ينفر من هذا الغليون الذى ينتصب فى فمه مظهرا عجزا لا قوة ·

كان كريم شاكر يقول بلهجة كلها عجرفة :

ـ أتظن أنك تستطيع تحقيق هدف آخر يا أستاذ ·· وفر الوقت الذى تضيعه ·· لا تتردد مثل اللواء الحوت ·

هنا تدخل اللواء الحوت ، ومد يده يربت على كتفه يدعوه الى الخروج من القاعة ، ويعتذر للأستاذ كريم شاكر قائلا :

ـ معذرة يا أستاذ ·· أريد أن أتفاهم مع الأستاذ يوسف منصور ·· هل تسمح لنا بالخروج لنتكلم بحريتنا حتى لا نزعج الاخوان ·

قال كريم شاكر :

ـ ولم لا تتحدثان فى الصالون ؟

قال الحوت :

ـ لعل الأستاذ يوسف فى حاجة الى المشى فى الهواء الطلق ·· لقد ظل راقدا وقتا طويلا ·

قال كريم شاكر مخاطبا يوسف :

ـ ستعرف يوما ما ·· انى لا أريد الا مصلحتك ·· وكل ما سوف تسمعه من اللواء الحـوت ·· ولا يؤدى الى عودتك الى هذه القاعة لا فائدة منه .. أعرف أنك لا تصدقنى ، ولكن اللواء الحوت نفسه بدأ يدرك هذه الحقيقة ·· أليس كذلك يا سـيادة اللواء ؟.

قال الحوت بسرعة وابتسـامة مجاملة تشـق وجهه نصـفين :

ـ بالطبع يا أستاذ ·

وخرج مع الحوت عبر الصالون ، وخليل يردد يا أهبـل من عليها ترلم ترلم ، فاستقبلهما ضـوء النهار مع نسـيم بارد ، وأسرع الحوت يغير مجرى الحديث ، فسـأله عن صحته ، وهل استراح بعد رقدته الطويلة ، ولم تتغير ابتسامة الحوت وهو يستمع اليه يبدى دهشته من عدم معرفة أحـد بمقاييس الوقت ، واكتفى بأن يردد :

ـ ثق انهم يقيسون الوقت ·

وفاجاه الحوت ، بسؤاله عن ليلى ، هل رآها ، لعل كان الأفضل أن يلتقى بها قبل أن يصل الى قاعة الدومينـو ، انها انسانة فى غاية الشهامة والمروءة ، كان يتحدث عنهـا باحترام وتبجيل ، انها صاحبة فضل على الجميع ، لولاها

لما كان لهذا المكان معنى ·

وتوقف الحوت وقد وصـلا فجأة الى نهـاية الملاعب ، واتجها فى سيرهما الى حشائش سوف تنتهى بالصـحراء أو بالارض التراب ·

وقال لـه :

ـ هذه البنت كنت أعرفها وهى فتاة صغيرة ·

وانطلق يروى له كيف كانت طالبة فى الجامعة لا تزيد على السابعة عشرة من عمرها ، كانت فتاة بمعنى الكلمـة ·· جميلة حقا ، وكانت شعلة من الحماس ، تقود المظاهرات فى الجامعة ، جريئة شجاعتها تفوق شجاعة عشرات الرجال ·

وصوب الحوت عينيه لتخترقا عينى يوسف قائلا بصوته النـاعم :

ـ لا تصدق ما يقوله ميرزا الفلكى عنها ·

تراجع برأسـه ، فما يسـمعه يخترق عينيه قبل أذنيه ، كلمات الحوت زجاج متكسر فى عينيه ، وواصل الحوت همسه الناعم هازئا من ميرزا الفلكى ، انه رجل شرير بكل معانى الكلمة ، ولو أراد أن يدرك حقيقة ما أصابه فى فترة مرضه ، فتفسيره الأكيد هو ما تدفق من ميرزا من شرور افسدت الجو المحيط به ، فأصابه بضرر أكيد ·

تذكر أن ميرزا ذكر له اسم أمه ، تذكره وهو يهبط بكفـه على ركبته يحدثه عن الشقراء ·· انها قادرة على أن تذكرك

بكوثر هانم ، وراه وهو يطعنه قائلا ‥ السيدة والدتك هل نسيت اسمها ؟

سأل الحوت ، والكلمات تخرج من فمه رغما عنه :

ـ كيف عرفت ؟

وسكت ، فاكمل الحوت :

كيف عرفت ما قاله لك ميرزا ‥ مجرد استنتاج بسيط ‥ لا تنسى أنى رجل مباحث ·

اجابه بسرعة :

ـ أعرف ‥ اسمك لا يجهله أحد فى بلدنا ·

قال الحوت بنعومة انتفت منها الصرامة :

ـ لا يا سيدى ‥ الزمن تغير وما أسرع ما ينسى الناس ·

هجم على يوسف خاطر مفزع فسال :

ـ كم تقدر الوقت الذى مضى على وانا هنا ؟

ابتسم الحوت وهمس :

ـ أنت أيضا تخاف النسيان ·

صاح يوسف :

ـ لم يمض ذلك الوقت الذى يهددنا فيه النسيان ·

فتلفت الحوت حوله ثم همس :

ـ دعنا نتقدم بعيدا ·

وأشار أمامه فى اتجاه الصحراء ، أو التراب ، وسارا صامتين بعض الوقت ، وكلما اراد يوسف ان يتكلم أسرع الحوت

يغمز بعينه أو يقرصه فى يده قرصة خفيفة ، كانه يحذره من الكلام ·

وردد همسا :

ـ انتظر ‥ اصبر ·

حتى وصلا الى الأرض التراب وعاد الحوت يتلفت حوله ، قبل ان يهمس ·

ـ واصل السير ‥ لقد اعتدت السير هنا ·

وخفض صوته :

ـ تعود الى موضوع النسيان ‥ أريد منك أن تطمئن ‥ فهناك قوى عظمى تعمل على الاحتفاظ بكل ما فعلناه ‥ نحن محظوظون من هذه الناحية ، كل شىء فى حياتنا سوف يدرس بادق تفاصيله ‥ وباحدث الوسائل التكنولوجية التى لم تخطر ببال ·

قال يوسف فى دهشة :

ـ لا أفهم ·

قال الحوت :

ـ صبرا ساشرح لك كل شىء ·

وانطلق الحوت يروى له اعجب ما سمعه فى حياته ، أن شركة « د · س » السياحية صاحبة هذا المكان ، هى فى حقيقة الأمر كما أيقن من التحريات التى قام بها انها مؤسسة

مخابرات على مستوى ، وصفه الحوت بأنه رهيب ، شيء يفوق اى خيال ، ولكنه واقع ، وعلى كل من جاء الى هذا المكان أن يواجهه ·

ما الهدف يا سيدى من تجمعنا فى هذا المركز ، انه ليس الا معمل أبحاث لدراسة عينات من البشر ، أن أصحاب السلطة على البشر تزعزعت ثقتهم فى المبادىء والشعارات السياسية ، لم يستطع أحد أن يوطد سلطته على الناس لا بنظرية سياسية ، ولا بمذهب ، وحتى المحاولات التى جرت للاعتماد على الدين حولت الى فوضى · الديكتاتورية فشلت والديمقراطية والشيوعية وأصابتها جميعا الأزمة ، ولم يعد هناك أمل فى السيطرة على الناس بغير اللجوء الى الأساليب العلمية والتكنولوجية الحديثة التى تعتمد على دراسة الانسان دراسة تفصيلية شاملة أصبحت ممكنة بعد اختراع سلالات من العقول الالكترونية تستطيع أن تجمع وتدرس وتحلل بلايين التفاصيل ·

أصبحت حياة الانسان غير معقدة التعقيد الذى يعجز عن تحليله عقل الكترونى ، وأصبح من الممكن التوصل بالدراسة الى اكتشاف سمات وملامح وظواهر تسود بين البشر فى العصر الحالى ، وأصبح من الممكن بعد تحديد هذه الظواهر تحديد وسائل رقابتها والتحكم فيها وتغييرها وتطويرها بما يساعد على استقرار السلطة ·

وقبض الحوت على ذراع يوسف بشدة وهمس :

ـ نحن هنا عينات من البشر اختارها للدراسة والتحليل ·· هذا هو الهدف ·· ولسوف تبقى هنا حتى تنتهى هذه الدراسة الى نتيجة ·· اننا لسنا أكثر من فئران أو خنازير هندية يستخدمونها فى المعمل ·

كان يسمع ولا يصدق ما يسمعه ، بل بدأ يرتاب فى سلامة قوى الحوت العقلية ، الرجل ينظر الى كل شيء بمنظار رجل المباحث والمخابرات ·· انه لم يأت الى هذا المكان بأمر من سلطة ، لقد جاء طواعية ، برغبته ، وبعد اقتراح من صديقه مراد ·

سأل الحوت ليختبر مدى ما وصل اليه من تدهور عقلى :

ـ وأية سلطة هى التى يهمها أن تختارنا كعينات بشرية ؟

قال الحوت :

ـ لقد وصلت الى قناعة أن السلطة واحدة ·· انها فى واشنجتون وهى هى فى موسكو ·· وهى هى فى بكين ·· وهى هى فى أى مكان فيه سلطة ··

وتوقف الحوت فجأة وفتح شفتيه المبتسمتين لتكشفا عن أسنانه بينهما ضرسان من الذهب رآهما يوسف لأول مرة ، وعاد الحوت يقول :

ـ مهلا ·· مهلا ·· أتريد أن تعرف سر المهنة ؟

قال يوسف متشجعا بابتسامة الحوت :

- انت الذى فتح الموضوع ٠

قال الصــوت :

- نعم لأنى اعرفك ٠

همس :

- تعـــرفنى ؟

اوما الحوت براسه ، محتفظا بابتسامته مسمرا نظراته فى عينيه ، صوته دافىء ناعم :

- وهل كنت تتوقع غير ذلك ٠٠ كما ان أصحاب السلطة يعرفون بعضهم بعضا ٠٠ كذلك نحن الذين اختارونا نعرف بعضنا بعضا ٠٠ هم كالعائلة الواحدة ٠٠ يتصادقون ويتحالفون ويتشاجرون ويتحاربون ٠٠ ولكنهم اخوة ٠٠ اخى جلالة الملك ٠٠ اخى فخامة الرئيس ٠٠ ولسوف ياتى يوم تتحقق فيه نظريتى هذه ٠٠ عندما نكتشف انهم جميعا شرقا وغربا على اختلاف مذاهبهم ودياناتهم قد اتفقوا على اقامة هذه المؤسسة الدولية ، لتنفيذ مشروع الوصول لا الى الكواكب ٠٠ ولا الى قاعة الدومينو ، ولكن الى أسهل وأقل الوسائل تكلفة للسيطرة والتحكيم فى الخاضعين للسلطة ، ونحن العينة التى يجرون عليها التجارب ومن شروط العينة وجود صلات بين افرادها ، ولذلك فانا أعرفك او على الأصح اعرف جانبا من حياتك ٠٠ وانت لك صلة وثيقة بجانب من حياتى ٠

وتوقف الحوت لحظة وتلفت حوله قبل أن يهمس :

- كريم شاكر هو مندوبهم الرسمى فى هذا المكان ، وهو المشرف على المشروع فى هذا المركز ٠٠ وهناك صلة لم اتبينها بعد بينه وبين آدم ريشفسكى ، كما ان ميرزا الفلكى لم اتبين حتى الآن اذا كان أحد العينات ام هو من جانب الادارة ٠

كانت المعلومات التى يسمعها أكبر من أن يفهمها دفعة واحدة ، وكان مازال تحت تاثير شعوره الأول أن الرجل يهذى ، ولكن بعض المخاوف تسربت اليه ، وكان السبيل الوحيد أمامه لكى تتضح له بعض المعانى التى يرددها الحوت ، ان يساله عن معرفته الشخصية به ٠

ساله هامسا بصعوبة :

- منذ متى وأنت تعرفنى ؟

وسكت فقال الحوت كانه يكمل السؤال :

- منذ متى اعرفك ٠٠ وتتبعت اخبارك ٠٠ منذ زمن طويل ٠٠

عاد يهمس وصدره يدق ، وكانه يدوس صدره ، وكأن دقات قلبه هى دقات قدميه :

- وتعرف كل شىء ٠

اسرع الحوت بخطاه ، وقال كلماته للفضاء امامه :

- اعرف أشياء عنك ٠٠ لا اظن انك تعرفها ٠

قال وهو يسرع خلفه كلماته تصطدم بقفا الحوت ، قفا

طويل حليق :

ـ تقارير المباحث .

استدار اليه الحوت ومد يده وربت بها على كتفه ، ثم شدد قبضته على كتفه الأيسر ، وقال وعيناه مسماران تخترقان عينيه ، مسماران من زجاج حاد مدبب :

ـ نعم تقارير المباحث .. ومعلومات من روسيا ومعلومات من أمريكا ، ومعلومات من كل مكان .

ثم تنهد الحوت وقال :

ـ ولكن أهم من ذلك كله .. أنى أترك الآن سبب لقائنا .

وسكت الحوت ، وتفحصه قبل أن يكمل :

ـ أنت يوسف منصور الذى أنجب حسن يوسف منصور .

وأنا سعد الحوت .. الذى صنع الارهابى حسن يوسف منصور .. وعلينا الآن أن نصفى هذا الحساب .

وانفجر يوسف والألم يشق صدره وحلقه ولسانه :

ـ أنت .. تقول صنعته ثم تقبض عليه وتودعه السجن .

كان يرتعش

وقد اجتاحه غضب أفقده القدرة على التفكير أو التصرف .. صيحات هوجاء تدوى فى رأسه وتزلزل كيانه أن اللواء الحوت مجرم يعترف بوقاحة لا مثيل لها بجريمته ، أيضرب الحوت ، أيقتله منتهزا الفرصة أنه فى هذا المكان الذى تحرر من القوانين وسيطرة الدولة ، أيقبض عليه ويضطره أن يعود معه الى القاهرة ليعترف أمام القضاء بما اعترف به الآن ، لابد أن يتصرف ، لابد أن يفعل ما لم يقو على فعله من قبل ، أليس هذا هو ما يريد أن يحققه فى هذا المكان .. بالأمس كان مشغولا بحرية ممارسة الغريزة مع تلك المرأة الشقراء ، كانت أحلامه متجهة الى اباحية بلا حدود ، الى اطلاق غرائزه لتعويض كل ما فاته من عجز أو كبت ، ولكن هذا الاعتراف الذى أعلنه الحوت يفرض عليه مواجهة أهم واخطر ، مواجهة لها الأولوية على كل ما عداها .. أن يدافع عن نفسه ، عن ابنه ، عن كيانه المستمر فى حسن الحوت يعترف ببساطة أنه هو الذى صنع منه الارهابى .. رجل الشرطة المسئول عن الأمن ، هو الذى صنع المجرم وهو الذى قبض على المجرم بعد أن ارتكب جريمته ، ولقد عجز عن معرفة هذه الحقائق ، ولم

ولم يفلح فى مواجهتها وحسن خلف القضبان يتلقى الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ·· ولكن الظروف قد اختلفت الآن المكان غير المكان ، وهو حر ان يفعل ما يريد ·

اصابته هذه الصيحات التى تدور فى راسه وتزلزل كيانه بذهول وشلل ، واسرع الحوت يمسك بذراعه قائلا :

ـ ارجوك لا تقع فى الخطا وتتورط فى ذكريات الماضى ·· انى اعتـــرف لك لأنى اريد أن اتخلص نهائيـــا من هذه الذكريات ·· لأتفرغ لما هو اهم ·

رد « يوسف » ذاهلا والغضب ينهشه :

ـ انت مجرم ·· مجرم ·



قال الحـــوت بصوت صارم لا انفعال فيه وكان يحتفظ بابتسامته :

ـ مهلا يا سيد يوسف ·· قبل ان توجه الاتهام الى اسمع ما اعـــرفه عنك ·· فقد توجـــه الاتهام الى نفسك ·· ان ابنك حسن قد وصل الينا وهو لا يصلح لشىء آخر

غير ما وجهته اليه ·· وانت السبب وآخـــرون غيرك كانوا السبب ·

وامسك الحوت بذراع يوسف وهزه :

ـ برفق يا أستاذ من اوهامك ·· فاذا كنت قد جئت الى هنا لتستريح فليس امامك الا ان تعترف مثلى بذنوبك ·· فتستفيد وتستريح ·· وتأخذ طريقك الى الدومينـــو او الكروكيه ·· أو لعلك تساعدنى على اكتشـــاف هذا المكان ·· وفى نفس الوقت ســـوف تستفيد تلك السلطة الحاكمة التى جمعتنا هنا ·· ستعرف كل شىء عن خبايا نفوسنا ·· وســـتحصل على مزيد من المعلومات تهيىء لها فرصة اكتشاف اســـاليب حديثة للسيطرة على البشر ·

قال يوسف وصوته فحيح :

ـ ابنى فى السجن ·· وأريد انقاذه ·

قاطعه الحوت وقد اتسعت ابتسامته :

ـ هل انت قادر على انقاذ نفسك ·· لتسعى الى انقـــاذ احد غيرك ·· قال يوسف والفحيح يتحول الى زئير :

ـ لن اتركك حتى تعود معى ·· وتروى اعترافاتك امـــام القضـــاء ·

اهتز جسد الحوت مقهقها كانه سمع دعابة تثير ما هـــو اشد من الضحك وقال :

ـ كيف تغادر هذا المكان ·· اننا لن نستطيع ··

صاح يوسف :

ـ من الذى يجرؤ على منعى ؟!

قال الحوت وهو يتوقف عن الضحك بجهد ملحوظ ·· كأنه يطرد القهقهة لتختفى فى الفضاء ··

ـ أنت ·· أنت نفسك يا أستاذ ··

صاح فى عناد :

ـ أبدا ·· سوف أطلب العودة هذه اللحظة ·· ولسوف تأتى معى ··

قال الحوت وقد تخلص من الضحك وبرزت البرودة فى زجاج عينيه :

ـ لا أحد يمنعك ·· ولا أحد يعترض طريقك ·· ولا أحد من الذين تراهم من حولك لم تراوده هذه الرغبة أكثر من مرة ·· مصحوبة أحيانا بهياج شديد لا يقارن بما أنت عليه الآن ·· ولكنهم جميعهم بقوا ·· ما عدا ثلاث حالات أو ربما أربع اذا لم تخنى الذاكرة ·· خرجوا من هنا الى هذه الصحراء ·· واختفوا ··

وأشار الحوت بذراعه الى الأفق البعيد حيث يلتقى التراب بالسماء وقال :

ـ لا أظن أن هذا هو طريق العودة ··

ألح يوسف :

ـ لا أصدقك ·· وأنا مصمم على العودة ·· فهل لك أن تأتى معى ؟

قال الحوت ساخرا :

ـ بكل سرور ·· ولكن ليس قبل أن تسمع اعترافاتى ··

قال يوسف مستريبا :

ـ وما الذى يمنعك من أن تعترف ونحن فى طريق العودة ؟·

قال الحوت وهو يهز رأسه يعلن رفضه لما يسمع :

ـ هذه فرصتك ·· الآن فى هذا المكان أريد أن أتكلم ·· ولكنى غير واثق أنى سأبوح لك بشىء اذا طلبنا العودة ·· قد تصيبنى نكسة لا أفيق منها الا بعد سنوات ··

سأله يوسف فى دهشة :

ـ نكسة ·· أية نكسة ·· ؟

قال الحوت باسما :

ـ مثل تلك التى أصبت أنت بها ·· ولم تفق منها الا هذا الصباح ··

قال يوسف :

ـ انها لم تدم أكثر من ليلة ··

هز الحوت رأسه منكرا ··

ـ ليلة ·· انى لا أستطيع أن أحصى كم مرة أشرقت فيها الشمس وغابت منذ رأيتك تدخل قاعة الدومينو لأول مرة ··

همس يوسف ومخاوف غامضة تتسرب اليه :

ـ هذا غير صحيح ·· لا أحد يستطيع أن يخدعنى ·· لقد جئت الى هنا بالأمس ·· وكنت ليلة أول أمس فى زيوريخ ··

اليوم هو السبت ··

قال الحوت متجاهلا مقاومته :

ـ سيأتي يوم ستقتنع فيه بما أقوله لك ·· سترى وافدا جديدا يأتي ·· ويختفي حتى تنسى أنه جاء ·· ثم سيقابلك بعد أن يستيقظ ·· وسيدهشك أنه يظن أنه جاء بالأمس فقط ·· هذا بالضبط هو ما حدث لكوستا ·· وشهدته بعيني ·· وكان سببا مباشرا لإزالة أى شك فى نفسى حول هذا الأمر ··

همس يوسف وقد اشتدت مخاوفه :

ـ أتريد منى أن أصدق هذا ·· اننا فى نزهة سياحية ولسنا فى سجن أو معتقل والذى جاء بى الى هنا ·· صديق ··

هز الحوت رأسه لسماعه يوسف يذكر الصديق · وقال :

ـ نعم ·· لابد أنه صديقك مراد ·

اضطرب يوسف ·· وخشى أن يسقط كما سقط عندما ذكر له ميرزا الفلكى اسم أمه ·· وأسرع الحوت يمسك به بقوة قائلا وكأنه يدرك ما يعانى منه :

ـ لا تخف ·· لقد استرحت بما فيه الكفاية ويمكنك أن تصمد لما تسمعه وتعرفه ·· انك الآن أقوى بكثير ·· مما كنت عليه فى يومك الأول ··

همس يوسف بصعوبة :

ـ أنت تعرف مراد ·· ؟

قال الحوت مشجعا :

ـ نعم ·· ولكن دعنى احدثك اولا عن ابنك حسن ·· فهذا هو ما يعنينى ·· اما معلوماتى عن مراد فهى معلومات لابد أن يعرفها رجل مثلى كان مسئولا عن المباحث يوما ما ··

احتج ·· أراد أن يقول كلمات حاسمة ، ولكن اضطرابه يؤدى به الى نوع من الاستسلام ·· المؤقت طبعا ··
وكان الحوت مازال يشجعه قائلا بنعومة كاملة :

ـ ليس لديك مانع أن تكمل مشوارنا ·· لا مانع من الفرجة ·· المشى فى الصحراء مفيد ·· ولسوف أشعر بقدرة اكبر على الافصاح والتعبير ونحن نتقدم ونتوغل فى هذه الصحراء ·· ولا تقلق ·· بعد أن افرغ من حكايتى سوف نعود ·· ولك ان تامرهم أن يعدوا اجراءات السفر ·· الأمر بالنسبة لهم لا يحتاج الى بذل أى جهد ·· سوف تحضر السيارة فى الحال ·· ويحملون حقائبك ·· والهليوكبتر فى انتظارك فى اية لحظة·

نظر اليه متشككا وهو يمشى بخطوات ثقيلة بجواره وقال :

ـ منذ لحظة كنت تقول أن العودة مستحيلة ··

قال الحوت :

ـ لم اقل هذا ·· كل ما قلته انك الذى سوف تمتنع عن العودة ·· وربما هنا افضل ·· وربما لأنهم يمارسون تجاربهم فى السيطرة على البشر بالاضافة الى عمليات جمع المعلومات عنا ·· ولا اظن انهم ينفقون اموالا طائلة على هذا المشروع ، لينتهى الأمر بأن

يقبلوا خداع أنفسهم •• انهم يمارسون تجاربهم للابقاء عليك • مستخدمين وسائل لو أفلحت هنا فسيطبقونها على البشر فى العالم كله وهى وسائل لا نستطيع أن ندركها أو نلم بأبعادها •• وأنا شخصيا لا يعنينى الآن معرفة هذه الوسائل •• أنا رجل مسالم ، خدمت يا سيد يوسف ثمانية وثلاثين عاما ولم يضم ملف خدمتى جزاء واحدا ، حتى لفت نظر •• ملف خدمة من أنظف الملفات التى عرفها تاريخ الخدمة فى الشرطة •• لأنى كنت أعرف حدودى ، أطيع الرؤساء طاعة أفخر بأنها مطلقة ، لا أثير مشاكل ، بل أتجنبها ولا أتورط فيها • وطوال مدة خدمتى كنت موضع ثقة جميع الحكام •• عندك آدم ريشفسكى الذى قابلته فى قاعة الدومينو •• هل تذكره ••

همس يوسف وهو يتذكر أنه رآه فيما يشبه الأحلام وهو يجلس مع حاشية الملك فى الأريزونا بينما كان يرقص مع جابى ••

ـ نعم •• أذكره ••

قال الحوت :

ـ أنه يروى لك ويشهد بأن المباحث لم تجد من هو أصلح منى لمراقبة أم فاروق أثناء خلافها معه •• كنت أتعرض لمواقف محرجة •

وانحنى الحوت فجأة وقبض فى يده حفنة من التراب ، أو الرمال المسحوقة الناعمة كالتراب وقال :

ـ سوف تعود •• اذا نجحت فى العودة •• وان تعرف أبدا أين كنت •• ولكن المؤسسة التى تجرى تجاربها علينا سوف تعرف أن هناك خللا فى وسائل سيطرتها •• ولسوف تستفيد من قدرتك على اتخاذ قرار العودة وتنفيذه •• وسوف تدرسه وتكتشف مصلا جديدا أقوى وأشد فاعلية للسيطرة •• أما أنا فسأواصل بحثى لأعرف أين أكون •• أحيانا أشعر أن هذا أمر لابد منه •• لو لم أعرف فلن يكون هناك معنى لأى شىء •• وعندئذ ألتحق نهائيا بقاعة الدومينو حيث ينتظرنى الأستاذ كريم شاكر •

وتسرب التراب بين يدى الحوت وهو ينظر فى اتجاه الأفق قبل أن يواصل السير وهو يتبعه ، قدماه تغوصان فى التراب ، لا يدرى معنى لهذا السير ، سوى أن يبدأ الحوت فى رواية حكايته ، كانت مشاعره نافرة من حديث الحوت عن عدم استطاعته العودة ، وعقله يرفض ، وخياله يرفض أن ترتبط عودته بارادته هو شخصيا ، يفرضها وينتصر بها ضد ارادة المؤسسة السياحية الدولية ، ومع ذلك هناك شىء يتولد فى أعماقه ، لا صلة له بالمشاعر أو العقل أو الخيال ، شىء خافت غامض غبى ، جرثومة ما تنتقل اليه عن طريق آخر غير الوعى أو الشعور أو حتى الالهام ، أن الحوت صادق فيما يقول •• وأنه لس مجنونا تماما كما خيل اليه أول الأمر •• وقبل أن يكتمل المعنى الذى يريد أن يصيغه وجد نفسه يستحث الحوت أن يتكلم :

- سأستمع الى حكايتك ·

قال الحوت وعيناه مشدودتان الى الأفق :

- طبعا ·· حتى نستريح جميعا ·

ثم التفت الحوت اليه وابتسم :

- اطمئن ·· لابد أن نصل الى ما نريد ·

وعاود الحوت المشى صامتا بعض الوقت ·· والصحراء هى الصحراء ، والأفق مازال بعيدا ، والمبانى والأرض الخضراء وملاعب الكروكيه تبتعد خلفهما ، والشمس فوق راسيهما ، وظلاهما قصيران يهرولان بجواريهما ، تابعين ابلهين ، ووقف الحوت قائلا فجأة :

- اسمع لى قبل أن أحكى حكايتى ·· أن اصلى فقد جاء موعد صلاة الظهر ·

قال للحوت وخاطر مفاجىء يلمع فى راسه :

- معنى ذلك أنك اكتشفت اتجاه القبلة ؟

اجاب الحوت بصوت ناعم كالمخاطب نفسه :

- لم أستطع جغرافيا ·· فلست ادرى موقعنا من الشرق سوى أن الشمس تشرق من هناك ·

واشار الحوت بيده فى اتجاه يميل الى يسار المبانى والأرض الخضراء خلفهما ثم اردف قائلا :

- لو أن هذا المكان فى شرق آسيا لوجب أن نتجه فى صلاتنا الى الغرب أو الجنوب الغربى ·· ولو كان فى افريقيا لاتجهنا

الى الشرق ·· ولو كان فى الشمال لاتجهنا الى الجنوب والشرق ، ولو كنا فى استراليا لاتجهنا الى الشمال والغرب ·

قاطعه باهتمام :

- الم تصل فى بحثك الى رأى ؟

اجاب الحوت :

- لا ··

فسأله :

- ولكن من حقك ان تسألهم ·· من حقك ان تعرف ·· لا يستطيع احد ان يحرمك من الصلاة ·· هذا حق مقدس ·

اجاب الحوت :

- لا احد يعرف هنا ·

فسأله :

- وماذا تفعل ·· كيف تختار القبلة ·

قال الحوت :

- اختار بقلبى ·

فسأله :

- الا تشك فيما يختاره قلبك ؟·

اجاب الحوت بنعومة وثقة :

- لا ، لأنى اختار ما تعودت عليه ، اتجاه الجنوب الشرقى ·· من الصعب أن تغير عادات رجل يؤمن بالانضباط ·

ثم اضاف بنعومة ساخرة :

ـ رغم أن آخرين يصلون فى اتجاهات أخرى ٠٠ ابراهيم المنجى يغير القبلة مع كل صـــلاة ٠٠ ويردد أن الله فى كل مكان ٠٠ وأنه يغفر لنا جهلنا ٠٠ ولكنـــه يســـعى فى نفس الوقت الى أن تكون صلاته نحو القبلة الصحيحة فى وقت ما ٠٠ أما اذا اختـــار قبلة معينة بقلبـــه فقد لا تكون صحيحة ٠٠ فتكون صلاته كلها محرومة من الاتجاه السليم ٠

انه طبيب مولد كما تعلم ٠

قال يوسف :

ـ نعم أذكره ٠٠ انه الذى سخر منى ٠٠ وقال انى مصاب بالتهاب البروستاتا ٠

قال الحوت بصوت غريب عنه أقرب الى الهمس :

ـ لقد جاء الى هنا قبلى ٠٠ وهو الذى أشرف على ولادة البنتين ٠٠ أما الولد فقد أخرجه ٠

وسكت الحوت كأن الكلمة ضاعت منه ٠٠ وعاد يقـــول هامســـا :

ـ وبقيت البنتان ٠٠ انهمـــا مجبنة ٠٠ حتى وأنت رئيس جهاز الشرطة ٠٠ البنات مجبنة ٠

وهز رأسه ليخرج من همسه ورفع صوته مغيرا الحديث وقاطعا الذكريات :

آدم ريشفسكى يصلى وهو يدور فى كل اتجاه ٠٠ القيـــام

فى اتجاه والسجود فى اتجاه ٠

ســـأله يوسف :

ـ أهو مســـلم ؟

قال الحـــوت :

ـ أسلم على يد فاروق ٠٠ كان جالســـا معه على مائدة البوكر ٠٠ ودفع فاروق خمسين ألف جنيه الى وسط المائدة ٠٠ وقبل آدم وهو يدفع بكل أمواله ثمانين ألفا ٠٠ وهنا تصرف فاروق على غير عادته ٠٠ قهقهه وقال : يا ليفى ٠٠ ـ كان اسمه ليفى ـ سأعفيك حتى لا تخسر فقال آدم واثقا مـــن نفسه : لن أخسر يا مولاى ٠٠ قـــال فاروق : بـــل ستخسر فظن آدم أن الملك يخدعه ٠٠ كانت أوراقه « كنت رويال » ليس هناك أقوى منها عندئذ قال الملك وهو مازال يقهقه ، مازلت أعطيك فرصة أخرى ٠٠ فقال آدم مصرا : يا مولاى ٠٠ لو خسرت بالأوراق التى فى يدى فأقسم أنى سأخرج من دينى ٠٠ قال له فاروق : وتشهر اســـلامك ٠٠ قال آدم ٠٠ نعم يا مولاى ٠٠ وكشـــف فاروق أوراقه ٠٠ فاذا هى كنت رويال بالآس ٠٠ وآدم أوراقه كنت رويال بالروا ٠٠ معجزة لا تحدث الا كل ألف عـــام ٠٠ وكسب الملك ٠٠ ولطم آدم وجهه بكلتا يديه والملك يبكى بدموع النشوة ٠٠ وأشهر اسلامه ٠٠ وغير اسمه من ليفى الى آدم وزادت صلاته بالملك ٠٠ وكسب الملايين فى عمليـــات توريد الأسلحة أيام حرب فلسطين ٠

وقال الحوت وهو يغمز بعينيه الزجاجيتين :

ـ اسلام من نوع آخر ‥ غير اسلام ابنك حسن ·

همس يوسف :

ـ انه يقول اننا جميعا كفار ·

قال الحوت بلهجة عملية :

ـ دعنى أصلى أولا ‥ واذا أردت أن تشاركنى ‥ فاختر بقلبك القبلة ‥ فما تختاره القلوب يختلف بين قلب وقلب ‥ المهم أن تثق أن اختيارك هو الصحيح ‥ وصلاتنا جميعا مقبولة ‥ فهو أعلم بظروفنا وهو الذى يهدينا ويضلنا كما يشاء وله فى ذلك حكمة ·

وقال الحوت مكملا وهو يتجه الى قبلته فى اتجاه المبانى والملاعب :

ـ بالطبع لقد حرمنا من صلاة الجماعة ‥ وحرمنا من صلاة الجمعة ‥ فلا أحد يتفق مع الآخر بقلبه على القبلة التى نتجه اليها ·

ثم قطع الحوت كلامه وابتسم قبل أن يقول بنعومته الساخرة :

ـ طبعا أنت لن تصلى ‥ لأنى اعرف أنك لم تركع ركعة واحدة فى حياتك ·

قال يوسف فى دهشة :

ـ حتى هذا تعرفه ·

قال الحوت :

قلت لك انى أعرف الكثير ·

قال يوسف وقد تملكته رغبة مفاجئة فى الفرار بأسرع وقت من هذا المكان :

ـ لا تحاسبنى ‥ هو وحده الذى يحاسبنى ·



فنظر اليه الحوت نظرة طويلة من خلال عينيه الزجاجيتين ، وبدا أنه سيقول شيئا ، ولكنه استدار الى قبلته التى اختارها الجنوب الشرقى · نفس الاتجاه الذى اعتاد عليه طوال حياته‥ وانشغل عنه وعن الصحراء والتراب وعن الأفق ، بالصلاة ·

وقف يرقبه حائرا ثم تلفت حوله ، الفضاء صامت ، والأفق بعيد ‥ والسماء عالية ، وهو جامد مكانه ، قدماه فى التراب ووجه ابنه حسن يملأ عينيه ، وصوته المتهدج الغاضب اليائس يصرخ : أنت كافر · وهى كافرة · رفض حسن أن ينطق بكلمة أمى ‥

كأنه ولد من أم أخرى غير زينب .. وسأل ابنه بأى حق تحكم على أبيك وبأى حق تتهم أمك التى ولدتك بالكفر .. ومن الذى يتولى اطلاق الاتهامات والأحكام والقيام بعملية الحساب قبل يوم الحساب ، ورفض حسن أن يدخل معه فى مناقشة ، قال حسن : أسئلتك هذه هى وسوسة الشيطان ، وأدار له ظهره فانقطع الكلام .. انقطع ما بينهما ، انقطع كل ما كان بينهما .. انقطع كل ما يمكن أن يكون بينهما .. ومع ذلك لم ينقطع شىء .. فهو مازال حسن ابنه ، وها هو وجه حسن يملأ عينيه أينما ذهب وسيظل هذا الوجه يملأ عينيه .. لا الغيبة ولا قضبان السجن ولا اتهام الكفر ولا وسوسة الشيطان ، ولا أى شىء بقادر على أن يقطع ما انقطع ، ما أعجب هذه الدنيا .

لقد التجأ الى هذا المكان المجهول طالبا للراحة من كل هذا الذى أفسد حياته ، فاذا به وجها لوجه مع هذا الرجل الذى يقول له أنا السبب فيما حدث لابنك وأريد أن أعترف لك . أهذا لقاء من تدبير الله ، أم هو لقاء من تدبير تلك القوى المسيطرة الحاكمة التى يتحدث عنها اللواء الحوت .. ترى ما الذى يريدون اضافته الى آلاتهم الحاسبة وعقولهم الالكترونية من معلومات .. أهى دراسة لاجراءات صنع الارهابى .. دراسة للبيئة التى يخرج منها الولد الذى يتهم كل من حوله بالكفر .. دراسة تشمل المشاعر والتصرفات

والخلجات والخواطر وكل شىء ممكن حتى يتحول الانسان الى جهاز معروف ومدروس شأنه شأن أى جهاز آخر تديره بالأزرار أو التوجيه عن بعد وهو خاضع مستسلم تماما لكل ما تريده منه السلطة .. لا يثور ولا ينفعل ولا يغضب ولا يقاوم .. ان حسن على النقيض من هذا كله وأنه لأمر عجيب أن يكون رجل السلطة هو الذى صنعه .

كان يسأله وهو واقف وراء القضبان فى قاعة محكمة الجنايات :

ـ هل يرضيك يا حسن هذا الذى أصبحنا فيه .

قال الولد :

ـ نعم يرضينى .

همس وقلبه يتمزق :

ـ يرضيك السجن .

قال الولد :

ـ السجن أحب الى مما تدعوننى اليه .

قال :

ـ أنا لا أدعوك الى شر .. لا أدعوك الى ما يغضب الله .

قال حسن متحديا :

ـ أنت لا تدعونى الى الجهاد .

قال يائسا :

ـ الجهاد ضد من .. أنت تدمر نفسك .

قال حسن بجـرأة :

ـ بل أنقـــذها ·

قال وهو يرى حسن من خلال غشاوة دموع :

ـ تنقذها بالسجن ·· بالانتحار ·

قال حسن :

ـ ليس هذا انتحارا ·· أنا أحارب ·· والسجن والحرب سيان ·· لست أتوقع غير هذا ما دمت أحارب الكفر والفساد والانحـــلال ·

غاب حسن عن البيت أول يوم فى العيد الكبير ·· كان فى الرابعة عشرة من عمره ، ليلة العيد قال لأمه :

ـ أنت متبرجة ·

صاحت غاضبة :

ـ اخرس يا قليل الأدب ·

قال مصرا :

ـ لست قليل الأدب ·· التبرج هو قلة الأدب ·

فهجمت زينب عليه تريد أن تصفعه ·· فأمسك بذراعها ، وصرخ فى وجهها :

ـ أياك أن تمدى يدك على ·

خافت زينب ·· عندما دخـل يوسف البيت حاملا معـــه صندوق الحلوى ·· وجدها أغلقت باب حجرة النوم عليهـا بالمفتاح ، قالت له :

ـ أنا أو ابنك ·

قال لهـــا :

ـ انه ابنك أيضا ·

قالت :

ـ أنت المسئول عن تربيته فى هذه السن ·

كانت لا تدرك أنها تفجر كل ما فى نفسه من مرارة وغضب ورغبة مجنونة فى الانتقام ·· وهـو فى الرابعة عشرة كان أبوه قد ذهب ، وكانت أمه تتزوج لطيف صـــبرى ·· وكانت عصابة اليد السوداء تنذره بالفضيحة ·· كانت الصـــور والمشاهد تتداعى فى رأسه وهو مندفع نحو حجرة حسن ، كان مندفعا نحو نفسه ، نحو يوسف المراهق ، يوسف الذى يرى الدنيا سوداء سافلة دنيئة ·· يوسف الذى يريد أن ينتقم من أمه ·· كلما أراد أن يتخلص من هذا اليوسف عاد اليه ، ها هو يوسف الجديد ، حسن يوسف منصور ، يكرر المشـــهد القديم ، ويهدد أمه ·

صاح وهو يصفع الولد :

ـ اذهب واعتذر لأمك :

قال الولد متحديا :

ـ لن أعتـــذر ·

قال له ثائرا :

ـ اخرج من البيت ·

قال الولد :

ـ لا ·· هذا بيتى ·

فهجم على ابنه ·· يدفعه ·· والولد يقاوم ·· يصفعه والولد يتحاشى الصفعات ، يركله والولد يريد أن يفلت ·· كان يوسف يلهث ·· وكان يدرك أن قواه سوف تخور سريعا ، وكان يخشى اللحظة التى يتحول فيها دفاع الولد عن نفسه الى هجوم عليه ·· وملأ الرعب قلبه ·· فازداد شراسة وهاجت صرخاته ، وجاءت تلك اللحظة التى انتصب فيها حسن رافعا رأسه وقد شد قامته ·· حانت اللحظة التى سيرد فيها الصفعات والركلات ·· ولكنه ·· لأمر ما نظر لأبيه ، وأدار ظهره وخرج من البيت بالبيجامة والشبشب ·

فليذهب

الى حيث يذهب ·· يغور فى ستين داهية ، قالها يوسف ، وهو يزفر هواء الغضب ويشعر لدهشته أنه تخلص بطرد ابنه من البيت ، من شىء فى نفسه أراد أن يتخلص منه منذ زمن بعيد فلم يفلح ، ولكنه نجح الآن فى ازاحة هذا الكابوس الذى جثم على صدره لسنوات وسنوات ، لقد خرج مطرودا مع حسن ، ذلك الصبى المراهق الذى كان اسمه يوسف ، ان باب المسكن ينغلق بشده محدثا دويا هائلا فيقيم سدا سميكا بينه وبين حسن وبينه وبين يوسف الذى كان فى مثل سن حسن ، كلاهما خرجا الولد بلحمه ودمه ووقاحته وقلة أدبه ، وذكريات الأب عن صباه ، بآلامها وعجزها وسخفها بلا حدود ·

كان يلهث ، قواه خائرة ، قلبه يدق بعنف ، ولكن آن الأوان ليستريح بعض الشىء بعد هذا المجهود الذى بذله والذى مكنه من أن يفرض ارادته ·· نعم يفرض ارادته فى هذا البيت الذى جمعهم ثلاثتهم ، هو وزينب وحسن ، ليواجه فى كل يوم ، فى كل ساعة ، أنهم أصبحوا غرباء ، لا يطيق احدهم الآخر ، التحدى فى نظراتهم ، الغضب فى صدورهم ، التحفز



للانقضاض فى حركاتهم ، الآن تعلم زينب أنه قادر على اتخاذ القرار ، تستطيع أن تفهم ، بل لقد فهمت بكل تأكيد ، انه اذا كان يستطيع أن يطرد ابنه كما فعل منذ لحظات ، فهو قـادر على أن يطردها ، يطلقها .

انها لن تخطىء فهم ما حدث ، وفوق ذلك انها لا تدرك أنه الآن فى لحظة من لحظات قوته ، لقد انتصر على نفسه ، واجتاح ذكريات واشباح ماضية ، فأصبح من السهل عليه أن يجتاحها ويسحقها بلا تردد .

مشى الى حجرة المكتب ، وألقى بجسده على المقعد الذى اعتاد الجلوس عليه لساعات بالقرب من النافذة ، يقرأ أو يترك لأفكاره حرية التشرد ، المقعد ضخم مكسو بالجلد الأخضر ذو مسندين عريضين ، انه الشىء الوحيد الذى يضم جسده بين أحضانه عندما يحتدم الشجار بينه وبين زينب فيترك لها حجرة النوم ، لم يقل لها أبدا انه اختار هذا المقعد ، وألح فى شرائه لأنه يشبه المقعد الذى كان يجلس عليه أبوه فى بيت جاردن سيتى ، ويشبه المقعد الذى كان يجلس عليه جده فى بيت محرم بك بالأسكندرية .

كان يريد أن يحمى المقعد من غيرتها ، ثم اكتشف أنه لابد أن يحمى المقعد من جام انتقامها فلو عرفت أنه يستريح اليه ويجد دفئا بين أحضانه لمزقته اربا لأنها لا تحتمل ان تتركه يستريح أو يشعر بالدفء .. يتوسل اليها أن تتركه فى حاله ، لم أعد أتحمل مواصلة الصراع يا زينب ، أمستحيل أن أجد بعض الهدوء ، أحرام أن ننعم ببعض السكينة ! فكأنه يستفزها ، تزمجر .. أتريد أن تستريح من الراحة ؟! أتريد أن أشقى وأتعب ويضيع عمرى معك وأنت تستريح كالرمة ، لا يا زينب ، الآن أنا لا أستريح كالرمة ، أنا أجلس على هذا المقعد واثقا قادرا ، هذا المقعد لا يمنحنى الآن الدفء ، أنا الذى أمنحه اياه ، أمنحه ما هو أكثر من الدفء ، أنى أرفعه الى مستوى مقعد أبى ومقعد جدى ، أنا أجلس عليه ، أنا أضع ذراعى وكفاى على مسنديه ، أنا أستقر عليه بثقلى ، أنا اضغط عليه بظهرى ، هكذا يجب أن تكون المقاعد التى يجلس عليها أمثالى القادرون على اتخاذ القرارات .

انتبه على الباب يفتح ، حول رأسه ليراها ، ها هى واقفة عند الباب ، عيناها السوداوتان ساهمتان ، شعرها الكستنائى المقصوص مشعث على غير عادتها ، خصلاته نافرة ، وجهها شاحب مستطيل ، وشفتها السفلى متدلية نافرة من شفتها العليا ، تنظر اليه ولا تتكلم ، وهو ينظر اليها ولا يتكلم ، أهى مباراة فى النظرات ؟! العيون تلتقى وتتصادم ، ولا صوت

ولا معنى ولا أى شىء تتناقله النظرات الجامدة المتصادمة ، لم تقو على الاستمرار وتحقق من قوته عندما سمعها وقــد خرجت عن الصمت ولجأت الى الكلام بعد فشل النظرات ·· كانت تقول بصوت غلبه الانفعال :

ـ كان لابد من تأديبه ·

استسلام كامل من جانبها ، اعتراف لا ريب فيه بأنه اتخذ القرار ونفذه ، واصل ارسال نظراته القوية اليها وهو يقول لنفســـه :

كان لابد من تأديبك أولا ·

ولكنه لا يريد أن يتكلم ، ليس بحاجة الى أن يقول أى شىء ، بل هو يستطيع الآن أن يحول نظراته عنها ، وهذا هو ما فعله ، اتجه بنظراته الى النافذة ، فنسى زينب ، وقد خطر له أنه لـو نهض من المقعد وأطل من خلف الزجاج فربما رأى حسن وهو يسير فى الشارع ، يسير بالبيجامة والشبشب ·

وسمعها تقول :

ـ ليس معه نقود ·

التفت اليها وصرخ فى شراسة :

ـ لا يهمنى ·· عليه ان يواجه مســـئولية تمرده ·· ان مثله فى بلاد أخرى يقول له أبوه ·· تحمل نفقـــات تعليمك وطعامك وشرابك ·

همست كأنها تخاطب نفسها :

ـ لكنــــه ··

لم يدعها تكمل ، لن يتركها تواصل الحديث معه ، ضرب مسند المقعد بكفيه يريد أن يحطمه ، وانطلقت ســـاقه ترفس الفضاء أمـــامه ·

وقال بكل ما لديه من طاقة غضب :

ـ يغور فى ستين داهية ·· لن يستعبدنى ·· ولو ضعفت أمامه أو تخاذلت فسيأتى اليوم الذى يضربنى فيه ·· وسأكون فى حال أضعف ·

همست لدهشـــته :

ـ كاد أن يضربنى ·

انها تستسلم تماما ·· تشكو له تصرفات الولد ·· تعترف بأنها خافت ·· انها منهارة تماما ·

قال بقوة وكفه تضرب على المسند :

ـ اذن لا داعى للكلام ·· ولا للتخاذل ·

همســـت :

ـ لست متخاذلة ·

فمضى يقول كأنه لم يسمعها :

ـ لا تقولى انه خرج بلا نقود ·· ولا تســـأليني أين ذهب فى هذه الساعة ·· ولا تذكرينى بأن اليـــوم عيد ·· كل هذا لا يعنينى ·· ان هذا الولد قد فسد ولن أسمح له بأن يفرض فساده على بيتى ·· انا حر فى بيتى ·· وهو حر يفعــــل

ما يشاء فى أى مكان آخر ·· أرض الله واسعة ·

وصوب اليها نظرات قوية ، وهو يراجع نفسه فى أمـر ارتفاع صوته ، مقررا أن الأفضل هو أن يخفض صوته ليبدو فى مظهر أفضل من الاتزان والوقار ·

قال بصوته الجديد الوقور :

- اذهبى ·· أنت ·· ونامى ·

همست وهى تنظر اليه وشحوبها يزداد ، وعيناها تدمعان :

- وأنت ··

ولم تكمل ·· كانت الدموع قد وصلت الى صوتها ·

قال متجاهلا دموعها بصوته الخفيض الوقور وكأنه يتحدث فى أمر لا يهمه :

- أريد أن أجلس هنا وحدى بعض الوقت ·

ثم قال بلهجة سريعة :

- اذهبى ·· ونامى ·· لا داعى للوقوف هكذا ·· نحن فى الفجـــر ·

نظرت اليه ، تفحصه ، كأنها تراه من جديد ، وتتعرف فيـه على شخص لم تعرفه من قبل ، هكذا خيل اليه ، بدا أنهـــا مترددة ، وأوشكت ان تقول شيئا ، ثم تراجعت ، وأدارت لـه ظهرها وأغلقت الباب ·

استنشق الهواء بعد اختفائها ، فشـــعر به يملأ رئتيه ، وشعر فى نفس الوقت بتوتر فى جلد بطنه ، فضغط عليهـــا

بكفه ، وهو يستشعر معنى جديدا مدهشا يتمدد فى نفسه ، لقد عاقب زينب بطرده لحسن ، وأنها حيث أرادت أن تلومه على افساده للولد ، واهماله لتربيته ، قد وجه اليها صفعة فى الصميم عندما طرد ابنها أمامها ، عندما شكت له حسن ، كانت تتهمه هو بالوقاحة ، عندما قالت انها خافت اعتداء الولد عليها ، وانها أغلقت على نفسها حجرة النوم بالمفتاح ، كانت تريد أن تقول له : انى لا أريدك وأنفر منـك ، نعـم هـــذا هو الأقرب الى الحقيقة من تصوره السابق ، أنه كان يعاقب الصبى المراهق الكامن فى أعماقه بذكرياته وأشباحه وهـو يعاقب حسن ، ليس صحيحا أن حسن هو يوسف الذى تصادم مع أمه كوثر هانم منصور التى غيرت اســـمها الى كوثر هانم صبرى ، وليس صحيحا أن خروج حسن الآن هو ما كان يجب أن يفعله يوسف منذ خمسة وثلاثين عاما عندما عجز عن ترك بيت أمه ، الأمر مختلف تماما ، ولقد حمل يوسف عجزه عن التصرف معه ، وفرضه على حياته وعلى كل من اختلط بهم فى هذه الحياة ، أما حسن فقد خرج يواجه التحدى ، ومن يدرى لعله يفلح ويصبح له شأن عظيم حتى لو بدأ الآن حياته شحاذا فى الطرقـــات ·

على أية حال ان الأمر لن يصـــل الى هذا الحضيض ، فأغلب الظن أنه سيسير فى شوارع مصر الجديدة حتى يصل الى بيت عمته كريمة ، ولسوف تنزعج عندما تراه يدخل عليها

بالبيجاما والشبشب ، وسيروى لها قصة مختلفة ، وسيحاول أن يكسبها الى صفه ، ولكن كريمة عاقلة وستحسن التصرف ولسوف تعود به ليعتذر بعد أن تتصل به بالتليفون لتطمئنه ، وعليه ان يفكر من الآن فيما سيقوله لكريمه غاضبا ، عليـــه ان يضع شروط دخوله البيت مرة أخرى ، ان يكف الولد عـن استخدام تلك اللهجة الوقحة وهو يتهم أباه بالكفر ، عليــه أن يحترم الصور التى يطالب بنزعها من الجدران ، ان بين هذه الصور صورة جدك يا كريمة ، الصورة التى كنت تريدين تعليقها فى بيتك .

ألم تقولى لحسن أنه يشبه جده فى ملامح الوجه ، وعيناه الضيقتان الماكرتان ورأسه الكبير وجبهته البارزة ، وشفتاه الرفيعتان والذقن المستديره والأنف القصير كالمنقار ، كم مضى من عمره وهو يراقب هذه الصورة ويتبعها قبل مجىء حسن ، وكم مضى من عمره وهو يراقب هذه الصورة ويتفحصها ليعقد مقارنة بين ملامح حسن وملامحه وملامح أبيه وملامح جده .

هل يحرم الدين أن يتعرف الانسان عـــلى ملامح أبنائه وآبائه وأجداده ، الشيخ عبد السلام صبرى لم يعترض ابدا على نشر صوره فى المجلات والصحف ، وكانت صورته وهو مجلس الى مكتبه شـــيخا جليلا مهيبا للأزهـــر تحتل مكان الصدارة فى حجرة الضيوف ببيته فى جاردن سيتى ، لم يسمع منه أبدا أن صورة شقيقه لطيف صبرى مع زوجته الجديدة

كوثر هانم حــرام .

قال له : يا بنى ان ما فعلته أمك حلال وفيه صون لها ولك ولم يقل له ان الزواج حرام وان صورة الزواج حرام ، وبعد أن تحمل الزواج والصورة كل هذه السنوات يأتى هذا الولد ليقول له فى وقاحة انزع صورة جدك وصور جدى وكل صورة فى البيت لأنها كلها صور حرام ، وقاحة لا حدود لها تزداد حتى تصل الى درجة الاستفزاز وهو يقول له بلهجة آمره : لابد أن تصـــلى .

الحاح واستفزاز يربكه لأنه لا يجد اجابات واضـحه يرد بها مفسرا أنه مسلم لا يصلى ، يؤمن بالله ورسوله وملائكته واليوم الآخر ولا يصلى ، كان يكتفى بأن يقول له لا شأن لك بى ، أنا حر فيما أفعل ، الله وحده هو الذى يحاسبنى ، وهو وحده يعلم ما فى صدرى ، لم يقل له انه كان له هو أيضـــا أب ، وكان هذا الأب هو جدك لا يصلى ، ولم يطلب منى أن أصلى ، مع ذلك لم يشك أحد فى اسلامى ، حتى الشـــيخ عبد السلام صبرى الذى يتبارك الناس به ويقبلون يده وهو يهبط من سيارته أمام البيت فى جاردن سيتى لم يتهمه يومـا ما بالكفر ، كان يسأله برفق ، لماذا لا تصلى يا يوسف ، فيقول له ، أنا مسلم يا عمى ، فيقول الشيخ بصوته العريض المهيب ، حاشا لله أن تكون غير ذلك يا بنى ولكن الصـلاة واجبة ، وها هى امك تصلى وعمك لطيف يصلى ، لم يقل له زوج امك ،

ولم يهدده ولم يتوعده ، كان يقول له بصــــوت أجش يفيض عاطفة ، الله تعالى ليس بحاجة الى صلاتك يا يوسف ، أنت الذى فى حاجة اليها ، ولسوف تندم كثيرا لو أهملت هــذا الفرض الذى فيه أمنك وراحة بالك ·

كانت كلمات الشيخ تنفجر فى أعماقه بين وقت وآخر ، حتى أدرك أنه كان يصلى لأنه مصمم على أن يتمرد على كل ما تتميز به تلك العائلة المتدينة التى سلبت منه أمه · سيتبع أباه الذى لا يذكر أنه رآه يصلى حتى اختفى من هذه الدنيا ، ولن يتبع عائلة الشيخ صبرى حتى لو كان فى ذلك أمنه وراحة باله ·

كيف يســـتريح وأمه زوجة رجل غير أبيه ، انه يتعذب ، ويشعر بالمرارة والقهر ، بل يشعر بالفضيحة ، ولسـوف تبقى الأزمة فى صدره ، لن يعالجها ، ولن يطفىء لهيبها ، ولسـوف يحمل قلبه المصدوع الى يوم الحساب ، ولســوف يقبل الحكم الذى قد يغفر وقد ينتقم ، قد يقهر ولكنه لابد أن يعــدل ، انها أزمة لن يرضى فيها بحكم بشر مهما كان هؤلاء البشر ، ثم يأتى ابنه ليحدثه كعدو يتحداه كأنه خصـــم لدود لا والد له حق الاحترام والطاعة ··

لماذا لم يفتح صدره لحسن ويحكى له مشاعره الحقيقية ، يقول له انه لم يتمــرد على الدين ، ولكنه تمــرد على امه وزوجها ، كما تمرد على الجامعة وقرر أن يرســـب فى كل امتحان لمجرد ان يتمتع برؤية أمه تبكى يائسة · ربما لو كان

أفصح عن تمرده القديم لخفف من وطأة تمرد ابنه ، ذلك التمرد الجديد الذى ينقلب عليه كأنه انتقام مدبر يريد أن يفرض عليه الاعتراف بهزيمتـــه ، والاقــرار بأن كل ما فعـله كان عبثـا وضياعا وهباء ·

تململ يوسـف فى مقعده ، ونهض قبل ان يفكر لماذا نهض ، ونظر عبر الزجاج الى الشارع الذى اكتسى بضـــياء الفجر ذى الزرقة الناعمة ، كان يتوقع أن يرى حسن · وكان يوشـك أن يقول لنفسه ، لو رأيته فلســوف اهبط اليه وأمضى معه الى صلاة العيد · ففوجىء بما روعه ، جموع يسيرون فى ملابسهم البيضاء مهرولين صفوفا بعد صفوف ، جماعة وراء جماعة ، وفتح الزجاج وأطل برأســـه باحثـا عن حسن واقفـا على الرصيف تحت العمارة ، كان الرصيف خاليا ، والشـــارع مزدحما ، وسمع الله اكبر الله اكبر ولله الحمد ·

وكانت عربة جيب فيها رجال شرطة تســير على مهل على يمين الشارع وعلى الجانب الآخر كان بعض الرجال والنساء فى العمارات المواجهة يطلون من النوافذ والشــرفات على السائرين المكبرين ، وقال يوسف لنفســـه : لابد أنه انضم لهؤلاء الذاهبين الى صلاة العيد · لن يكون منظره شاذا بينهم وهو ســائر بالبيجامة والشبشب فأغلبهم يرتدون الجلاليب البيضــاء ، وبينهم أولاد أصغر من حسن يرتدون البيجامات وينتعلون الشباشب · وقال لنفســه الولد لن يحتاج الى نقود للصـــلاة ·

وقال لنفسه وقلبه يدق بشدة ، تركنى حسن لينضم الى هذه الحشـــود التى لا ينقطع تدفقها ولا ينقطع تكبيرها ، لابد أنه يشعر بينهم أنه الأقوى ، وهذا الشعور لابد انه يرضيه ، وقال لنفسه والخوف يجتاحه لقد ضاع الولد ٠

كان يفكر فى أن حسن قد ورث عن جده الأكبر حب الزعامة والقيادة ، كانت أبلة هناء مدرسته فى روضة الأطفال هى أول من اكتشف فيه موهبة الزعامة ، فكانت تلعب بأصـــابعها فى شعر رأسه وتقول ليوسف :

ـ الولد عفريت ٠٠ كله حيوية وشقاوة ٠

قال لها :

ـ لعل المدرسة تستطيع كبح جماحه ٠

فاحتجت أبلة هناء قائلة :

ـ بالعكس ٠٠ ان شقاوته دليل على أن شخصيته ســتكون قوية ٠٠ لقد لاحظت أنه القائد بين الأولاد فى الفصل ٠

قال لها مزهوا بما يسمع :

ـ نحن نقول انه يشبه جده الكبير ٠٠ اى جدى انا ٠

وأصبح من المألوف أن يردد فى كل مناسبة أن حسن سوف يكون قائدا عسكريا عظيما ٠٠ وأنه ورث هذه القيادة عن جده الكبير يوســف باشــا منصــور ، واقتنعت زينب بأن هذا هو مســـتقبل ابنها ، رغم كراهيتها للحرب ، واتهامها للحيــاة العسكرية بأنها حياة مظاهر وعجرفة ولا شىء اكثر من هذا ٠

عندما وصـل حسن الى المرحلة الاعدادية كانت الحال قد تغيرت ، وأصبح المدرسون يطلبون من الأولاد الخضـــوع والطاعة العمياء ٠ لا يعترفون بالشـــقاوة ولا بشىء اســـمه الشخصية القوية ٠ وواجه حسن ناظر المدرســـة وهو يجمع شلة الأولاد الأشقياء وعلى رأسهم حسن وقال لهم وهو يضغط على اسنانه متوعدا :

ـ سوف أشتتكم ٠٠ لن يجمعكم فصل واحد ٠٠ ســأبطش بكم بلا رحمة اذا صدر منكم أى شىء ضد النظام ٠ فلما تزعم حسن فريق كرة القدم يلعب فى الفناء اثناء الفســـحة ويثير ضجة غير عادية بين التلاميذ ، ألغى الناظر الفريق ، ونادى حسن ٠ وقال له :

ـ سوف أحافظ على النظام فى المدرســـة بمعاونتك ٠٠ لقد قررت انشــــاء فرقة للشرطة من تلاميذ المدرسة لمعاونتى فى الاشراف على النظام أثناء الفسحة ٠٠ وستكون أنت رئيس الفـرقة ٠

وعاد حسن الى البيت وعلى رأسه طاقية حمراء بها خطوط بيضاء ، وعلى ذراعه شريط أحمر ٠ وقال لأبيه مزهوا :

ـ أنا رئيس الشرطة فى المدرسة ٠

فسأله متعجبا :

ـ وماذا تفعل ٠٠ ؟

قال حسن بكبرياء القائد فيذكر يوسف بجده :

- أقف على باب الناظر أثناء الفسحة ، وأطل على الفناء •• وأذا حدث شغب •• أقبض على التلاميذ المشاغبين •• لمحاكمتهم وتوقيع العقاب •

قال يوسف ضاحكا :

- عظيم « لقد أصبحت ذا سلطة » •

ثم أردف قائلا :

- هذا ما كانت تتوقعه أبله هناء وأنت فى الروضة •• هل تذكرها ••

وفوجىء بوجوم ينتاب حسن ، اختفى الزهو ومعالم الكبرياء من وجهه ، وكأنه تذكر شيئا أفزعه • وقال وقد تغير وجهه :

- نعم أذكرها ••

فسأله :

- مالك •• هل هناك ما يضايقك •• ؟

قال حسن شاردا :

- أبدا ••

بعد يوم كشف حسن عن همومه اذ قال له بعد أن عاد من المدرسة على رأسه القبعة الحمراء ذات الخطوط البيضاء وعلى ذراعه الشريط الأحمر •

- لا أظن أنى سأستمر كرئيس للشرطة ••

فسأله فى دهشة :

- ولماذا تتخلى عن مسئولياتك •• ليس هذا ما أتوقعه منك •• ؟

قال حسن ببساطة :

- لأن هذا الوضع الجديد •• هو رشوة من المدرسة لأقف ضد أصحابى ••

رشوة ، أيتحدث هذا الولد الصغير عن الرشوة ، أيفهم معنى ما يقوله • أم هو يستعيد حوارا سمعه فى تمثيلية فى التليفزيون •• ربما تمثيلية هو الذى كتبها ؟! •

قال لحسن وهو يحاول أن يتذكر بسرعة أية تمثيلية كتبها فيها حديث عن الرشوة :

- لو سمعت أبله هناء بأنك تتخلى عن القيادة •• سوف يخيب ظنها فيك •

قال حسن بسرعة :

- أبدا •• عندما ذكرتنى بأبله هناء •• ساعدتنى على أن أتخذ قرارى ••

الولد يتحدث عن اتخاذ القرار • ماشاء الله •• وتذكر ملف التحقيقات الذى نقل منه تمثيلية الرشوة ، فصاح :

- أنت تقلد بغباء ما تراه فى التليفزيون •• المدرسة لا ترشو •• والمحافظة على النظام شىء ضرورى لضمان حسن تعليمكم •

ولكن حسن عاد الى البيت فى اليوم التالى وقد نفذ قراره ، خلع القبعة الحمراء ذات الخيوط البيضـــاء ونزع الشريط الأحمر عن ذراعه · تمرد على النظام ، ورفض ما يســميه رشوة وانضم الى أصحابه المشاغبين وجاء خطاب فصــله لمدة أسبوع ، وقال ناظر المدرسة ليوسف : انه لم يشـــهد فى حياته فوضى أو تمردا مثل هذا الذى يواجهه فى ابنه حسن · ورسب الولد فى نهاية العام ··

وقال حسن وهو يبكى :

ـ هذا ظلم · تعمدوا رسوبى ·· حتى يفرقوا بينى وبين أصحابى ·

قال له يوسف :

ـ مستحيل ··

فصرخ حسن متحديا غاضبا · كانت أول مرة يصرخ فيها فى وجه أبيه :

ـ أنت لا تريد أن تدافع عنى ··

فبادله الصراخ :

ـ أنت الذى تبرر رسوبك وخيبتك ··

ولكن حسن كان قد فقد احترامه للمدرســـة ·· ســقطت هيبتهـا ·

كان يردد :

ـ كل ما يهمهم النقـــود التى يقبضــــونها فى الدروس الخصوصية ·· كان يكيل الاتهامات ، مدافعا عن زعامته ، عن شخصيته التى أرادت أبله هناء يوما ما أن تتيح لها اكبر قدر من النمو · كان يدافع عن كلمات قديمة ســـمعها وهو طفل ، انه يملك موهبة الزعامة والقيادة ، ان شخصـــيته قوية كان مصرا على أن يحمى كل هذه الأوصـــاف والألقاب التى اكتسبها فى طفولته الأولى ، ضـــد الذين يريدون أن يحرموه ويجردوه من صفاته وأســـمائه التى امتلكها · ويهاجمونه بأوصــــاف وأســـماء أخرى ، انه فاشل وانه راسب ، وانه مستهتر ، وانه كسول ، وانه غير فالح ولا يصلح لشىء ·

ولم يفقد احترامه للمدرسة وحدها ، بل فقد احترامه فى نفس الوقت للبيت ·· كيف حدث هذا ·· متى بدأ تمرده فى البيت أيكون ذلك منذ تلك اللحظة التى حذر فيها الطبيب أمه زينب من الاكتفاء بولد واحد ؟

كان حسن هو الذى ألح عليهـــا أن تأتى له بأخ أو أخت ، وكانت تضحك أو تسخر · فاذا بالغ فى الحاحه ســألته اذا كان يفضل أخا أو أختا ، وكانت تقول له : الأخ ســــوف ينافسك · والأخت سوف تحملك مسئولية ، وكان يقول لها : أخا أو أختا ·· المهم أن تأتى لى بمن يكون معى ، ولكنـــه بعد تفكير اعترف لزينب · انه يفضل أن تكون أختا ··

وفوجىء حسن ذات يوم عندما قالت له أمه : انه كانت له أخت ذهبت بعد شهور من ولادتها · فلما عرف أن أمه تحتفظ

بصور لشقيقته سعاد ، تلك الشقيقة التى كانت • صمم على أن يرى الصور وجعل يحدق فى وجه سعاد السمين المكلبظ ، وعيناها الواسعتان تعبران عن كل دهشة الدنيا من رؤية الدنيا ، وابتسامة خفيفة تكاد لا ترى على الشفتين • ورفض حسن أن يترك الصور جعل يقبلها ، وفجأة قبلها وبكى ولم تجد زينب مفرا من انتزاعها من بين يديه فلم تعد تحتمل بكاءه ولا نظراته وما يثيره الموقف فى نفسها من آلام وأحزان • ورغم ذلك صممت زينب ألا تكون لها تجربة أخرى فى الولادة • كانت قد اقتنعت بأن كيانها وكرامتها لن يتأكدا فى الحياة • وهى تتسول نقود ملابسها من يوسف ••

وكانت تدرك أن أعباء الحياة تزداد ، وأن قدرة يوسف على الكسب تضعف فهو مضطر الى انفاق الكثير مما يحصل عليه من الكتابة لتدعيم وجوده فى السوق • الحفلات والرشاوى ودفع نصف ما يحصل عليه للمخرج الذى يرضى باخراج أعماله • وانفاق كل ما يأتيه من ناشر رواية له على نقاد يكتبون عنه سطورا أو ينشرون له صورة • لابد من الدعاية يا حبيبتى • خمسون فى المائة من رأس المال فى أمريكا ينفقونه على الدعاية • هذه هى روح العصر • عندما اعلنت زينب أنها ستكف عن الانجاب ، وافقها ، وعندما قررت أن تتعلم لتعمل أحس بالاهانة ، أتريد أن تحصل على شهادة جامعية رفض هو أن يحصل عليها •

قالت له : أنت خدعتنى لست متعلما ولا مثقفا • أنت مجرد تاجر ورق مكتوب • وكل ما تكتبه تسرقه من ملفات التحقيقات • وندم أنه وافقها على عدم الانجاب ولكن فات الأوان فها هى تتحداه معلنة أنها ليست مصنعا لانتاج الأولاد من حقى أن أعيش ومن حقى أن أعمل لن أعيش حياتى خادمة لزوج وأولاد •

ورأى حسن والديه يتصارعان ويتشاتمان • كان فى الثانية عشرة عندما استيقظ فزعا من النوم ليرى أمه تصرخ خارجة من المطبخ فى يدها سكين ، وأباه يصرخ تريدين قتلى يا مجنونة ••

وهجم حسن على أمه وانتزع من يدها السكين • قاومته ولكنه لم يتراجع ، فلما أفلح فى انتزاعه منها انتابتها حالة هستيريا فجعلت تلطم خديها مولولة • نادبة حظها التعس • طالبة الطلاق فى الحال • أن يحضر المأذون فى الثالثة صباحا ليطلقها •

والتفت حسن الى أبيه والسكين فى يده ، وقال له بلهجة غاضبة : لا تقف هكذا أمامها •• اذهب الى حجرتك ••

وأذعن يوسف • فتقهقر ولكن حسن سارع ينبهه أن يذهب الى حجرته هو • فذهب مذعنا الى حجرة ابنه • وجلس على سريره فى انتظار عودته • وعاد اليه حسن • وقال له فى هدوء : انها قد هدأت ثم أردف بلهجة خطيرة كأنه هو الكبير الذى

يحدث طفلا ، ليس لك الحق يا أبي أن تمنعها من العمـــل ٠ حسن هو الذى يتحدث عن الحقوق ويحدد من هو صـــاحب الحـــق ٠

هو الذى يتحدث عن الخطأ والصواب ٠انه لا يتحدث بل يتصرف يهجم على اليد الممسكة بالسكين وينتزع السكين ٠ يواجه هســتريا زينب ويهدئها ٠ يأمر أباه بالابتعاد ٠ أباه الذى يتفرج ٠ أباه الذى لا يفصح عن حقيقة أعماقه ٠

أكان من الضــــرورى فى ذلك اليوم أن يقول لحسن أمك تغضبنى لأنها تثير فى نفسى أحقادا لا أستطيع أن أسيطر عليها تتهمنى بأنى لم أتعلم وهى لا تعلم الثمن الذى دفعتــه حتى أفرض نفسى على عالم التأليف وأتخذ مظهــر الأديب المتعلم المثقف ٠ بل لم تكلف نفسها السعى لفهم الدوافع التى أدت بى الى الرسوب فى الامتحانات ٠

أكان من الضرورى فى تلك اللحظة أن يقول لحسن بعد أن يسمح للدموع أن تتفجر من عينيه ومن قلبه ، انه يريد حنانا ضاع منه يريد عطفا افتقده منذ زمن بعيد ، يريد معاشـــرة فيها طيبة وقبولا له كما هو ، بالظروف التى صنعته بالأزمة التى تلازمه وأصبحت جزءا أســـاسيا من كيانه ٠ ما كان يستطيع أن يصيغ ما فى قلبه ٠ وما كان يســـتطيع أن ينهار أمام ابنه ٠ أبوه كان لا ينهار ، وجده كان مهيبا عظيما كان أسطورة ولا يســـتطيع أن يدنس أباه أو جده ، بأن يعترف

للحفيد الأصغر بانه نفاية ، أنه بقايا رجال لم يعد يأتى الزمان بمثلهم ٠ وأن أمه كوثر هانم تنكرت لهم فأصبح لزاما عليه أن يحافظ على ذلك الذى ذهب وأن يتمسك بذلك الذى ضــاع وأن يتشبث بتاريخ لا يعترف به احد ٠

لأنه لم يقو على أن يقول لابنه شيئا ٠ لم يبق له غير تبادل الشتائم مع كوثر هانم الجديدة التى تريد أن تتنكر له قبل أن يذهب ويختفى ٠

وفقـــد حسن احترامه للأب والأم بعد أن فقـــد احترامه للمدرســـة والمدرسين ٠ الكل ســـقطوا أمامه ٠ أو أســـقطوا أنفســـهم أمامه ٠ الكل أعلنوا فى صراحة متناهية عجزهم وعدم قدرتهم على التعامل الانســـانى ٠ الأخ يحرم عمدا من الأخ ٠ الصـــاحب فى المدرســـة يحرم عمدا من الصـــاحب ٠ الزوج والأب يشـــتم الزوجة والأم ٠ والأم والزوجة تعلن انكارها وعدم احترامها للأب والزوج ٠

لا يدرى يوســـف كم من الوقت مضى وهذا الشريط من الذكريات الجارحة يشق رأســـه ويدمى قلبه حتى انتبه على زينب واقفة عند الباب وقد ارتدت ملابس الخروج ٠

وسمعها تقول فى جزع :

ـ انه مازال واقفا خلف الباب ٠

قال لها متعجبا :

ـ ولماذا ارتديت ملابسك ٠٠ ؟

قالت بلهجة حاسمة :

ـ سأخرج لأبحث عنه ··

قال :

ـ ولكنك تقولين انه واقف خلف الباب ··

قالت كالمجنونة :

ـ سأذهب وأفتش عنه حتى أعثر عليه

أراد أن يستعيد كل قوته التى تمتع بها فى تلك اللحظات التى أعقبت طـــرده لحسن · ولكن التوتر الذى يقبض على أمعائه ويشد جلد بطنه كان يشتد ويعنف · وسمعها تقول :

ـ لقد وقفت عند الباب أنصت ·· وســـــــمعت أقدامه تتململ ··

سكت عاجزا عن النطق · لا يريد أن يورط نفســـه بكلمة تفضح عجزه وضعفه · وكان يتمنى فى أعماقه أن يســـمعها تقول :

ـ سأفتح الباب وأدعوه للدخول ·

وسمعها تحقق أمنيته :

ـ سأفتح الباب وأدعوه للدخول ·

تمسك بصـمته · ولكنها رفضت أن يلوذ بشىء · لابد أن يقول كلمة · لابد أن يفضح مشاعره واضـــطر أن يقول : افتحى الباب وانظرى ·

واتجهت الى الباب فتحرك خلفها ببطء وقد استولى عليه الخوف · وسمع الباب يفتح وساد الصمت · لم يتحمله وأطل برأسه · الباب مفتوح وهى قد اختفت · ولا صـــوت · لابد أنها التقت به لابد أنها تراه · ولكنه لا يســـمعها تتحدث ولا يسمع أقدامها تبتعد · ولا يراها تدخل · ماذا حدث ؟ الباب مفتوح ، كفجوة على مجهول · هوة تفغر فاها على ظلام بلا قرار ·

أتختفى هى الأخرى ·· تضيع منه كما ضـــاع ابنه · أم يراهما فى هذه اللحظة داخلين من هذه الفجـوة التى هى الباب ؟

ولكنهما لا يدخلان ·· وتجمد مكانه وقد اســـتولى عليه الهلع · الهلع فى قلبه والهلع فى فجوة الباب ·

هاهـــــــو

اللـواء الحـوت يركـع عنـد فجـوة الباب الذى خرجت منه زينب تبحث عن حسن ·

انه يسجد · انه يصلى · مازال يصـــلى · متى يفرغ من صلاته لتتحدد المسئوليات ·

قال يوسف لنفسه وهو يحـاول الخـروج من ذكرياته ، لا أظن أن هذا الرجل الذى يسـجد لاصـقا جبهته بالتراب مصليا لله ، حيث لا رقيب الا الله ، حيث لا مجال للتظاهر أو الخداع ، سوف يخذلنى ، انه لن يضيع هذه الصلاة الخالصة لوجه الله ، بالكذب أو النكوص عن الشـهادة · المشـكلة الحقيقية تنحصر فى أنه لا يريد أن يتكلم الا هنـا ولأنه واثق لسبب غامض أنى لن أعود وأكشف اعترافاته وأطالب باعادة التحقيق · انه يسعى الى اعتراف يخلص به ضميره · كأن مجرد الاعتراف يصحح تصرفاته التى ارتكبها · سأطلب منه ان يكتب اعترافاته وأن يوقعها ، سـأبحث فى هذا المكان عن جهاز تسجيل أسجل فيه بصوت الحوت كل كلمة يقولها حتى أضمن بقاء شهادته ، فلو امتنع عن العودة معى · أو حدث

ما يمنع عــودته ، فســأمضى وحدى الى القـــاهرة ومعى المستندات ·

متى يفرغ من صلاته · أيتعمد الاطالة ليتخلص من وعده ، أيصلى حقا أم هو يقوم بتمثيلية بارعة ليدبر لى أمرا ؟

تذكر يوسف كريم شاكر وهو يقول له:ان اللواء الحوت مازال يواصل أعمال التحرى كمبعوث فى مهمة من المباحث ، وانه يتوقع أن يكتشف وكرا فى الصحراء لأفراد جمعية دينية ارهابية هل هذه مهمته الحقيقية · هـل جاء الحوت وراء الاب بعد أن أودع الابن السجن ، أهى حيلة ماكـرة من رجل المباحث للكشـف عـن مؤامرة يتوهم وجـودها ويبحث عن مزيد من الضحايا لها ؟ لماذا سعى اليه الحوت منذ أول لقـاء ، لماذا جذبه من يده الى هـذه الصحراء ·· لماذا ذكر له اسم مراد حسنين ؟ ثم ما الـــذى يدفعه



الى الاعتـــراف بهـــذه الجـــرأة الوقحـــة ، انه المسئول عن الكارثة التى لحقت بحسن · هل من المعقول أن يعترف رجل المبـاحث بمثل هذا الاعتراف الذى يدينـه الا اذا كان يريد استفزازه وشن حرب أعصـاب عليه ليثور ويغضـب ويتهور ويسـب ويشـتم ويعترف له بأنه شريك فى المؤامرة : لكـن أية مؤامرة ؟ ان فى الأمر خـدعة ، كم من الخدع تعرض لها منذ أن غاب حسن فجر ذلك العيد الكبير ·

ألقى يوسف نظرة حذرة على الحوت الساجد ، فخيل اليه أن جسد الرجل يرتجف ، وهز رأسه وابتعد خطوات يريد أن يراجع ما مر به من أحداث قبل أن يخرج الحوت من صلاته · يخرج طاهرا من لقاء صادق بربه · أو يخرج شيطانا مدنسا ليعد مكيدة غادرة · ترى من أين ينفذ اليه الحوت بمكيدته ، وهو لم يخرج فى تصرفاته عما قد يفعله أى أب آخر ضاع منه ابنه الوحيد ؟ عندما عاد اليه زينب فجر ذلك اليوم نظرت اليه يائسة · اختلطت ملامح وجهها بالهلع والقسوة وقالت بصوت كله أنين :

– انه غير موجود ·

قال لها محاولا أن يتماسك :

– لعله هبط الى تحت ··

قالها ورأسه مزدحم بحشود المتجهين الى صلاة العيد ،

وعيناه تبحثان عن حسن بين صفوفهم بلا جدوى ·

قالت :

– بحثت عنه عند البواب ·

وسكنت خائفة ، فلم يحتمل أن تتوقف لحظة واندفع فى لهفـة ·

– وماذا قال البواب ·· هل رآه ·

همست وقد تجمع الذعر كله فى وجهها :

– لم يره ·

جرى خارجا من البيت · هاربا من وجه زينب ، سـاعيا وراء وجه حسن ، تلقفه التيـار المتدفق ·· الله أكبر ولله الحمد · طوفان يجرف من يعترضه فى الطريق · أجسـاد وجلاليب وأقدام تحتك بالارض ، واندفاعه عامـة تجرفه ، كأنه لم يعد شيئا ، غير قادر على أن يرى أو يسمع · فلما عاد الى زينب وحده ، انفجرت باكية ، انهار كيانه ، سقط الأب المنتصر الذى طرد الولد من البيت ، سقط الزوج المنتصر الذى عاقب الزوجة بطرد ابنها ، تحول فى لحظة الى المجرم المذنب الذى طرد الولد الصغير · الحيوان الشرس الذى داس فوق ابنه بقـدميه ورماه تحت أقدام هـذا الطوفان الجـارف فى الطريق ·

أهذه هى الجريمة التى يسعى اللواء سعد الحوت لمحاكمته عليها • أيعتقله باسم سلطات الدولة لأنه الأب الذى دفع ابنه الى سلوك الجريمة ؟

التفت الى الحوت ، كان ينهض من سجوده مستمرا فى صلاته ، ليس من اختصاص الشرطة ولا قوانين الدولة محاسبة الآباء على ما يرتكبونه فى حق الأبناء • لا أحد يهتم أو حتى يجرؤ على التدخل فى هذه العلاقة بالغة الخصوصية بين أب وابن • زينب هى التى اتهمته •

مشى يوسف مبتعدا عن الحوت ، كأن رجل المباحث سوف يراقب أفكاره خلسة ، كانت زينب تصرخ :

– اذهب وابحث عنه •• لا أريد أن أراك قبل أن تعود الى بـه •

طأطأ الرأس وخرج • الناس فى عيد ، موجة فرح ونشاط ، وجوه باسمة ، ملابس زاهية ، أصـوات مرحة ، الكل ألقى بأحزانه وهمومه فى قلب يوسف وبيت يوسف وانطلق طليقا يستقبل أول أيام العيد •

قالت كريمة شقيقته :

– اطمئن •• الولد زهق منك أنت وزينب •• لقد قال لى انكما تكثران من الشجار •• وهو الذى يصلح بينكما •• لأنه

أعقل منكما •• صدقنى سوف يعود بعد أن يقضى بعض الوقت مع أصحابه •

كانت تتكلم باسمة فى عصبية • لعلها كانت تلومه لأنه جاء يفسد عليها العيد ، ، حولها أولادها ومعها زوجها ، وأمامهم الملبس والشـيكولاته وحديث كامل زوجها عن خوف الولد الصغير حمادة من أكل اللحم المسلوق على الافطار بعد أن رأى الخروف وهم يذبحونه • وسلوى تصرخ فى أذن يوسف بالحاح ليسمعها ، انها لاتخاف وأنها ستأكل الخروف كله • استسلم للتفاؤل الذى فرضته عليه كريمة وزوجها والأولاد ، انهم يدافعـون عن عيدهم الذى انتظـروه واسـتعدوا له ليفرحوا ، ليس لديهم أية رغبة أو استعداد للتورط فيما يعكر عليهم فرحة العيـد ، لابد ان يكتم الانين وصراخ الآلم الذى يتمنى لو استطاع أن يخرجه من صدره ، معلنا أن قلبه يحدثه أن ابنه الوحيد قد ضاع الى غير رجعة •

عندما وصل الى التليفزيون ، لم يجد أحدا يستمع اليه ، الكل مشغول بنفسه ، حكاية خروج حسن من البيت لا تثير انزعاج أحد ، كان البعض يتركه يروى حكايته وهو لا يسمع أو يقاطعـه ليروى له خبرا أو نكتـة سـمعها ، كان يقف فى الكونترول باستوديو ٥ ـ شاشات متراصة تجمد فيها مشهد ممثلة الكوميديا « بطة » وهى تخرج لسانها ومحمد صفوت الذى أخرج له أول تمثيلية فى التليفزيون فى بدايته أيام كانت

هذه الأجهزة لتركيب المشـاهد ومـزج الأصـوات حلمـا من الأحـلام · يهرش رأسـه · انـه الآن مشرف عـلى الأفـلام التليفزيونية · وهو غير مرتاح لمشهد اخراج اللسان · يخشى أن يكون التعبير بذيئا ، أيقطع المشهد ؟ يحذف الصـوت ؟ التعليقات لا تنتهى ، وبطة تختفى وتعود على الشاشة وتخرج لسـانها ، اقطع لسـانها ، المشـهد جديد وحلو ، نترك الأمر للرقابة ·

فجأة التفت اليه صفوت وسأله :

ـ ما الذى جاء بك فى يوم العيد ·· أليس لك أهل ؟

لم يسمع صفوت الحكاية قبل أن تمضى ساعة · نظر فى ساعته وقال معاتبا :

ـ لا تجعل من الحبة قبة ·· كل الأولاد بتطفش فى هذه الأيـــام ·

ثم أردف ساخرا وهو يربت على كتف يوسف ·

ـ كله مكسب ·· سوف تخرج من هذه الحكاية بمسلسل جـديد ·· لكن صـفوت كان ملجأ حيـويا ليوسف فى هذه اللحظة · بذل جهدا ليقنع صفوت بخطورة موقفه · البيت فى مناحة · لو عدت الى أم الولد وهو ليس معى ستقتل نفسها ·

بذل صـفوت آخر محـاولاته لتهدئته والخـلاص من هذه المشـكلة التى لا تتناسب فى تفاهتها مع خطورة قرار قطع لسان بطة وضياع مشهد ناجح ·

ـ اتركها تقتل نفسها ·· فرصة وتستريح ·

فلما رفض يوسف أن يضحك ، شعر صفوت أنه قد تورط فى أزمة صديق لجأ ليساعده · قال مترددا :

ـ ماذا تفعل الآن اليوم عيد والكل فى أجازة ·· ولابد أن تنتظر ·· لا داعى لابلاغ الأقسام والمسـتشفيات ·· سـوف يسخرون منك ·· على أية حال اذا تأخر سوف نذيع نشرة عنه مع صـــورته ·

همس يوسف والذعر يخنق صوته :

ـ لا أستطيع الانتظار ·

فقاطعه صفوت :

ـ أنت متسرع ومتشائم بلا مبرر ·

الوجوه التى أحاطت بيوسف وصفوت تحاصرهما لا يعنيهم ما يسمعونه ، أب يبحث عن ابنه ، ليس فى هذا ما يدعو الى تعطيـل العمـل ، وتأخير خروجهم للعيـد ولأولادهم الذين لم يضيعوا · قال المونتير بلهجة من يريد حسم الأمر :

ـ حدث هذا لجارنا منذ أسبوع ·

سأل يوسف بلهفة ·

ـ ووجدوه ·

قال الرجل :

ـ لا أعرف ·

والتفت الى صفوت يسأله اذا كانو قد أعدوا لاحضار طعام الغداء لمن يضطرون البقاء فى الاستوديو ·

عاد يوسف الى البيت ليجد زينب قد اختفت ، لا أكل ولا شراب فى البيت المهجور ، لا لحم مسلوق ولا مشوى ، أضحيه هذا العيد لحمها لا يؤكل • فجر هذا اليوم ضحى بابنه حسن • أطل من النافذة لعله يراه • الشارع مزدحم بالأولاد ، ضجيجهم مرتفع • صراخ وبالونات وبومب ، أصوات تملأ الكون الا صوت حسن •

عندما ذهبت سعاد شقيقة حسن الكبرى ، أول من أنجب ، عندما غابت عن هذا الوجود ، كان للغيبة بكل قساوتها ومرارتها ما يبررها • مرضت وشاء صاحب الشأن أن يجعل من المرض سببا مقنعا لذهابها • لا شىء أكثر ايلاما للنفس مثل فقد الولد ، كل شىء يهون ما عداه • ولا مبرر يقنعه بأنه لابد وان يفقده • وأن يصاب فى حسن بهذا الزلزال يزلزل كيانه ، أسوأ ألف مرة من فقد سعاد ، عندما ذهبت سعاد •• آه من تلك الليلة بأوجاعها •• قضت الليل تنظر اليه نظرة من وراء النظر ، نظرة جامدة قاسية ، لم يتوقع أبدا أن تكون هذه النظرة فى عيون طفلة رضيعة • نظرة لا ترحم فى وجه برىء • لا شىء أقسى من عدم فهم نظرة ، من عدم القدرة على التجاوب مع عينين مصوبتين الى عينيك •• ولكنه توجس أن هذه النظرة الدخيلة على سعاد ، هى نظرة المجهول الذى يختطفها الى حيث لا تعود • منذ أن ظهر هذا المجهول فى عينى ابنته وهى تبتعد عنه ، ترفض ما يقدمه لها من دواء ،

ليل بطوله ترفض وتتقيأ ، ليل بطوله وهو يحاول أن يسكب قطرات الدواء فى الفم الملتهب ، ليل بطوله وهو يضع كمادات الثلج على جبينها •• مع نسمات الفجر اختفت نسمات الصدر • مع نسمات الصباح هبت لسعات من الذعر فى رأسه وقلبه ، انطلق وسعاد بين يديه الى تلك المستشفى • صعد سلالم ، دخل حجرات ، صرخ فى ممرضة ، صرخ فى طبيب ، صرخ ولعن وهدد وبكى وتوسل وتضرع •• وذهبت سعاد • اختفى وجهها •

ووجد أمامه وجه زينب يتشبث به ، حبيبتى زينب ، انقذينى يا زينب ، أخذوها منها ، سنجدها سنعيدها ، سنخرجها من نفس البطن التى جاءت منها • أخذ زينب الى الاسكندرية لتستريح ، سارا على الرمال والصخور ، أمامهما أمواج البحر تزأر ، تتلاطم ، والأفق بلا نهاية ، وصرخ بأعلى صوته يتحدى الأمواج والرياح ، كان أقوى من كل ما يراه أو سوف يراه • سوف نعوض ما فقدناه • سوف ننجب يا زينب • سوف تلدين عشرات وعشرات • سنملأ الكون بأولادنا ، بأفراحنا •

ضربتان فى الرأس •• حسن بعد سعاد • حسن والسجن بعد القتل • بعد التكفير • بعد أن ظهر فى عينيه مجهول غامض يصنع بينه وبين أبيه وأمه عزلة صارمة ، سدودا من الوقاحة والكراهية •• ماذا بقى •• أيصرخ من جديد ؟ أيعيد المهزلة ؟ يصحبها الى مكان ويهتف سوف ننجب هذه

البطن عشرات ·· سوف تملأ الدنيا بالأولاد ·· كل شىء قد انتهى ·· زينب وبطنها وحسن ومعنى الانجاب ·· كل شىء انهار وتحطم ·

كانت الدموع فى مآقيه · وزينب تفتح باب البيت ، تدخل مشعثة الشعر ، عينان مجنونتان · طافت بكل بيوت أصحاب حسن فى المدرسة · ذهبت الى الأقسام واتصلت بالمستشفيات كل ادارة فندق « برستيج » تبحث معها عن حسن · لن تعتمد عليه ، زملاؤها فى الفندق سيتصرفون خيرا منه · ماذا يقول لها ؟ عندما ذهبت سعاد قاوم الاحزان بأفراح حسن · الذى يذهب الى مملكة الله تستطيع أن تعوضه بالانجاب من مملكة الله · أما الذى يضيع منك فى مملكة البشر فالويل لك من البشر · لن يعوضوا أحزانك بأفراح ، وها هى زينب تلجأ الى فندق « برستيج » كما لجأ هو الى التليفزيون ·

ودق جرس التليفون ، فأسرع كلاهما اليه اصطدمت وتشابكت أيديهما ، واختطفت منه السماعة لتعيدها له · صفوت يسأل هل عاد حسن · اتصلت يا يوسف بمدير التليفزيون ، اهتم واتصل بمدير الأمن · اذا لم يظهر الولد حتى الغد اذهب اليه وقابله ·

زينب تصرخ · اذا لم يظهر حتى الغد فلن يظهر أبدا ، وأنت السبب · صرخ :

ـ كفى يا زينب ·· لست وحدك الذى يتعذب ·

صرخت ترد عليه بكل ما تملك من قسوة ·

ـ وما الذى أخذناه من عذابك ·· هل هذا هو كل ما أفلحت فى تقديمه لأسرتك فى العيد ·

قال له مدير الأمن وقد اكتسى وجهه بوقار غلبت عليه المجاملة واظهار تقديره لشعور الأب الذى فقد ابنه ·

ـ لا تنزعج يا سيد يوسف ·· لابد أن تواجه الأمر بهدوء وثبات أعصاب ·

سأله عن عمر حسن ·· مدرسته · أحواله · قدم له يوسف صورة حسن ·

ـ هذه صورته منذ عامين وهو فى الثانية عشرة ·· وجهه تغير قليلا ·· كان وهو طفل يشبهنى ·· كلما كبر تحولت ملامحه حتى أصبح أقرب الى جده · انه الآن يرفض التصوير ·

أطال مدير الأمن النظر الى الصورة ·· كان يفكر فيما سوف يقوله ·· وانقبض صدر يوسف · من يفكر قبل أن يتكلم ، يدرك أنه لن يقول ما يريح سامعه ·

قال المدير وهو يضع الصورة أمامه وأصبعه ينقر عليها :

ـ هناك أحد احتمالين كبيرين ·· اما أنه قرر أن يخرج فى رحلة ·· ذهب الى مكان ما ·· الاسكندرية مثلا ·· كثير من الأولاد يفعلون هذا ··

قاطعه يوسف :

- سافر بالبيجاما والشبشب ·

قال المدير :

- أخذ ملابس صديق له ··

قال يوسف :

- مررنا ببيوت كل أصحابه ·

قال المدير :

- ربما صديق لا تعرفونه ؟

وتوقف وقد شعر أن هذا الاحتمال ليس هو الأرجح وسأل ببطء :

- تقول انه متدين ·

قال يوسف :

- بصورة غير عادية ·

هز الرجل رأسه قائلا :

- نعم ·· تكفيرك ·· وتكفير والدته ·· ورفض الصور والتماثيل فى البيت ··

وأطرق برأسه برهة قبل أن يرفعها ويقول بصوت قوى :

- الاحتمال الثانى ·· هو أن المسألة أكثر تعقيدا ·· فبعض الأولاد ينضمون الى جماعات دينية ·· هذا قد تكرر بصورة ملحوظة فى الأشهر الأخيرة ·· وهم يجمعون الأولاد فى أماكن منعزلة ·· فى الصعيد ·· نواحى المنيا كما حدث مرة ·· أو فى احدى الصحارى ·

وضرب الرجل برفق على المكتب بيده مؤكدا ما يقوله :

- على أية حال لو حدث هذا ·· فسنعلم به ··

سأل يوسف واجفا :

- ماذا يفعلون فى الجبل أو الصحراء ؟!

قال المدير :

- معسكرات تدريب ··

سأل يوسف بلهفة وجزع :

- لماذا ؟

نظر اليه الرجل متفحصا · كأنه يسأل نفسه اذا كان صاحب السؤال يتظاهر بأنه لا يعلم أو هو فى حقيقة الأمر يجهل تماما ما قد تورط فيه ابنه :

- حسب الجماعة التى تضمه ·· تدريب على السلاح ·· أو تدريب تمهيدى استعدادا لأن يترك البلاد ·

سأل يوسف منهارا ··

- الى أين ؟

قال الرجل يهدئه :

- لا داعى للتسرع وراء احتمالات لا تنتهى ·· اترك لنا الأمر وسنبذل كل ما فى استطاعتنا ·

وأردف ضاحكا :

- من يدرى ·· لعله يكون الآن فى البيت ·· الأمر يتوقف على الأيام القادمة ·· كل ما أستطيع أن أقوله الآن : انه

لو طالت غيبته ·· فسيكون الاحتمال الأغلب أنه انضم الى احدى الجمعيات الدينية التى ينجذب اليها الشبان فى مثل سن ابنك فى هذه الأيام ·· وثق أنه لو حدث هذا ·· فسنعلم به ·· اطمئن من هذه الناحية ·· واصبر وتمالك نفسك ··

حاول أن يسأل عن هذه الجمعيات ، كيف الوصول اليها ، من هم الذين يتولون أمرها ، ولكن مدير الأمن رفض بلباقة أن يجيب على أسئلته ، هذه جماعات سرية تنكر وجودها ·· قياداتها سرية ·· لو كان ابنك قد انضم اليها ، فهو لا يتصل بأكثر من مجموعة لا تزيد على خمسة أشخاص· خلايا سرية ·

ومضت الأيام ، ولم يظهر حسن ، وذهب لمقابلة مدير الأمن مرة أخرى · كان الرجل أكثر وقارا وأكثر تكلفا وأكثر أدبا ومجاملة · مازلنا نبحث ، تأكد انى مهتم شخصيا بالأمر · ثق أن نشاط هؤلاء الأولاد يعنينا ، ونتابعه فى كل مكان ، واذا كان ابنك فى مصر فسوف نعثر عليه سريعا · اما اذا كان قد سافر الى الخارج ، فسنحتاج الى بعض الوقت قبل أن تحدد مكانه ·

ونهض الرجل يودعه الى الباب وهو يطمئنه بكلمات غريبة :

– على أية حال · لم يصب فى حادث ·· لا سمح الله ··

هذا شىء يطمئنك على وجوده ·· هنا أو هناك ·· المهم أنه بخير ·

كيف يطمئن الى المجهول · قال له الدكتور صبرى عبد السلام ابن الشيخ عبد السلام صبرى وهو جالس فى داره بجاردن سيتى · الفيلا الوحيدة التى لم تتهدم فى الشارع الذى عاش فيه يوسف صباه ·

– هكذا حال الأولاد ·· لا يشعرون بما فى قلب الأم أو الأب · ها هو ابنك يعلم أين أنت ·· وأنت لا تعلم أين هو ·· الأب بالنسبة له ماض · شىء انتهى ·

همس يوسف :

– والابن هو مستقبلى ·· امتداد حياتى ·· لقد ضاع منى مستقبلى ·· لم يعد لى وجود فى هذه الحياة ·



صبرى عبد السلام ابن شيخ الأزهر الذى كان يتنافس على مرضاته الملك فؤاد ، فى قصر عابدين ، والمندوب السامى فى قصر الدوبارة ، اذا غضب اهتزت الدنيا ،

واذا رضى عاد التوازن والاستقرار للمجتمع المصرى ٠

ابن الشيخ طبيب أسنان ، هو الذى خلع لحسن جميع أسنان اللبن ٠ يعالج ضروس وأسنان علماء الأزهر وكأنه مسئول عن العلم والحكمة اللذين يصدران من فم به هذه الضروس والأسنان التى يعالجها ، ولكن أفواه الحكمة تقل والضروس تتآكل والاهتمام بنفوذ المنصب يشتد ويقوى والاهتمام بنفوذ الحكمة يضعف وينحسر ٠

قال الطبيب صبرى عبد السلام وهو يتنهد :

ـ ذهبت تلك الأيام يا أستاذ يوسف ٠٠ عندما كنت أراهم هنا يجتمعون فى هذه الحجرة مع أبى ٠٠ كلامهم ٠٠ ماذا أقول ٠

وتوقف يبحث عن الوصف المناسب ثم قال :

ـ كلام عظيم ٠٠ له مهابة ٠٠ يخرج واثقا جليلا ٠٠ يتحدثون عن الملك ٠٠ أو المندوب السامى ٠٠ حديث الند للند ٠٠ بل حديث الند الأقوى ٠٠ الذى يقول كلمته فيحترمها كل الناس ٠٠ لا حديث الموظف الذى يسعى الى تدعيم منصبه او الحصول على ترقية أو ميزة ٠٠ أو مكافأة من هنا أو من الخارج ٠٠ السلطة الوحيدة التى كانوا يؤمنون باستخدامها ٠٠ هى سلطة الشرع وكلمة الدين ٠٠ أما غيرها من سلطات الدنيا ٠٠ فلها من يعرفها ويعرف خباياها ولا شان لهم بها ٠٠ وهكذا حصنوا الدين ٠٠ ولم يسمحوا للسياسة ان تلون

أو تتلاعب به ٠٠ كما يحدث من هذه الجمعيات والجماعات التى تحركها أطماع السياسة ومناوراتها ٠٠ ولا تدرى اذا كانت سياسة مسلم أو درزى ٠٠ سياسة أطماع شخصية ٠٠ أو أطماع أجنبية غازية متسللة ٠٠ رأوندية وقرامطة العصر الحديث ٠

كان على يوسف أن يستمع الى محاضرة طويلة ، يحقق بها صبرى عبد السلام ذاته ، ويحدد ردود أفعاله فى مواجهة الأزمة التى نقلها اليه يوسف « ان ابنه قد اختفى » ٠٠ وان الاتجاه السائد عند الشرطة ، انه انضم الى جماعة دينية سرية ٠٠ وأنه فى أغلب الظن قد غادر البلاد ٠

انتهت المقابلة ، وقد وعده صبرى عبد السلام ، أن يدبر له لقاء مع عمر بك السلماوى شيخ طريقة صوفية ، وله صلات عديدة بالجمعيات الدينية التى نسمع عنها أو لم نسمع عنها ، هنا وفى الخارج ، فى السعودية والكويت والخليج ٠٠ وايران ، وقد يستطيع أن يدلك على وسيلة ما للاتصال بمن يرشدك الى حسن ٠

أسند عمر بك السلماوى ظهره الى مقعده الجلدى الكبير ، أمام مكتبه ذى السطح اللامع من الأبنوس الأسود فى شركته « آراب اكسبورت » وقال بتؤدة وصوت خفيض كأنه يخاطب نفسه :

— ما سمعته منك يا أستاذ يوسف ·· يدل على أن ابنك قد خرج من مصر فعلا ·

الرجفة التى سرت فى جسد يوسف لا صلة لها بجهاز التكييف القوى ، ولا بسحابة دخان سيجار تشرشل الذى يضعه الرجل بين شفتيه أو ربما أسنانه ويستخدمه كماسورة تخرج الدخان فينتشر فى الحجرة ويثير فى البطن شعورا بالغثيان ، كان وجه عمر بك سمينا مشويا بحمرة صبوحا ، وجه سمين وذقن حليق ، وعينان كسولتان سوادهما يلتهم مساحة البياض · وعطر رقيق نفاذ يفوح منه ممتزجا برائحة الدخان ·

أسبل شيخ الطريقة السلماوية عينيه ، كأنه يتأمل أعماقه ، وقال بصوته الخفيض الذى يطغى عليه طنين صادر من جهاز التكييف ·

— ولكنى لا أستطيع أن أعدك الآن بشىء ·· كل ما أستطيع أن أعدك به هو أنى سأبذل كل ما فى وسعى ·· سأسأل عنه أصدقاء لنا · ومن يدرى ·· لعل وعسى ·

فتح يوسف فمه بصعوبة ، وسمع صوته غريبا ·

— أى خبر ·· أية كلمة انه ابنى الوحيد ·· و ··

لم يكمل الجملة · كان يريد ان يقول انه لا يستطيع الآن أن ينجب غيره ، ولكنه وجد أنه سيثير موضوعا شديد

التعقيد ، خاص بحياته الشخصية مع زينب ، ولا معنى للخوض فى هذه الأمور مع هذا الرجل ·

ولم ينتظر عمر بك سماع بقية كلام يوسف · كان جرس التليفون قد جذبه الى حديث بدا أنه مهتم به · كل ما فعله أن همس :

— ميونيخ على التليفون ·

تحدث عمر بك الانجليزية بطلاقة · لو كانت زينب معه لفهمت كل كلمة قالها · اللغة الانجليزية هى علامة التفوق والمائتى جنيه التى تقبضها شهريا من عملها فى استقبال فندق « برستيج » جمهورها من الأجانب ، من ميونيخ ونيويورك ولندن وباريس ، لا صلة له يا أستاذ بجمهورك البلدى المتخلف الذى يتتبع تمثيلياتك ·· انت الذى أورثت ابنك التخلف ·· الولد منذ عرف أنك لم تكمل تعليمك فقد رغبته فى اتمام دراسته ·

فرغ عمر بك من حديثه مع ميونيخ ، وشرد ببصره قبل أن يكتشف وجود يوسف أمامه · كأنه نسى لماذا هو جالس قبالته · أسبل عينيه من جديد لعله يحاول أن يتذكر الغرض من هذه المقابلة · ها هو يفتح عينيه ويبتسم ويقول بصوت برىء كالأطفال ·

على العموم اذا كان ابنك قد هجر الدنيا للعبادة ·· فهذا

فضل عظيم من الله ونعمة كبرى · ولسوف يشفع لك هذا عند الله فيما تقدم من ذنبك وتأخر ·

ها هو الشيخ السلماوى الصوفى الذى يركب الحصان الأبيض ، ويمسك بكلتا يديه العمامة حتى لا يختطفها أحد ·· ويمضى موكبه بين الأتباع والمرتدين ·· يتلقون المدد والبركات وينتظرون الكرامات ·

وابتسم الشيخ السلماوى فبدا وجهه بريئا وقد اكتست عيناه الكسولتان بصفاء يكاد يبدد دخان السيجار وقال :

ـ ابنك معذور ·· انه حفيد الشيخ عبد السلام ·· من شابه جده فما ظلم ·

تقبل الطعنة البريئة الغادرة مستسلما ··· لقد اختلطت على الرجل الأمور ·· لم يقل له الدكتور صبرى ان لطيف شقيق الشيخ عبد السلام هو زوج أم يوسف منصور الذى سيقابله · لعله وجد أنه سيثير موضوعا معقدا لا داعى للخوض فيه ·

واتسعت ابتسامة عمر بك · وهو يسترد كسل عينيه ، ويرتخى مسندا ظهره الى مقعده ومضى يقول :

ـ احمد ربك ·· ان عندى فى عائلتنا أولادا لا أستطيع مهما قلت أن أصف لك المستوى الذى انحدروا اليه ·· يتركون المدرسة ويتبجحون على المدرسين ·· ويضبطونهم فى تلك

المركب التى ترسو عند الشاطىء أمام النادى ·· يدخنون كل ما يخطر أو لا يخطر ببالك من انواع المخدرات ·· أنواع جديدة مستوردة ·· تكنولوجيا حديثة ·· أقراص وسفوف وحقن وأنواع ملبس وشيكولاته · أولاد يدمرون أنفسهم ·· ويطالبون أهلهم بالمصروف الذى يشترون به هذه السموم خمسة جنيهات فى اليوم غير البنزين فى العربية لم تعد تكفى الولد ·· يتبجح على أهله ·· يحاسبهم على القرش الذى ينفقونه ويقول انه أحق به · لا احترام لكبير ولا رغبة فى تعليم ولا اكتراث بأى شىء ·· منذ يومين جاءتنى احدى قريباتى أرملة · كانت تشكو ان ابنها الكبير الذى كان المفروض فيه أن يتولى المسئولية بعد أبيه ، ويرعاها ويصونها طلب منها أن تترك له حجرة نومها ، وتذهب وتنام فى أية حجرة أخرى ·· تصور · حجرة النوم التى عاش فيها أبوه مع أمه ·· الولد الفاجر يريد أن يطرد أمه من حجرتها لأنه يريد أن يتزوج وهو فى الثامنة عشرة ·· لم يكمل تعليمه ، يسقط ومعرض هذه السنة للطرد من كلية الزراعة ، لا يكسب مليما ، يريد أن يحضر زوجة ، بنتا لا ندرى عنها أى شىء ·· لا أصل ولا فصل لتعيش فى البيت وتحتل مكان أمه ، وتتحول أمه الى مجرد خادمة تورد النقود وتشرف على نظافة سيدتها الجديدة ·

هذا الولد تشاجر مع أمه لأنها أرادت تنجيد طقم قديم فى مدخل البيت · لماذا تنفق هذه النقود وهو احق بها · أحق بها

ليصرفها على المخدرات والتسكع مع بنات متشردات والسهر طوال الليل وعدم الذهاب الى الكلية فى الصباح ·· ماذا تقول فى هذا ·· أليست هذه هى المصيبة الحقيقية ؟! احمد ربك أن ابنك لم يفعل هذا ·

طرد الرجل الذى نادته أمه لتتجيد الطقم ، وشتمها لأنها كذبت عليه وقالت له انها ليس معها نقود ·· فلما رفضت أن تعطيه النقود التى أعدتها للتنجيد ضربها وانتزع منها النقود بالقوة ·· بلطجة واجرام داخل البيت ·· لا خارجه يا أستاذ يوسف ·· ابنك المختفى يبحث عنه رجال الشرطة خارج البيت ·· الآن مطلوب رجال شرطة داخل البيوت لحماية الأمهات والآباء · حمايتهم من من ؟ من أبنائهم ·

نظر اليه يوسف مستعطفا ، يكاد يتوسل اليه ألا يضطره الى أن يقول له ·· حتى حسن الذى تحسده على نعمة التدين قد شرع فى ضرب أمه ، ماذا جرى فى هذه الدنيا الأولاد تضرب الأمهات ، تتمرد على الآباء ·· ماذا جرى ، أصبح هجر الولد لأبويه نعمة يحسده عليها الذين لم يهجرهم أولادهم ·

وقف عمر بك السلماوى يودع يوسف ، المليونير يقف فى مقر قيادة شركاته للاستيراد والتصدير ·

ــ على فكرة يا أستاذ يوسف ·· كنت أريد أن أسألك منذ

وقت طويل عن تلك الممثلة التى ظهرت فى تمثيلية لك فى التليفزيون ·· ما اسمها ·

هل يحاول اخفاء اهتمامه ، أم هو يريد أن يتذكر الاسم فعلا ؟

أضاء وجهه بشقاوة أطفال ·· عيناه الكسولتان تنفضان الكسل ·· وابتسامة خجولة عذبة ترتسم على وجهه السمين ·

ـ آه ·· اسمها لطيفة ·· أليس كذلك ؟

اله يسأل عن لطيفة ، كانت تجلس بجواره على المائدة الطويلة فى أثناء البروفة ـ فتحت حقيبتها وأخرجت منها مفكرة صغيرة ووضعتها أمامه هامسة « أستاذ يوسف اكتب رقم تليفونك » لابد أنه تردد لأنها رفعت صوتها ليسمعها كل من حول المائدة ·· لن أعضك يا أستاذ ·· ضحكوا وكتب رقم التليفون ·· كانت تريد أن يكتب لها مشاهد أكثر وأطول رآها حسن كان فى الثامنة أو التاسعة ·· أعاد المخرج صلاح لعى تصوير المشهد أربع عشرة مرة فقد أعصابه ·· بطنك تهتز يا لطيفة ألا ترتدين كورسيه ·· حكى حسن ما شاهده لزينب · مطت شفتيها ، ممثلات يأكلن المفتقة ·

سمع عمر بك يسأله :

ــ ألا تذكرها ؟ ·

أجابه بسرعة :

ـ نعم ·· أتذكرها ·

قال عمر متخذا مظهرا جادا والسيجار متوهج فى فمه بين أسنانه ·

ـ لى صديق من اخواننا الذين يعملون معنا فى الخليج ·· كان موجودا معى بالصدفة عندما اتصل بى الدكتور صبرى بخصوص لقائنا ·· هـو الذى أخبرنى أنهـا مثلت فى رواية لك ·· اتصـلت به لطيفة مع منتج يريدون منه تمويل شركة انتاج تليفزيونى ·· ما رأيك ·· هل يطمئن للتعامل معها ؟· مجرد رأى ·

ضحك يوسف · خرج من تلك الدوامة التى سقط فيها منذ أن اختفى حسن ·· نسى ما جاء له وقال وهو يشـد قامتـه استعدادا لمواجهة فرصة جديدة وصفقة جديدة ·

ـ لطيفة ممثلة كبيرة ·· وأحسن أدوارها التى شـهرتها كانت فى تمثيلياتى ··

قال عمر بك وقد أشرق وجهه :

ـ طبعا ·· سيلجأون اليك ·

قال يوسف باعتداد ساخرا :

ـ اذا أرادوا النجاح ·

حدثه عمر بك عن جهله بالتليفزيون ·· أراد أن ينفى أية شبهة ·· البرامج الوحيدة التى يهتم بها مباريات الكرة ·· ولكن مباريات كأس العالم يشاهدها فى الملعب ·· شـاهدت

مباراة ألمانيا وهولندة على نهائى الكأس ·· كانت متعة ·· كان كيسنجر وزير خارجية أمريكا يجلس بالقرب منى ·

أمريكا ·· سى أى ايه ·· الحوت ·· أين الحوت · خرج يوسف من عالمه الذى غرق فيه ·· أما زال الحوت يصـلى ؟ أين هو ؟ لم يجد له أثرا ·· لم يجد سوى صـحراء التراب تحيط به من كل جانب ·· اختفى الحوت · اختفت المبانى · ماذا حـدث هل ابتعد وتوغل بعيدا بعيدا فى هذا التيـه ·· أيكون قـد تاه ؟!

رفـــــع رأســـــه

الى السماء فرأى الشمس ، لعلها تهديه الى العودة فى الاتجـــاه السليم تذكر وهو يتقدم فى الصحراء وبجواره الحوت ، أنه لاحظ ظليهما قصيرين يهرولان بجوارهما ، وأنه قال لنفسه وهما يلهثان ، ماذا يفعل هـذان الأبلهان ؟ الآن يرى أبله واحدا يلاحقه ، كان الأبلهان يلهثان على اليمين مثل هذا الأبله الذى يتبعه الآن فليستدر وليجعل الأبله على يساره ويعود ٠

وانتفض على خاطر يومض فى رأسه كأنه اكتشاف خطير ، اذا كان يستعين بالشمس ليعود ، أليس من الممكن تحديد موقع هذا المكان على الأرض بمتابعة مسار الشمس فى انتقالها من مدار السرطان الى مدار الجدى ؟ لابد من أجهزة أو خبراء فى علم الفلك على أية حال من المستحيل أن يكون هذا المكان قريبا من المنطقة القطبية شمالا أو جنوبا حيث تطول الليالى أو يطول النهار ، أنه فى منطقة وسط والمناخ معتدل لابد أن يسأل المقيمين لفترة طويلة عن تغيرات الطقس وتقلباته ٠

٠٠ ان العقل البشرى يستطيع أن يستنتج ويستقرىء الظواهر ويصل الى نتائج وقوانين ٠٠ نظر الى ساعته ، الثانية عشرة والثلث ، كيف عرف الحوت مواقيت الصلاة ، لابد أن يسأله ، ترى هل هو يسير فى الاتجاه الصحيح ، هذه

الصحراء موحشة ، ولكنها ليست مخيفة على الأقل لا تخيفه الآن ، لأنه واثق أنه سوف يعود ، لم يبتعد كثيرا ، ان المبانى من طابق واحد أو طابقين ، ولعل تبة أو ارتفاعا بسيطا فى الأرض يحجب الرؤية ، لن يفقد أعصابه ، عليه أن يقبل ما هو فيه وأن يواصل السير وسط هذا الهدوء الذى لا يسمع فيه سوى أنفاسه ووقع أقدامه وخطوات أفكاره ، أيخيب ظنه ويتوه ، أيفشل فى العودة ، أهناك قوى قاهرة تقف حائلا بينه وبين ابنه ، تحرمه من أن يستمع الى اعترافات الحوت ، أيتكرر نفس ما حدث له فى السودان ، عندما أحاطت به السكينة بعد الترانيم والانشاد وظن أنه وجد طريقه الى حسن ، أيقن أنه سيعثر عليه ٠

كانت الرحلة الى السودان مفاجأة ليوسف ، كان مدير التليفزيون قد طلب من رئيس هيئة الاستعلامات أن يهيىء فرصة ليوسف يتخفف فيها من أزمته النفسية ، فكان أن أدرج اسمه فى وفد اعلامى الى الخرطوم بمناسبة أعياد ثورة مايو ٠



قال يوسف لزينب وهو يكذب،ويتعمد الكذب بكل مافى قلبه من يأس :

ــ أنا مسافر لأبحث عن حسن ٠

نظرت اليه غير مصدقة ، وخافت أن تسـأله المزيد ، ولكن نظراتها كانت تطلب منه أن يفصح ، أن يخبرها بما وصل الى علمه ، هل عرف أين هو ، فى أى بلد ، هل هو واثق مما يقول ، من قال له المعلومات التى وصلت اليه ؟

أسـئلة تلقيها نظرات زينب ، ويترجمها عقل يوسف كأنه يكتب مشهداً فى مسلسله يتخيل حركة أبطالها ويجرى الحوار المناسب على ألسنتهم ٠

تضخمت الكذبة ، ما أسهل الكذب ، ما أسهل التأليف ، انه خبير فى الصنعة ، بدأ التأليف منذ تزوجت أمه لطيف صبرى ، أطلق ذلك الحادث الفاجع فى حيـاته كل مواهبه فى التمثيل والتأليف ، وأصبحت حياته ضحية التأليف ، حتى وصل الى هذا الوضع الشاذ ، ربا لأسرة مفككة ، ضاع ثلثها الذى هـو الابن ، وبقى ثلثان متنافران ، ثلث الزوجة والأم ، وثلث المؤلف الزوج والأب ٠

وبدأ التأليف ، قال لزينب :

ـ هناك أخبار ٠٠ أنه يعيش بين جماعة اسلامية هناك ٠٠ اخبـار وصلت الشرطة ٠٠ لا يريدون التدخل بأنفسـهم ٠٠ الجماعات الدينية فى السودان لها حساسيات مفرطة ٠٠ رأوا أن الأفضل أن أذهب بنفسى فى مناسبة رسمية ، وأحاول بصفة شخصية أن أحقق فى الأمر ٠

صدقته ، أو لعلها كما قال لنفسه ، استسلمت لما يؤلفه ٠٠ وهتفت :

ـ ولكنهم عرفوا انه هناك ٠٠ رأوه ٠

المسكينة ، تريد أن تراه بأعينهم ٠٠ ولكنه أيضا مسكين ، لا يستطيع أن يتمادى فى التأليف حتى يخدع نفســه فيقطع الشعرة الفاصلة بين التأليف والجنون ٠

قال ببطء :

ـ لا يريدون التــورط بالتصريح بشىء محــدد ٠٠ ولكن ما تفســير أنهم طلبوا منى الســفر الى الخرطوم ٠٠ لست صحفيا ٠٠ ولا موظفا فى الاعلام ٠٠ مجرد كاتب له صـلة بالتليفزيون ٠

ورفع صوته محاولا أن يقنع نفسه :

ـ لابد أن لديهم معلومات أكيده عن وجوده هناك ٠٠ ولكنهم لا يريدون الافصاح عنها ٠

قالت محتجة :

ـ لماذا لا يقولون لك ؟!

اعترض وقد اقتنع بما يقوله :

ـ ربما تورط الولد ٠٠ فى شىء ضد الحكومة هناك ، على أية حال سأسافر ٠

قالت بلهجة حاسمة :

ـ وتحضره معك ٠

ثم أردفت بسرعة وانفعال :

ـ أو أسافر معك ·

انشغل بتهدئتها ، واقناعها بأنه لابد أن يعثر على حسن ويعيده ·

جاءه رجل صعد الى حجرته بفندق « الواحة » بالخرطوم ، وقال له ان السيارة تنتظره بالباب ، ليذهب ويقابل المعلم محمد زكريا ، معلم جماعة « المحمديين » ، كانت الشمس توشك على المغيب ، ويغيب معها بعض القيظ الذى عجز عن مقاومته جهاز تكييف يئن مرتعشا مجهدا من العمل ليل نهار ، وتعجز عن مقاومته مروحتان كبيرتان تدوران فى سقف الحجرة تلهثان لتخففا ثقل الحرارة فى جفنيه وأذنيه وأنفه وحلقه ، الرجل فى الثلاثين يرتدى جلبابا أبيض وعلى رأسه عمامة بيضاء ضخمة ، يبدو رأسه تحتها صغيرا ملامحه وسيمة دقيقة ، عيناه تومضان فى سمرة وجهه بأشعة نفاذة من ذكاء أو عاطفة مشبوبة ، الرجل يبتسم ، صوته مرح ، يسأل عن اقامته وهل هى مريحة ، يسخر من شكواه من الحر ، يا أستاذ مشيت القاهرة من أسبوع حرها فظيع ·

كان قد التقى منذ يومين ببعض الوزراء فى حفل ببيت تاجر سودانى زوجته مصرية ·· الوزراء يشربون الشاى لأنهم ارتبطوا فى خطابات شخصية تبادلها معهم رئيس الجمهورية ألا يقربوا الخمر ، ضيف من الجنوب ، يقول ان اله قبيلته يتقبل المريسة ويبتسم ، انه لن يشرب الخمر تضامنا مع

الوزراء ، ولكنه لن يحرم اله القبيلة من حقه فى المريسة ، جاء رئيس الوفد الذى تجمعه بصاحب البيت صلة قرابة بزوجته المصرية وهمس فى أذنه :

ـ يا أخ يوسف ·· لقد دبرت لك لقاء مع معلم المحمديين ·· جماعة اسلامية لها نشاط هنا ينضم اليها الشبان والشابات ·· يتركون كل شىء وينصرفون الى الدعوة لتعاليم معلمهم ·· سمعت أن بعض الشباب من مصر جاء الى هنا وانضم اليهم ·

سأل بقلب واجف :

ـ هل سمعت شيئا عن حسن ابنى ·

قال الرجل :

ـ لا ·· ولكن اذهب بنفسك واسأل من يدرى ·

الخيال لم يعد خيالا ·· التأليف أصبح حقيقة واقعة ، أيقن أن مجيئه الى هنا كان مدبرا ، ولابد أن حسن قد تورط بالفعل فى أمر يريدون التخلص منه ، حتى لا تتورط السلطة فى مصر بسبب حماقة يرتكبها مصرى فى السودان ·

كانت عربة « أوبل » قديمة تنتظر عند باب فندق « الواحة » وبها رجلان آخران ، أحدهما يحتل مقعد القيادة يرتدى قميصا أبيض ، والثانى معمم يجلس بجواره ، وبينهما أكوام من نشرات وكتيبات ، وجلس يوسف فى المقعد الخلفى مع الرجل الذى صعد اليه ·

تحركت السيارة متمهلة ، انطلقوا يحدثونه عن «المحمديين»

كأن لا شيء فى الوجود يستحق أن يهتم به الانسان فى هذه الدنيا غير رسالتهم ، اكتشف يوسف سر تمهل السيارة ، وقفت عند تقاطع الطريق وصاح الرجل بجواره بصوت عنيف ، وقد صوب اليه نظراته الحادة ·

ـ انظر يا أستاذ ·· ها هم فى كل مكان ·· يناقشون ·· يجادلون ·· يقنعون ·

رأى يوسف بعض الشبان يقفون على الرصيف فى حلقة ، التفتوا الى السيارة ، فتقدم أحد الشبان ، وتبادل التحية مع الرجل بجوار السائق ، الذى ناوله بعض الكتيبات ·· وتحركت السيارة ، وعينا يوسف تبحثان بين الواقفين عن حسن ·· فى جلباب أبيض وعلى رأسه عمامة ، أو فى قميص وبنطلون ·· محاولا التخلص من صورتى البيجاما والشبشب ·

وتوقفت السيارة مرة أخرى فى ميدان تتوسطه حديقة صغيرة ، يقف تحت شجرة ذات أغصان كثيفة شبان وبنات فى أيديهم الكتيبات ، وتقدمت امرأة ضخمة تلف جسدها بالثوب الابيض تجعل منه طرحه فوق رأسها ، خدودها بارزة بابتسامة تفيض من عينين واسعتين ، لم يفهم يوسف ما تقوله بلهجتها السريعة ، أخذت نشرات وكتبا ، وتحركت العربة ، ويوسف يبحث عن حسن بين الأولاد والبنات حتى سمع الرجل بجانبه يقول بصوته البالغ الحماس ، هاهم يا أستاذ يبيعون

الكتب اليوم يبيعون ، وغدا يناقشون ، من قرأ ويريد أن يناقش ، اننا نزداد انصارا كل يوم ، هذا المشهد سوف تراه يتكرر طوال طريقنا ، وهو لا ينقطع من الصباح حتى المساء ، هنا وفى ام درمان وفى واد مدنى وفى عطيره وفى كسلا ·· فى الجنوب والغرب والنوبة ·· حتى عندكم فى أسوان ·

كان لا يسمع ، فقد تحولت كل حواسه الى عينيه يتابع حلقات الشبان والبنات يريد أن ينفذ بينهم ليجد حسن ، شعر انه قريب منه ، أن معجزة سوف تتحقق ، سمع خفقات قلبه فاللحظة أكبر من أن يحتملها قلب بشر ، سوف يلتقى بنفسه بمستقبله ، سوف يلتقى ببقية حياته التى انفصلت عنه وتركت له بقايا حياة وبقايا جسد وتذكريات ولا شيء غير الذكريات ·

عبرت السيارة النيل واشاروا الى « المقرن » المجرن يا أستاذ حيث يلتقى النيل الأبيض بالأزرق ليتوحدا هنا فى الخرطوم فى نيل واحد كما تعرفونه عندكم ·· وعبروا سوقا ، العربات مكدسة بالبضائع تضيئها ، وقد أقبل المساء ·· مصابيح غاز ، وحلقات الشبان مستمرة فى النقاش ولكن العتمة تحجب الوجوه أطل برأسه من النافذة ، يمط رقبته ، أيوقف السيارة ليقترب من هؤلاء الأولاد ·

امتد الطريق بعد السوق فسيحا ·· اختفت منه الأشجار وبدت البيوت ذات الطابق الواحد على جانبى الطريق متباعدة ، بينها اراضى خرابات منحدرة متجهمة ، وانحرفت السيارة فى

طريق ترابى، وتوقفوا عند ســـور مرتفع له بوابة مضـــاءة بمصباحين كهربائيين ودخلوا منها الى فناء واسع امام بيت أبيض من طـــابق واحد ، الفناء به حلقة كبيرة من رجـــال معممين ساروا به الى مقعد ذى مسندين ووسادتين من القطن ، مقعد اسيوطى كالذى كان جده يجلس عليه فى بيت محرم بك فى الاسكندرية ، أجلسوه والى جواره المقعد الوحيد الشـــبيه بمقعده ، خاليا ، وتركوه ينظر الى الجالسين وينظرون اليه ، الوجوه طيبة بعضها عابس أو شـــارد النظرات أو حـــالم أو فاحص يقظ ، الوقار يحوم فوق العمائم والأجساد المتراصة تصنع كيانا متماسكا من الرهبة ، مخلوق هائل كالأخطبـــوط أذرعه الكثيرة هؤلاء الرجال ٠

قال لنفسه : هذا المقعد الخالى لشيخهم الذى يقولون انه المعلم ، التفت خلفه حيث كان البيت له شرفة طويلة بينها وبين أرض الفناء الذى يجلسون فيه درجات حجرية قليلة ، وباب مفتـــوح فى منتصف الشرفة أمام الدرج الحجرى يفضى الى داخل مضاء بالكهرباء ، ولا أحد يظهر من الداخل ، متى يخرج الشيخ ، لم يطل التفاتته الى الوراء ٠

كان عليه أن يواجه الحشد فى الحلقة الكبيرة التى انضـم اليها وارتفع صوت لم يفهم ماذا يقول ، وارتفع صوت آخـر ورد عليه وهو لا يفهم ، اذناه لا تتبينان مقاطع الكلمات وارتفع صوت ثالث ورابع ، انهم ينشدون ، يترنمون ، وايد تصفق فى

ايقاع بطىء ولكنه حاد ، الأصوات تندمج فى صوت واحـــد اجش عريض عميق ، صوت هادر ، وظهر الرجل الذى جـــاء الى حجرته فى الفندق ابتسامة فى عينيه ٠

ـ يا أستاذ ٠٠ لماذا لا تنشد ؟

٠٠ انشد ٠٠ انشد ٠

همس مرتبكا :

ـ متى يجىء الشيخ ٠٠ ؟

صوب الرجل اليه نظرة حادة ، واختفت الابتســـامة من وجله ، وبدا انه يفكر فى أمر ما ثم تقدم وجلس بجـــواره فى المقعد الخالى وهمس :

ـ يا أستاذ ٠٠ لا تقول الشيخ ٠٠ انه المعلم ٠٠ انه يرفض لقب الشيخ ٠٠ ويرفض ما يقوله الشيوخ ٠٠ انه ليس مثـل شيوخ الأزهر عندكم وليس مثل اى شيخ تعرفه انه المعلم ٠٠ الأســـتاذ ٠٠ الذى يخرجنا من الجاهليـــة الى دين محمد الصـــحيح ٠

وجم يوسف ٠٠ ما كان يسعى الى اثارة مناقشة ، وانقذه انشغال الرجل بالتصفيق وهو يترنم ، ثم التفت الى يوســـف والعاطفة تجيش وتتدفق من وجهه وقال :

ـ انشد يا أستاذ ، سوف تشعر بالراحة وسكينة النفس ٠٠ ستعرف لونا من الصفاء لم تعرفه من قبل ٠

ارتبك وأجهد نفسه فى اخفاء ارتباكه ، الرءوس تتمـــايل والعمائم تتمايل برفق ، كأنها نسمات رقيقة ، والصوت العريض

الأجش ينساب فى وقار ، والايدى تصفق ، والرجل ينظر الى يوسف باسما ، عاطفته تستعطف فى الحاح أن يشترك ،وصفق يوسف بيديه ، انضم الى الكائن الاخطبوطى وأصبح واحدا من أذرعته ، وحمله الايقاع الى مياه النيل العجوز الذى قطع مراحل طفولته المتوثبة فى شلالات بوسط افريقيا ، وشبابه الجرىء المقتحم بأفرعه وسدوده الى المجرن حيث عقد قرانه فى الخرطوم مع النيل الأزرق ، ثم انطلق وحيدا ، بلا أفرع ، لا ينجب غير المجرى الكهل الوحيد ينساب فى مصر قبل أن تنتهى عذوبته ويفقد مجراه فى البحر المالح ، النيل بلا أبناء ولكنه باق ، وهذا الكيان الأخطبوطى تضيع فيه الحاجة الى الأبناء ، تتلاشى الأفراد ·

هذا الكائن ابتلع حسن ، كيف يخرجه منه ، لو ترى زينب ما يراه لصعقت ، لهربت فزعة مرتعدة ، تعالى واجهى معى هذا العالم الذى يختطف الأولاد ، لا يكفى أن تتحصنى فى فندق « برستيج » تستقبلى سواح العالم بابتسامة ، وهالوه ، وأوكى ، ثم تمطين شفتيك الى كل ما يحدث خارج نطاق قلعتك التى تتحصنين وراءها ، وتظنين أنك تتخلصين منه بكلمات عن دنيا متأخرة ، بلدى ، متخلفة ، مبتذلة ليست فى مستواك ·

لا مهرب يا زينب ، لا نجاة لنا بحصون من طراز « برستيج » ·

قال الرجل بجواره كلاما لم يسمعه ، فنظر اليه ، مبتسما

معتذرا ، محاولا أن يسأله ماذا يقول ، ولكن السؤال لم يخرج من شفتيه كان يحدث زينب والانتقال من حديثها الى حديث هذا الرجل الذى يطلبه بالانشاد قفزه فوق هوة سحيقة بلا قرار ، وحدث هرج عند الباب الخارجى للفناء ، وقفز الرجل مسرعا الى الباب ، وتوقف الانشاد ودخل رجال يتوسطهم رجل طويل متين البنيان ، وجهه مربع مكتنز ، عيناه قويتان ·

كان الرجل يتقدم نحوه وبجواره صاحب يوسف ·· أيكون القادم هو الشيخ ·· لا ·· المعلم ·· يجب أن يحذر مثل هذه الهفوات ، انه المعلم يجب أن يتذكر هذا هاهو مقبل نحوه ، وقف قبل أن يصل اليه الرجل · انه نوع من الرجال يفرض عليك أن تقف له اذا اقترب منك بادله التحية · كلمات الرجل طنين فى أذن يوسف · يرد عليها بكلمات مبهمة يتمتم بها ـ الانفعال فى الوجه والصدر ونشاط الذراع واليد والمصافحة أبلغ من الكلمات · جلس الرجل فى المقعد الخالى بجواره والبسمة تفيض من وجهه ، بسمة فيها شىء يذكره بوجه عمر بك السلماوى · فيها نفاذ وتفحص ·

بدأت كلمات الرجل تتضح · انه يسأله عن أحواله ، عن مصر · هل هذه هى زيارته الأولى للسودان ، كم يوما قضى فى الخرطوم هل يزمع المشى الى مدن أخرى · الرجل يسأل مصوبا عينيه فى عينيه · فاذا ما شرع فى الاجابة

حول الرجل بصره عنه ، كأنه عرف الاجابة من العينين فلم يعد بحاجة الى اجابة باللسان · واكتفى الرجل بأسئلته القليلة ، وانشـــغل بحديث هامس مع رجل بجـــواره ، حتى عادت الأصوات تتجمع فى ترنيمة جديدة واشترك الرجل فى الانشـــاد ·· لم يسأله أن يشاركهم ولم يلتفت اليه ، كان يهز رأســـه راضيا بما يراه ويسمعه ·

وســـقط يوسف فى وحدة بلا قرار ، عاجزا عن الفهم عاجزا عن التصرف ، غير قادر على التركيز ، كأنه يحلم ، كأنه يشم رائحة غريبة كالبخور ، دوار خفيف فى رأســـه ، دوار ناعم كما لو كانت الأصوات محفة تحمله بين طيات سحب ، انتفض صوت يحتج فى أعماقه · أفق يا يوسف · انتبه · ان هذا الذى يحيط بك له تأثير التنويم المغنطيسى عليك · لابد أن تتحمل هذه المشاهد والمواقف المتلاحقة التى تمر بها ·

أزعجه هذا الصوت الذى يحذره · وســـاوره الخوف وهو يسأل نفسه كيف يصل الى حسن عبر هذا الانشـــاد ، وهذه الحلقة المشابكة المتراصة حوله ، وعبر تلك الجماعات المنبثة فى الطرقات والميادين والأسواق ، وعبر هذه الكتيبات التى تخرج الناس من جاهليتهم لتدخلهم فى شىء لم يســمع عنه ولم يعرفه من قبل · شىء لا صـــلة له بالشـــيوخ لا صـــلة له بالشــيخ عبد الســلام صبرى ، ولا هيئة كبار علماء الأزهر ولا المذاهب الأربعة ولا كل ما عاش عليه كدين عاش به الناس أبا عن جد ؟

انتبه وقد انقطع الانشاد ، وقدموا له كوب شاى ، وصحنا فيه قطعة تورته ، بالله تاكل يا أستاذ يوسف · التورته ليست من الجاهلية ، وانطلق يوسف يثرثر محاولا انقاذ نفســه من دوامة عدم التركيز التى تهاجمه وتجــذبه اليها · قال مجاملا ومدافعا عن نفسه وسط هذا الحشد :

ـ هذا الانشاد يشيع الراحة والسكينة فى النفس ··

كان يردد نفس الكلمات التى سمعها منذ قليل ··
نظر اليه الرجل بجواره نظرة فاحصة ، ولم يجب كأن الأمر لا يعنيه ·

وانطلق يوسف ·

ـ منذ زمن بعيد ·· وأنا فى حاجة الى الخلاص من حيــاة القلق والانفعالات العصبية التى نعيشها ·· هذا الانشاد يدعم النفس ويغذيهـــا بمعنويات هى فى أشد الحاجة اليها ·· ان العلاج النفسى الحديث له نظريات مشـــابهة لما تفعلونه لعلاج النفوس المضطربة ··

أتى الرجل باشارة فتقدم منه صاحب يوسف وانحنى عليه وتبادلا كلمات همسا ، ثم التفت اليه الرجل ونهض ، ونهض يوسف وصـــافحه الرجل وتحرك متجها الى باب الخروج ، ووقف يوسف ذاهلا حتى أسعفه صــاحبه فقبض على ذراعيه وقد غمرت وجهه فرحة ·

ـ سوف نلتقى بالمعلم ·

همس يوسف :

ـ أين ··؟

قال الرجل :

ـ سنذهب اليه فى داره ·

اذن فقد اجتاز مرحلة الاختبار · ومر باجراءات التحضير والاعداد للقاء · ترى كيف يكون هذا اللقاء · أية طقوس سوف تحيط به .. أية قداسة سوف تكشف عن مظاهرها له ؟ لقد جاء من أجل قضية شخصية · ولكنهم يقابلونه على انه رجل اعلام يحيطونه بكل المظاهر والدعاية لقوتهم يدرسونه ويفحصونه ويراقبونه قبل أن يصلوا به الى قيادتهم ·

دخل العربة الأولى من جديد ، تاركا وراءه مشهد الحلقة بوجوهها الطيبة العابثة المتفحصة الحالمة ، وقطعوا طريقا متربا على جانبيه بيوت ريفية ودخلوا زقاقا ضيقا مظلما ، تضيئه أنوار السيارة لتكشف جدرانا مهدمة وأطيافا وأشباحا غير محددة · تنحشر السيارة فى الزقاق حتى تقف أمام بيت من طين ·

كشفت الأنوار عيالا حفاة يلعبون ورجالا ونساء يتحركون فى ملابس رثة ، يقف بينهم كهل قصير نحيف له غطاء رقيق من الشعر الأشيب فوق رأسه الأسمر ، ظهره منحن وهو يتكىء على عصا غليظة طويلة كالتى يمسك بها الرعاة · هبطوا من السيارة وتقدموا فى طريقهم الى باب الدار من

الكهل عيناه نفاذتان ضيقتان ، ذقنه لم يحلقه تغطيه شعيرات بيضاء والأطفال يلعبون تحت قدميه ومن حوله وقال صاحبه هامسا :

ـ المعلم ·

كانت مفاجأة ليوسف · كل ما مر به من حلقات نقاش وترانيم وأسئلة اختبار ، وشاى وتورته ، انتهى الى ذلك الكهل الواقف عند الباب ، لو رآه فى الشارع بالقاهرة لظن أنه شحاذ · أهذا هو الرجل الذى يتسول نفوس البشر ، ويطلبها لتتجه معه الى الله فى طريقه الذى يقودهم فيه ؟

كانت تحية الرجل صامتة ، عيناه حزينتان ، ليس فيهما فرح ، لم يتحرك من مكانه ، لعله خشى أن يصطدم بأطفال تحت قدميه ، دفعوا بيوسف داخل البيت ، مرقوا من باب صغير الى ممر ضيق يفترشه أكثر من جسد ، أهم نائمون ، أم مرضى ، أم ماذا ؟ فى نهاية الممر الصغير حجرة يسدها حاجز خشبى طوله شبر ، الحاجز الذى يعترض من يدخل المسجد ، وطلبوا من يوسف أن يخلع نعليه قبل أن يطأ بقدمه حصير الحجرة التى هى أرض طاهرة · حجرة ضيقة بها امرأة نائمة على سرير من عنجريب أيقظوها أو هشوها كما كما نهش الدجاجة من التقفيصة ، امرأة فى الأربعين ، النعاس فى وجهها المنتفخ بالنوم ، خرجت تتمتم ، طلاء الحجرة من الأزرق تآكل وسقطت أجزاء منه وظهرت خدوش تكشف الجبس الأبيض تحت الطلاء ، أمام العنجريب الذى تركته

المرأة تستند الى الجدار أريكة خشبية عالية يغطيها سجاد رث ذهبت ألوانه • بجوار الأريكة فى ركن الحجـرة مكتب صغير خشبه البنى به خدوش وشقوق ، بجواره دولاب كتب صغير من نفس خشب المكتب له زجاج مكسور به رفان عليهما كتب قديمه وفوق المكتب نافذه صغيرة عالية مغلقة بضلفة خشبية وبجوار المكتب وبينه وبين الباب مقعد اسـيوطى بالوسادتين القطنيتين ، وجلس عليه يوسف ، بينما أقبل رجال خلعوا نعالهم ، يحملون مقاعد خشبية رصوها فى ثـلاثة صفوف بين المنجريب والاريكة وجلسوا صامتين ينظرون اليه بعيون بلهاء وعيون ماكرة وعيون حذرة وعيون حـزينة أو باسمة •

كل هذه العيون تحولت فجأة الى الباب قبل أن يظهـر المعلم وهبوا واقفين لابد انهم شعروا بحركة تنبىء بمقدمه ، تردد يوسف فى الوقوف حتى ظهر المعلم فوقف ، ومر به الرجل متجها الى الأريكة وجلس عند طرفها الملتصق بالمكتب وأسند كوعه على طرفه ، ونظر اليه بعينيه الحزينتين وتمتم بكلمات ترحيب بصوت ضعيف ، ثم سكت يدعوه الى الكلام ، يفرض عليه ان يتكلم والا غرقت الحجرة بمن فيها فى صمت رهيب •

انطلق يوسف متأثرا لقد اسـتفاد من الاختبارات التى اجتازها ، تحدث عن الراحة النفسية والسكينة • هذه الترانيم الجميلة ذات الايقاع المؤثر ، انها تمس المشـاعر الدفينة فى النفس ، ثم هؤلاء الشبان والشابات فى كل مكان ، منظر مؤثر

لابد أنكم قوة •• هذه نعمة كبرى من الله •

قال جملته الأخيرة وهو يتذكر عمر بك السـلماوى وهو يحدثه عن نعمة تدين حسن •

استمع المعلم اليه حتى اطمأن بلفتة سريعة الى الحاضرين أنهم حصلوا من هذا الغريب القادم من القاهرة على اعتراف شامل وكامل بوجوده وأهميته • خيل ليوسف وهو يتكلم أنه يتورط وأنه يدلى بتصريحات رسمية ومع ذلك كان لا يستطيع أن يتراجع ، وكان لا يدرى لماذا يتراجع • ان المجاملة والكلمة الطيبة هى الطباع الأصيلة فى المصريين ثم ان كل ما يقوله هو مقدمة لابد منها للوصول الى ما يبتغيه • ان يسال الشيخ على مكان حسن • من يدرى • قد تكون لهذا الرجل كرامات قد تتحقق على يديه « المعجزة » •

ومع ذلك انتاب يوسف احساس غامض ، بأنه قد يخطىء لو اندفع فى اطراء هذا المعلم انهم يعاملونه كعضو فى وفـد رسمى وقد يفسرون كلامه على أنه تأييد من مصـر لهذه الجماعة الدينية التى لم يعرف عنها شيئا حتى ساعات قليلة مضت •

اخرجه المعلم من حيرته بأن شرع فى الكلام عن طريقته ، منهاجه فى الدين • القرآن له تفسير للعوام • وله تفسـير للخاصة ، الجاهلية الأولى انتهت ، ولكن تلتها جاهلية ثانية لم تنته بعد • الناس تمشى فى طريق الضلال • يحاربون بعضهم بعضا ، يتقاتلون على المصالح الدنيوية وينشغلون عن الله •

الله أكبر من أن ننشغل عنه بالتوافه التى يتوهمون أنها اشياء خطيرة ·· الله اكبر من أن ننشغل بما يســـمونه محـــاربة الاستعمار وتأميم القناة ، الله أكبر من ان ننشغل عنه بهـــذه العلـــوم الفاسدة التى يدرسونها فى جامعاتهم لينصرف الناس الى عبادة صروح مشيدة ، وبروج لا تحميهم من غضب الله · كل ما فى الدنيا من مذاهب وأفكار وسياسة لا قيمة له ولا طائل من ورائه · ما قيمته اذا وضعته فى كفة ووضـــعت فى كفة أخرى التهجد والخشوع لله بالليل ·

تدفقت الكلمات من الشيخ فى صوت كان أول الأمر خفيضا لينا ، ثم بدأ يقوى ويشتد حتى أصبح له صليل وحدة صدمت الكلمات يوسف وبقدر ما ادهشته وافزعته بقدر ما شـــعر بتجاوب خفى بينه وبينها لا يدرى كيف تسلل اليه ·· ولكنه يعرف أن أى حديث يسمعه يقوض دعائم الذين يتشـــدقون بالعلم والشهادات ، ويحتقر الجامعات ويسخر من الأفكار ، يجد صدى فى نفسه ، انه لم يصنع حياته الاعلى الا على دعائم التحدى لكل هذا رفض التعليم الجامعى ، وخرج من الســـنة الثانية من كلية الحقوق ضاربا بكل المستقبل الذى أرادوا أن يفرضوه عليه عرض الحائط ·· لا يشعر بكراهية ونفور أكبر من ذلك الذى يستولى عليه وهو يقابل مؤلفا يتحدث عن النقد الأدبى والفنى الذى درسه فى كلية الآداب ·

استطاع أن يقنع المخرجين بأنه صاحب الموهبة · حارب بكل الأسلحة ليصل الى ما يريد ، وليصل اليه بغير الطريق

الذى أرادوا ان يفرضوه عليه · الغلبة للأقـــوى ، والويل للمغلوب ، كل الأسلحة مباحة فى الحب والحرب ، ومع ذلك فهو يتعلم ، ويقرا ، ولقد اقبل فى السنوات الأخيرة على قراءة شكسبير وتوماس مان وميكافيللى — انه يتسلح بكل الأسلحة الثقيلة ليقضى على كل من يتهمه بأنه رخيص وتجارى ومبتذل·

تهدج صوت يوسف وقال منفعلا :

ـ أنت رجل صالح ·· ولقد أكرمتنى بمقابلتك لى ·· ولقد جئت اليه ·· لأنى فى حاجة اليك ·

نظر الرجل اليه مشجعا ، واتجهت كل العيون الى يوسف ·

قال يوسف فى ضراعة :

ـ ليتك ترشدنى الى ابنى الذى هجرنى ·· ترك البيت واختفى ·· كان لا يرضيه شىء فى دنيانا ·· وقالوا انه قد يكون قد جاء اليه ··

وجه المعلم نظرة حزينة اليه وسأل بصوت ضعيف :

ـ ما اسمه ؟

أجاب يوسف بلهفة :

ـ حسن ·· حسن يوسف منصور ·

سأل المعلم :

ـ من أى بلد انت ؟

أجاب يوسف بسرعة :

ـ من مصر ٠
قال وقد احتد صوته :
ـ أعرف ٠٠ لكن هل أنتم من الصعيد ؟
أجاب يوسف :
ـ لا ٠٠ أصلنا من الاسكندرية ٠٠
قال المعلم :
ـ لا أظن أنه قد جاء الينا ٠

أينكر الرجل وجـــود ابنه ٠أيرفض تحقيق المعجزة أمام أتباعه ٠ أيتقبل منه كل هذا المديح والاطراء والمجاملات ٠ ثم لا يقدم له شيئا ٠

كان يبحث فى نظرات الشيخ عن حسن ٠ لماذا يخفيه ٠٠ أهو يدبر شيئا فى الخفاء ؟

وفجأة خطر ليوسف ٠ أن كلامه الذى صرح به للمعـلم محمد زكريا ٠٠ قد يكون وراء محاولات اللواء الحـــوت لاستدراجه ٠٠ هناك من نقل اليهم انه يؤيد هذا الرجل ونهب اليه رغم أنه فى وفد اعلامى رسمى ، وبايعه رغم انه قـال له ان تأميم قناة السويس كان خطأ وانشغالا عن الله ٠

أهذا هو ما يسعى اليه الحوت ٠٠ أيكون هناك مؤامرة قد تورط فيها وهو لا يدرى ، حدث شىء ما فى السودان استغلوا فيه اسمه ٠

وسمع يوسف صوتا يناديه ٠٠
أفاق من خيالاته ليرى عينى زجاج تحدثان فى عينيه ٠٠ الحوت وقف امامه ٠ يهتف :
ـ اين أنت ؟ لقد فرغت من صـــلاتى ٠٠ فلم اجـــدك ٠٠ فانتظرتك ٠

وانقبض صدر يوسف ٠٠ ولم يعد واثقا مما يسعى اليه الحوت ٠٠ لم يعد واثقا من شىء على الاطلاق ٠

وجهــــــه بيده ·· فاختفت عينـــــــــاه الزجاجيتان وراء أصابعه ، فلما انزاحت عنهما الاصابع ، كانتا أكثر لمعانا عينان مصقولتان ، تنكران يوســـف بعيني طائر غريب رآه محنطا وهو طفل يزور متحف حديقة الحيوان مع أبيه · كان يتذكر عيني الطائر وهو راقد فى فراشه فيفزع ، ليال طويلة وهو يستيقظ صارخا فتحتضـــنه امه لينكمش فى صدرها الحنون الدافىء ·· ويتمنى لو يغيب ·· يختفى فى هذا الصدر ولا يخرج منه أبدا · أين صدرك يا أمى لأحتمى به من الحوت ؟

همس الحوت وقد فرغ من مسح وجهه ·

ـ نمشى قليلا ·· الحديث طويل ·

تردد يوسف وهمس بدوره :

ـ كدت أن أتوه ··

ابتسم الحوت ، وأطمأن ، وجذبه برفق من ذراعه ، وهو يفتح صدره ليستنشق هواء جلبه نسيم منعش ، رفع يوسف بصره الى السماء ، كأنه يريد أن يتأكد من وجود الشمس ، أشعتها ناعمة لينة ، لا تتناسب مع أشعة الظهيرة فى اية سماء

بلا سحاب · ورأى الظلين الأبلهين يتبعانهما تحت اقدامهما بينما انساب صوت الحوت حنونا طيبا ، على وجهه امارات أسى ، جعلت يوسف يستريب فى وساوسه وشكوكه ·

بدأ الحوت بالحديث عن عمله فىالمباحث وتخصصـــه فى مكافحة الجرائم السياسية ، خبرتى القديمة منذ أيام فاروق هى التى رشحتنى لهذا التخصص · رحبت به لأنه أنقذنى من شحططة العمل فى الأرياف · وبقيت فى عملى لأنى كما قلت لك أعرف حدودى · لم يركب رأسى الغرور يوما ما · لم أتوهم أنى صاحب سلطة · هذا الوهم هو أخطر ما يصـــيب رجل الشرطة الذى يتعامل مع الجرائم السياسية · أنها مجـــرد مهنة ، حرفة من الحرف ، اخطاؤك تبدأ فى اللحظة التى تظن فيها أنك صاحب رسالة أو تتبنى سياسة حاكم ثم تدور الدوائر وتجد نفسك مطرودا معه وقد حملوك كل ذنوبه ·

العملية بالنسبة لى انحصرت فى اثبات كفاءتى باليقظـة الدائمة ، كنت ألازم مكتبى فى الأيام العصيبة ليل نهار · أحيانا أغيب عن البيت ثلاثة أيام متواصلة ، وأحيانا أعود الى البيت فى الفجر لأكون فى مكتبى فى الثامنة صــباحا ، لأن كل شىء يتوقف على سرعة الاستجابة للأحداث ، أن تحاصرها فى بيت افضل من أن تواجهها فى مدرج بالجامعة ، وأن تواجهها فى المدرج ، أفضل ألف مرة من أن تضطر الى مواجهتها فى الشارع لذلك كانوا يقولون : اذا طلبت الحوت فى أية ساعة من النهار

أو الليل ، سوف تجده يجيب بنفسه على التليفون ، طبعا أنا أنا لست ساحرا ، ولا أدعى أنى أقوم بالمعجزات ولكنها مجموعة من الصدف ، وتوفيق من الله لأنى رجل طيب وأحترم عملى ، كل ذلك جعل الرياسات تطمئن الى · لن أطيل عليك فأنت تريد أن أصل بك الى موضوع ابنك وهذا هو أيضا ما أريده ليستريح ضميرى ، لأنى أب مثلك وقد أراد الله أن يحفظ لى بنتين ، أما الأولاد الذكور فشاءت حكمته أن ارى اثنين منهم مجهضين ، وثالثا تذكره ربه قبل أن يبلغ العام ·

أتصدقنى لو قلت لك انه الحسد ، نعم العيون الفاجرة التى تحسد ، هذا فى القرآن ومن شر حاسد اذا حسد ، يا بختك يا سعد على الأقل تستطيع أن تربى أولادك فى بيئة نظيفة ومدارس محترمة فى القاهرة · سمعتها وبعد يومين رأيت الجنين الذكر مجهضا فى شهره السابع ·

الولد راح بعد أن أصبحت رئيسا على زملائى بشهر · لم تبق الا البنتان ، وانا راض بما اختاره الله ، كل شىء قسمة ونصيب · ولكنى أريد منك أن تعرف أن سعد الحوت الذى يقف أمامك وأمام خالق الكون ، يعرف تماما حرقة الحرمان من الولد · كنت عندما أغيب عن البيت ولا أرى مديحة وخديجة اشعر بالألم كالخناجر تمزق صدرى · كانت مديحة وهى الصغيرة تقول لى وحشتنى يا بابا فاغلب دموعى · لن انسى وهى مريضة راقدة فى السرير عندها الحصبة ، ووجهها

ملتهب وصوتها مختنق وحرارتها أربعون ، وهى تقول لى تحاول الابتسام ·· لا أريد أن أشفى لأنى أراك كثير الآن ·

حياة غلب فى غلب · ولكنك تعود الى المكتب ، فتجد التليفونات والتقارير ، وطلبات من الوزير ، وأحيانا من الرجل الكبير · والدنيا مقلوبة · ولابد أن تطمئن الى تنفيذ التعليمات ·

المهم ، كان أحد هذه التعليمات فى فترة من الفترات أن أدعم اتصالنا بالجماعات الاسلامية ، استعدادا لخطة عمل جديدة · طبعا نحن على اتصال بكل من لهم نشاط سياسى فى البلد أيا كانوا · الشيوعيون بكافة أنواعهم واتجاهاتهم ، الصينى والروسى والاوروبى والكوبى أشكال وألوان فوضويين وبعثيين وقوميين وناصريين ·· جمعيات دينية اسلامية ·· قبطية ·· يهودية ·· بهائية ·· جمعيات نشاط ثقافى أو اجتماعى فى الجامعات ، فى النوادى فى المقاهى ، فى البيوت ·· كله ·· كله ·· لدينا عيون وأعضاء منضمون الى هذه التجمعات ·· قيادات بينهم تعمل لحسابنا ·· يعنى آية جماعة يخطر ببالها ان تدخل فى موضوع السلطة والسياسة والحكم ·· كانت مهمتى أن أكون بينها ·· اجمع المعلومات وانظم الأرشيف وأستكمل بيانات كل مجموعة ·· فاذا سألونى ·· ما هى حكاية فلان يا سيادة اللواء ؟ يسألوننى وهم مطمئنون مائة فى المائة أن سعد الحوت مستعد وجاهز ·

عندما طلبوا منى تدعيم اتصالاتى بالجماعات الاسلامية لم أكن أنتظر حتى يصلنى هذا الطلب ·· كنت على اتصال بها بالفعل وعندى أخبارها بالكامل ·· الى درجة أنه كان بين جماعة من التقوى والتقية ·· ضابط من أولادى ، وبينى وبينك لم يكن متدينا ·· ولكنه كان نشيطا وذكيا وله طاقة كبيرة على العمل ، وبينى وبينك كنت لا أستريح لشخصيته ·· وهذا هو الخطأ الكبير الذى وقعت فيه · أرجوك يا أستاذ يوسف ·· لا تنظر الى هكذا ·· أصبر ·· حتى أقول لك كل شىء ·

كان يوسف يواجهه بعينين غاضبتين وقد بدا عليه الضيق وهمس :

ـ تحدثنى عن زياد الأسمر ؟

قال الحوت :

ـ طبعا ·· أنت تعرفه ·· والعالم كله يعرف حكايته ··

رفع يوسف صوته المختنق بالغضب :

ـ هو أيضا اخترته لتصل به الى حبل المشنقة ·· كما وصلت بابنى الى المؤبد ·

قال الحوت وهو يتشبث بذراع يوسف :

ـ ارجوك ·· أصبر ·· انا لا احدثك الآن عن قتل الدكتور ابو الفضل · عميد الحقوق · انا احدثك عما لا تعرفه ·· ولا يعرفه الا قلة تعدها على أصابع اليد الواحدة ·· الجريمة كانت ستحدث سواء كان المحرض زياد الاسمر أو غيره ·

وسواء كان الذى طعن أبو الفضل بالخنجر كان حسن يوسف منصور ·· أو عبد السميع ·· أو أى شاب آخر ·

صاح يوسف :

ـ هل أنت واثق من هذا ··

قال الحوت متوسلا :

ـ لو تسمعنى ·· أجل الحكم حتى تسمعنى ·· اسمعنى ثم قل ما تشاء ·· ان ما أريد أن أبوح لك به يؤرق ضميرى ·· ولكنى أشعر أن هناك أملا ·· ولو بصيص من الأمل فى أن تفهمنى وتقدر ما أنا فيه ·· أنت من دون الناس كلهم ·· لأنك اب منكوب فى ابنه الذى كنت مسئولا عنه ·· قلت لك انى أريد أن أصفى الحساب ·· فأما أنا · مجرم كما اتهمتنى أو أنا مجرد سبب من الأسباب لما حدث ··

هز يوسف رأسه مستنكرا ما يسمعه ·

ـ لست أفهمك ··

هتف الحوت يائسا :

ـ ولا أنا أفهم نفسى ·· ولا أفهم ما الذى يدفعنى دفعا الى هذا المكان ويفرض على أن أتكلم ·· أرجوك اعطنى فرصتى ·

وأسرع الحوت يتحدث عن زياد الأسمر قبل أن يقاطعه يوسف ، ذات يوم دخل زياد على ضابط مرءوس له ليبلغه تعليمات أصدرها الحوت ، فوجد الضابط يصلى ساجدا لله ، فناداه ، فلم يلتفت اليه الضابط ، فركله زياد الأسمر هائجا

وأخرجه من صلاته ، لينطلق وينفذ الأوامر ، كان قاسيا لا يرحم · فيه غلظة وميل الى التسلط وممارسة الجبروت · وكان معتدا بنفسه الى حد الهوس ، أبوه عمدة من براري الدلتا ، حيث استطاع الاقوياء الشرسون الاستيلاء على المساحات الشاسعة من الأراضي · بصراحة اخترته لمهمة التسلل الى جماعة « التقوى والتقية » وأنا أقول لنفسي ، هذه عقوبة له ، فلينضم الى جماعة متدينة تمارس الطقوس الدينية بمنتهى التزمت والتشدد ولسوف يضطر للخضوع الى طقوسها · ومن يدرى لعل نفسه الشرسة تتهذب من هذه التبعية الاجبارية ·· والمدهش أنه بعد شهور قليلة كان زياد الأسمر في قيادة هذا الجماعة ·

وكان يأتيني بكل ما أريده عنهم من معلومات · قام بواجبه على أكمل وجه ·· عرفت أساليبهم في الدعوة ، أين يدربون الأولاد ، ما يدور في اجتماعات القيادة ·· كانوا يعرفون أنه ضابط شرطة ، ولكنه كان يمثل من وجهة نظرهم انتصارا كبيرا لهم ·· كانوا يهنئون انفسهم بأنهم تسللوا الى قيادة المباحث ، مما هيأ اذهانهم لوضع الخطط للاستيلاء على السلطة ، كل هذا كنت أعرفه عن طريق زياد · وكان ينفذ لنا اى توجيه ·· يا زياد الشيوعيون يدبرون شغبا في الجامعة ويمهدون له بجرائد حائط يكتبون فيها مقالات تهيج · كان زياد يتحرك من قيادة جماعته ، فينقض أولاده على الشيوعيين يحاصرونهم ويمزقون جرائدهم ويرهبون من يفكر في مجرد

السؤال عن أخبارهم ، نفس التكتيك الذى كنت أستخدمه من خلال قيادات الشيوعيين لضرب أى تحرك من الجماعات الدينية أو غيرهم اذا ما اقدموا على حماقة ، وتوهموا أنهم قادرون على فرض رأيهم على السلطة · عملية توازن مستمر ، فاذا حدث التوازن حدث الاستقرار ، ويدخل المتمردون الشقوق والجحور حتى تحين لهم الفرصة لمعاودة الظهور ·

أول مرة قرأت فيها اسم حسن يوسف منصور ، كان في قائمة لمجندين جدد أرسلهم زياد الى معسكر تدريب في البحر الأحمر ·· كانوا يتدربون تحت سمعنا وبصرنا ·· الكاراتيه ·· والجودو ·· واستخدام الخناجر ·· وكنت مطمئنا اليهم ·· لانهم قوة أمن تحت قيادة ضابط من ضباطي · وقد أستعين بهم في مواجهة مؤامرة للتخريب ، فيكون الشعب هو الذى تصدى للمؤامرة لا رجال الشرطة ·

كنت أضع كل اسم تحت فحص دقيق · أحيانا يتسلل الى هذه الجماعات مندوبون من جهات متعددة الـ ك · ج · ب الروسى · الـ س اى ايه الأمريكانى ·· اسرائيل ·· البعث ·· المنظمات الفلسطينية ·· الفهود السود · الالوية الحمراء · عالمنا اليوم أصبح عالمين : عالم على السطح · وعالم تحت الأرض · فيه من الجمعيات السرية والارهابية أكثر من الجن والعفاريت وكل سكان العالم السفلى من رعايا إبليس ·

التحرى هو اجراء روتينى لابد منه • طلبت تحريات كاملة عن حسن • وعنك فأنت أبوه ، ولك نشــاط في التليفـزيون والكتابة ، وهذا يجعلنا نحتاط أكثر وأكثر والذى يتعامل مع أجهزة الأعلام لابد أن تستوفى تحرياتنا عنه من كل جهة ، أيام كنا على علاقة حسنة بروســيا كانت تصلنا معلومات عن النشاط السياسى فى مراكز كثيرة على سبيل التعاون معنا •

وكانت أغلب معلومات الروس تعتمد على تقارير تصــلهم من الشــيوعيين • وكان زعمــاؤهم قد خرجوا من المعتقــلات وانتشروا فى أجهزة الثقافة والأعلام •فى أحد التقارير قرأت أنك من ذوى الاتجاهات الرجعية ، وأنك تمت بصــلة قرابة لشيخ الأزهر عبد السلام صــبرى ، شيخ بارز فى عهد الملك فؤاد ، وأن شقيقه لطيف صبرى الذى كان سفيرا ووكيل وزارة هو زوج أمك • وأنك سافرت مع وفد لمصــلحة الاســتعلامات بدعوة لافتتاح خط جوى الى أمريكا وحضرت حفل كوكتيل فى نيويورك وشربت حتى فقدت وعيك •

وجلست على الأرض بجوار أحد الأمريكيين تعانقه وتقول له وأنت تبكى لا أريد ان أعود الى مصر •• أريد أن أعيش هنا •• وقال مسئول فى التليفزيون انك رجعى ، وقال آخر انك انســان بغيض مدلل • وأنك غير متعلم ، ولك ميول فاشــية تعوض بها جهلك •• فى مقابل هذا كان هناك تقرير امريكى عندما تحسنت علاقتنا بالأمريكان يقول انك كونت صــداقات

بالشــيوعيين فى التليفزيون • وأنك واقع تحت تأثيرهم •• خاصة مجموعة « ش • ش » شيوعية شــعبية •• وفى حفل اقامه الملحق الثقافى لسفارة المانيا الغربية ، قلت ان أمريكــا سوف تنهار ، وتدخل فى الحديث الملحق الصحفى الأمريكى ، وكنت تتحــدث معــه بانجليزية رديئة ، وعندما انصرفت قال الملحق الأمريكى لمن بجواره •• لا أدرى لماذا يكرهنا ••

طبعا كانت لدينا تقــاريرنا الخاصــة وفيها معلــومات عن ســهراتك مع مخرجى التليفزيون وشــلل الفنــانين •• ولقــد خرجت من كل هذه التقارير بأنك غير خطر فيما يخصنى •• ولم يدهشنى أن جميع الأطراف تتبرأ منك ، وتلحقك بمعســكر الخصوم • فأنت لا تفكر الا فى نفسك « اتصلت بالشيوعيين حين كان الاتصال بهم يسهل اذاعة تمثيلياتك والتعليق عليها فى الصحف • ولكنك فى أمريكا قلت لهم انك تريد أن تعيش بينهم ولعلك كنت تفكر فى أن تصــبح كاتبا مشهورا له أفــلام يخرجونها فى هوليود • وعندما قلت فى ســـفارة المانيا ان أمريكا ستنهار ، كنت تجامل الملحق الألمانى الذى قلت له كما قرأت فى تقرير لنا أنك رغم كل ماحــــدث مازلت معجبا بهتلر » •

ولا أدرى كيف فاتت هذه التفاصيل على الأمريكان • ولكن هذا هو عيب التقــارير • والعيب الأخطر فى الذين يقـرأون التقارير انهم لا يكلفون أنفسهم مشقة المقارنة والتحليل ••

وأنا سعد الحوت من القلة التى لا تقبل أى تقرير على علاته ، للأسف يستسهل الآخرون الأمر ، فأنت بعثى أو شيوعى أو ناصرى أو رجعى حسب السطور التى تقع تحت عينى من يقرا تقريرا وهو متعجل يريد أن يتخلص من أكوام التقارير المكدسة امام عينيه المجهدتين ، ومع ذلك أقول لنفسى الآن ان أمانتى فى العمل وحرصى على التدقيق ، هما اللذان أوقعانى فى هذا الموقف الذى أقفه الآن معك • لو كنت اكتفيت بقراءة التقرير الذى يقول أنك خاضع لتأثير الشيوعيين ، واستسهلت الأمر • كنت حذرت زياد من تجنيد ابنك لتأمينه من أى تسرب شيوعى ، وكنا أعدناه لك • ولكنى وجدت أن له صلة قوية بعائلة دينية كبيرة ولها اسم مازال الناس يذكرونه ، وهذا الاسم يعطى نكهة خاصة للمجموعة التى تعمل مع زياد • ومادام هو راض عن حسن يوسف منصور فليكن له ما يشاء • لابد أن يطمئن الى رجاله ، ويستطيع أن يوجههم فى المعارك التى تنشب كل يوم فى العالم السفلى • النشاط السرى المعادى الذى نواجهه بنشاط سرى مضاد •

والمثل يقول لا يفل الحديد الا الحديد ، وداونى بالتى كانت هى الداء ، ومن المستحب أن تجمع فى صفوفك عينات من البشر تواجه العينات التى تحاربها • الشبان ينجذبون الى العمل السرى من كل طبقة ومن كل بيئة • العمل السرى يرضى شعورهم بالمغامرة وأحلام البطولة والمخاطرة والغريزة

المنطلقة للمراهق تريد تحطيم كل شىء • ولكن فى الوقت نفسه وجدت بخبرتى ان الشاب من هؤلاء متعطش فى نفس الوقت للطاعة العمياء • يبحث بأسنانه وأظافره وبكل طاقات روحه عن قوة يحترمها الى درجة التقديس ويستسلم لها ويعيش فى كنفها • ماذا يبقى للولد الذى يفقد احترامه لأبيه وأمه ، ويفقد احترامه لمدرسته وناظره ومدرسيه ، ويفقد احترامه للكبار ، يجلس بينهم فيجدهم يتشاتمون ، ولا يخرج حديثهم عن نطاق السرقات والرشاوى يتهمون بها أصدقاءهم بمجرد ان يولوا ظهورهم •

الولد الذى يتعرض لهذا التغير من حوله ، يتمرد على كل شىء وينطلق لتدمير كل ما حوله ، حتى ولو اكتفى بتدميره فى خياله ، ولكنه يفقد توازنه ويحاصره الضياع ، ويتمنى فى قرارة نفسه ان يستعيد أمنه واستقراره ، والشعور بالحماية الذى يفتقده ، وهنا يتقدم العمل السرى برهبته والهالة الباطشة التى تحيط به • السرية والغموض والاشتراك فى عمل مع آخرين مجهولين • والانصياع الكامل لأوامر وتعليمات قيادة عليا مجهولة تصدر قرارات مقدسة لابد من احترامها ، ولا تهاون مع من يخالف الأوامر ، انه يفقد حياته • بطش وارهاب • نعم • ولكنه وضوح واستقرار وأبيض وأسود لا لف ولا دوران • وهذا هو ما يستهوى الشبان •

وهذا هو ما انفجر فى البلاد كالوباء بعد كارثة ١٩٦٧ ،

هزيمة ساحقة ، وخيبة أمل لا مثيل لها · سقطت هيبة الكبار ، ضاعت الآمال ، القوة الرهيبة المنتصرة تحولت الى رماد فى دقائق · سقط الناس فى كابوس ، أو استيقظوا من كابوس · هذا ما قاله الأولاد لأنفسهم ، افقنا من خدعة اذلتنا واهانتنا · وانطلقوا وراء قوى سرية تصـــدر لهم القرارات وتطـالبهم بالطاعة العمياء · وانصاعوا لها ليتخلصوا من ذل الطاعة العلنيـة لمن قادوهم الى الهزيمة · اتجهـوا الى الجمعيـات السرية بحثا عن سلطة جديدة أو طمعا فى الارتباط بسلطة لم تنهزم ، أو وصولا لسلطة تعوض المهانة العلنية بأعمال سرية فيها بطش وانتقام واستعلاء · أعمال تتم بتدبير فى الخفاء · شبان من كل لون ، طبائع مختلفة ، خليط من المثالى والمتعصب والأحمق والأبله والقاسى والخائن والدساس · فقراء وأغنياء ، جهلة أميون ومتعلمون ، جاءوا يضعون ارادتهم تحت تصرف قوة سرية مجهـولة لا يعرفون عن أشـخاص قيادتها شـيئا محـددا ، ولكنهم يثقفون فى بطش هذه القـوة وجبروتها · يستمدون منها الاحسـاس بالقوة والقدرة على البطش الذى يسـترد للنفس المقهورة عزتها وكرامتها · كان أحد التقارير يصف حالة ابنك وصـفا رأيت فيـه نموذجا متكـاملا لكـل مواصفات الشاب الذى ينضم الى جمعية سرية · سواء كانت فوضـوية شـيوعية ، ملحدة ، أو دينيـة متطرفة · النماذج تتشابه والسـبل التى تختارها تختلف الرهان بالنسبة لهم جميعا هو السلطة ، لا مبادىء ولا يحزنون · ابنك رفض سلطة

البيت فقد احترامه لها ·· كان قد خرج من مرحلة الاستجابة الى مرحلة الالتصاق ·

فالذين ينضمون الى « التقوى والتقية » لهم درجات ومراتب أولا ينضم الى المسـتجيبين ، فهو يسـتجيب لما يسـمعه من الدعاة ، ثم أصبح من اللاصقين الذين أقسموا على الارتباط بالجماعة ، وقد جاء فى التقرير أن اللاصق حسن قد انفصل عن أهله بمحض ارادته ، وأنه لجأ الى أحد زملائه اللاصقين · وطلب منه أن يأويه فى داره ، اتصــل هذا اللاصـــق بأحد « الفتيان » وهو من مرتبة أعلا وأخبره بالموضوع ، فرفعه الى القيـادة وبحثوا أمره ، فوجدوا أنه قطـع شـوطا يؤهله لأن ينضم الى زمرة الفدائيين ·

كان العضو يمر بمراحل عليه أن يجتازها ليرتقى درجات العضوية · أولا يمر بامتحان التفرس · يفحصونه ويراقبونه فاذا وجـدوه صـالحا أى مسـتجيبا لا يكثر من المناقشـة ولا يعترض على ما يسمعه بل هو متشوق لسماع المزيد متلهف ـ مثل حسن ـ الى الانتماء الى من يرشده ويقوده · أدخلوه فى الاختبار التالى ، وهو التأنيس ، يطمئنونه ، ويهيئون له الجو الذى يستريح فيه ، فهو دائما على حق ، وهو ضحية الحياة فى هذه الدنيا الفاسدة ·

ما يلحقه من مضايقات بسبب فساد أهله · وخروجهم على الدين القويم ، هو على حق وأهله على خطأ ، هو الصالح الذى

يبشر بالفـــــلاح ، لأنه مازال محتفظا بفطرته أما أبوه وأمه ومدرسته ومعلموه وكل ما حوله من أهل واقارب ومجتمع فيه صحف وتليفزيون ودور سينما ومسارح واذاعة · فهو الشر والفساد والتعفن وغضب الله على الكافرين ·

ويشعر الولد أنه يقف قويا قادرا ، مستمســكا بالحق فى وجه الشياطين الذين يعيثون فى الارض فســــادا · وعندما يتحصن بهذه القوة المعنوية ، حتى يكاد يركبه الغرور ، يتسلمه أحد الدعاة وهو من مرتبة أعلا من مرتبة الفتيان والفدائيين · رجل له خبرة بنفوس الاولاد المراهقين ، يتلذذ بممارســـة سيطرته النفسية على الاولاد والشبان ، مهمته ان يســتدرج المستأنس الى الاحساس بأنه لم يفهم شــيئا ، كلما فتــح فمه ليقول كلمة أو أدلى برأى قال له الداعى ·· لا ·· ليس الأمر كما تقول · أنت لم تفهم بعد · أمامك شوط كبير تقطعه قبل أن تدرك حقائق الأمور ·

يظل الداعى يحفر الأرض تحت قدمى المستأنس حتى يسقط فى هوة الشك ويهاجمه احساس مخيف بالضياع ·

وينهار كأى مدمن فقد المادة التى تشرب بهـا جســـده ، وتسممت بها دماؤه ثم عجز عن الوصول اليها · لقد تعــود على تلقى التأييد لكل ما يقول · تعود على الترحيب بآرائه · اطمأن الى نفسه · أدمن الثقة بأصحابه اللاصقين والفتيان ، أصبحوا المجتمع الذى ينتمى اليه · هم أهله · هم أصحابه

هم اقرب اليه من أمه وابيه ، فما الذى حــدث حتى يحرم من كل هذا · فلم يعد لكلامه نفس القبول القديم · وها هو الداعى صاحب المرتبة الكبيرة · يرفض ما يسمعه منه ، ويكاد يطرده من مجتمعه الذى التصق به · احساس مخيف بالضـــياع ينتاب المتشكك · انه يبحث عمن ينقذه · يبحث عمن يسعفه ويعود به الى مكانته فى الحظيرة التى يوشك ان يطرد منها ·



وهنا يتدخل الداعى وقــد وصلت الازمة فى نفس المتشكك الى ذروتها فيلقنه التعــاليم والتوجيهات التى تثبت أقدامه بين أعضاء الجماعة · ويتلقفها المتشكك كوحى مقدس · نعمة تهبط اليه · نور يهديه فى الظلام الدامس · ليعيد اليـــه ثقته بنفسه · ويعيد اليه قبـــول جمـــاعته له · فاذا ما تلقى التعليمات بهـــذه اللهفة وكل ما لديه من حماس · ادخلوه مرحلة التدليس · يقـــول له الداعى كلاما كثيرا لا يقبـــله العقل العادى · كلام لا أصـــل

له ولا فصل · ولكن المتشكك يقبل كل ما يسمعه على أنه كلام مقدس · لقد استسلم وخضع · لا بعقله وارادته · بل مسلوب العقل والارادة ·

وهنا فقط يدخل العضو مرحلة التأسيس · لتثبيت عقيدة الجماعة فى كيانه · فتصبح هذه العقيدة هى الهواء الذى يتنفسه والماء الذى يشربه والطعام الذى يأكله · هى حياته وينفصل تماما عن كل صلة له بما كان فيه فى الماضى · ينفصل عن صلة الدم عن العادات والتقاليد التى ورثها من مجتمعه الفاسد · ينفصل عن الدين كما فهمه من أهله وآبائه وأجداده ويصبح انسانا آخر · خلع الماضى كما خلع الضرس الذى نخره السوس · عملية جبارة وخطوات مدروسة غسيل مخ على أحدث طراز · ولكنها نفس الخطوات التى استطاعت بها فرق الباطنية أن تحكم فى تاريخ الاسلام فى ايران وترهب العالم الاسلامى لقرنين من الزمان قبل أن يدمر هولاكو الدولة العباسية ويجتاح العالم الاسلامى · لا تدهش اذا كنت احدثك عن التاريخ · فتقاريرنا لا تشتمل على معلومات واخباريات فقط · عندنا تقارير فيها دراسات اجتماعية واقتصادية ونفسية وتاريخية · خبراء مكافحة الجرائم السياسية لم يتركوا شيئا فى الحاضر ولا الماضى ولا أيضا ما يحتمل تصوره فى المستقبل لم يدرسوه · على أية حال هذا هو ما مر به ابنك ·

وجاء يوم سألنى فيه مدير الأمن عنه · علمت انك تبحث عنه · وكان من الممكن ان اخبره بمكانه ، أو أن أطلب من زياد ان يستغنى عنه · فالأب الذى يفتش عن ابنه الوحيد يواجهنا بموقف انسانى ليس من السهل أبدا تجاهله · وقابلت زياد رغم المشقة التى نتكبدها والمخاطر التى نتعرض لها عندما ندبر مثل هذه اللقاءات · أية هفوه ، أية خطوة غير محسوبة ، قد تكشف زياد وتعرضه للخطر ، ويضيع كل ما بنيناه لحماية الأمن · وسألت زياد عن رأيه · رفض مجرد التفكير فى عودة حسن ، الولد خلع · ولن تستطيع قوة على الأرض ان تعيده الى ما كان عليه ·· ولو تركناه فلن يعود الى بيته ، سينشىء جماعة أخرى يقودها بنفسه · ومازلت أذكر زياد وهو ينظر الى غاضبا هاتفا :

ـ كيف يخطر ببالك أن نتخلى عن سلاح من أقوى الأسلحة فى أيدينا ·· ان حسن هذا لو قلت له اقتل نفسك لن يتردد لحظة فى اغماد الخنجر فى عنقه · وهو يعرف جيدا كيف يغمده فى مقتل ·

قلت له مترددا :

ـ أبوه المسكين يبحث عنه ·

فاحتج منكرا ما أقوله :

ـ ليس هو أول أب أو آخر أب يفقد ابنه ·· ولسنا مسئولين عن هجر الولد لأبيه ·· هو الذى جاء الينا ·· وأبوه هو

الذى طرده ·· اننا فى حرب لا بد لها من ضحايا ·

وحسم زياد المناقشة عندما قال لى :

ـ اذا فكرت فى اعادة الولد ·· فلست مسئولا عن تنفيذ خطة بدر الجمالى ·

وهذا معناه ان جهودنا الكبيرة معرضة للانهيار ·

كانت خطة تدعيم اتصالاتنا بالجماعات الاسلامية المتطرفة من تصميمى ·· وقد وضعت للخطة اسما ·· سميتها خطة بدر الجمالى نسبة الى بدر الدين الجمالى الذى تعامل مع شيخ أكبر منظمة دينية ارهابية فى تاريخ الاسلام ، وهى منظمة الحشاشين ، استطاع بدر الجمالى ان ينقذ مصر من ارهابهم بخطة بارعة ، فعندما جاء شيخهم الحسن بن الصباح الى مصر عام ٤٧١ هجرية ·· طلب بدر الجمالى كمسئول عن الدفاع والأمن وأمير للجيوش من الخليفة الفاطمى المنتصر بالله ان يرحب بالصباح وان يكرمه اكراما زائدا وان يضع قصرا تحت أمره وفى الوقت نفسه يمتنع عن مقابلته بحجة أو أخرى · ونشط الصباح وكثر زواره وتعددت الندوات والسهرات فى قصره ، واستغل بدر الجمالى كل هذا ليجمع كل ما يستطيع جمعه من معلومات عن الصباح ، وعن الذين يلتقون به ، وعن المناقشات التى تدور ، والمشتركين فيها ، ورأى كل زائر ، وكان الحسن الصباح يمهد لدعوته ، ويجمع الأنصار والأعوان ، والجمالى يسجل ويرصد ، حتى استوفى

المعلومات وكملت الصورة ، وعرف أبعاد المخطط ، واتصالات الصباح بالشام وايران وبغداد ، ثم جاء يوم حاصر فيه الأعوان وتمكن منهم وقبض على الحسن الصباح واعتقله فى دمياط ·

واستطاع الصباح ان يفر ، ولكنه لم يستطيع ان يمد نفوذه بعد ذلك الى مصر أبدا · قتل من قتل وأرهب سلاطين وحكام المسلمين فى كل مكان الا مصر ·

خطط ليختطف أحد أولاد الخليفة الفاطمى ، أو أحدا من أقاربه ليضمه اليه فى قلعة « الموت » التى استولى عليها وتحصن بها فى ايران وليستخدمه فى تهديد السلطة المصرية وارهابها · ولكنه لم يفلح فى اختطاف أحد · لقد عرف الجمالى مسبقا كل من قد يعتمد عليه الصباح وأعوانه ، وكان لهم بالمرصاد ، فهل أضحى بأمن مصر ، وأمن السلطة ، هل اخون أمانة وظيفتى ، من أجل اعادة ابن يرفض أهله بل انه قد يقتلك دون ان يهتز له رمش · وهكذا اتصلت بمدير الأمن وقلت له : اترك موضوع حسن يوسف منصور ·

سألنى ماذا يقول لك عندما تعود اليه وتسأله :

قلت : طمئنه وقل له اننا مازلنا نبحث عنه ، وسنبذل كل جهدنا للعثور عليه ·

كنت واثقا انك لن تراه ومع ذلك قلت لا داعى لأن تعيش بغير أمل ·

وأدرك مدير الأمن ان في الأمر شيئا ولكنى لم أخبره بأى تفاصيل ·· أسرارنا لا يعرفها أقرب الزملاء الينا ·· شعارى ، سرك هو دمك لو فرطت فى سرك فأنت تبيح دمك · وبين وقت وآخر كانت الأنباء تصلنى انك تبحث عنه ، حتى فى السودان ، كان قلبى يتمزق ·

ولكن كيف أخون واجبى ·· وأعرض السلطة التى تأتمننى على حمايتها للأذى من شىء لا طائل من ورائه · السلطة تهمها امور معينة لابد ان تحافظ عليها والا سحقتك ·· أولها كتمان السر ·

وتوقف الحوت فجأة ·· كان يوسف يجهش بالبكاء ·

كــــــان

لانخراط يوسف فى البكـاء رد فعـل غير متوقع عند اللواء سعد الحوت ، اذ بدا كأنه يترنح ثم جلس متهالكا على التراب وجعل يضرب الأرض بقبضة يده يريد أن يسحق شيئا ما وقال لاهثا وقد فاض به الانفعال ·

ـ أتبكى يا أستاذ يوسف · ·ليتنى أستطيع أن أبكى مثلك ·· أبكى خيبتى التى حرمتك من ابنك وتسـببت فى هلاك من هلك ··

وجمع الحوت قبضة من تراب فى يده ، وتركها تنساب بين يديه وهو يتأملها بعينيه الزجاجيتين وصرخ فجأة :

ـ هذا تراب ·· تراب ·· يا الهى كيف لم أتبين هــذا من قبـــل ··

والتفت الى يوسف متوسلا :

ــ أهــذا تراب ·· أم أنا واهم ·· يا الهى ·· أين نحن ؟ هذا المكان لا طير فيه ولا حشرات ·· لم أر عصفورة أو حدأة أو أى شىء يطير فى السماء ·· يقولون انهم عقموا الجو ·· وتخلصــوا من كل الطيور والحيوانات والحشرات للمحافظة على أجسامنا من الميكروبات ·· ولكن هذا التراب يفزعنى ·

كان صدر يوسف يجيش بانفعالات أكبر من أن يفصح عنها ويخرجها فى كلمات ·· كيف يعبر عن احساسه بفجيعته ، بشعوره بالظلم ، بافتقاده للفهم ، ولكن صرخات الحوت حطمت الحواجز التى تعوق يوسف عن الكلام ··

خرجت الكلمات متهدجة شاكية موجهة الى الفضاء ·· الى التراب الممتد حتى الأفق ، فما يريد أن يعبر عنه أكبر من أن يوجهه الى الحوت وحده ··

ـ لو كنت سمحت لى أن أراه ·· نظرة ·· مقابلة مع أمه ·· أب وأم يريدان رؤية ولدهما ·· هل هذا كثير ··



وركل يوسف التراب بقدمه ، فأثار زوبعة صغيرة ، لم يأبه لها الحوت الذى كان مازال يتلفت حوله فزعا ·

وارتفع صوت يوسف :

ـ منذ أن جئت معك الى هذا المكان وعذاب الماضى يطاردنى ، وحيرة الحاضر وشكوكه تنهشنى وأنا لا أستطيع أن أواصل هذه المحنة ·· لابد أن تخلص من هذا هذا كله فى أسرع وقت ·

تمتم الحوت ذاهلا والتراب يسيل من قبضة يده :

ـ كيف ·· كيف ؟

قال يوسف وقد تخلص من بكائه :

ـ بأن تنفذ وعدك ·· تعود معى الى القاهرة ·· تعترف أمام المحققين ·· أمام الناس كلها ·· أنك المسئول عما حدث لابنى ·· لا أطلب منك أكثر من أن تكرر أمام الجميع ما سمعته منك الآن ··

قال الحوت مستسلما :

ـ أنا تحت أمرك ·· افعل بى ما تشاء ··

صاح يوسف :

ـ اذن هيا بنا ··

ومد يده للحوت يساعده على النهوض ·· ولكن الرجل نظر اليه فى ضراعة وقال :

ـ ترفق بى ·· دعنى أستريح بعض الوقت ·· أرجوك اجلس حتى نهدأ ··

تفحصه يوسف بنظرات مترددة الحوت :

ـ أتخشى أن يلوث التراب ملابسك ؟ انه تراب جاف معقم ·· تأكد أنهم قادرون على تعقيم كل شىء ·· أرجوك لا تقف أمامى هكذا ·· كلما رفعت رأسى اليك أصابنى دوار ··

جلس يوسف بجواره قائلا لنفسه : انه لن يفلت منى ، ورفع صوته مخاطبا الحوت ·

- لن تطول جلستنا هنا ••

قال الحوت شاردا :

- لا •• لن تطول •• من يريد أن يبقى فى هذا التراب •

ثم وجه نظراته الزجاجية الى يوسف وقال كالمخاطب نفسه ••

- كنت أظن أنى سأستريح بعد أن أروى لك ما رويته •• ولكن ••

وسكت الحوت وضرب بقبضته على التراب •

سأله يوسف :

- لكن •• ماذا ؟ •

أجاب الحوت بصوت يختنق بضيق أو غيظ ••

- يبدو الا فائدة •• أدركت هذا فى اللحظة التى رأيتك تجهش بالبكاء ••

لم يسترح يوسف لكلمات الحوت ، أو لعله لم يسترح لأنه بكى أمامه •• كانت لحظة ضعف لا تتفق مع ما هو مصمم عليه الآن ، أن يعود ، وأن يواجه ، وأن يدخل معركة مع السلطة لانقاذ ابنه ، لقد خدعوه ، اختطفوا حسن وحولوه الى ارهابى قاتل ، حرموه من رؤيته ليتحول الولد الى سلاح فى أيديهم •• غسلوا مخه ، دربوه على القتل ، الغوا ارادته •• ماذا يظن الحوت نفسه •• أيظن أنه مدير الكون ؟ • يحكم بانه لا فائدة من اعادة الولد الى أبيه •• بل انه جعل يوسف يتوهم فى لحظة ما أن معركته مع ابنه ولا أحد غيره رواية الملك لير فى

حجرته شاهد على ذلك ، وصل به الأمر أنه فكر أن يقتبس منها تمثيلية ينفث فيها كل ما فى صدره من تحد لولده الذى تنكر له •• لكن حسن الذى رفض أباه من وراء قضبان قفص الاتهام •• كان يتكلم بلسان آخرين ، لسان من غسلوا مخه من لاصقين ومستأنسين ومدلسين •• كان غاضبا من ابنه ، يريد أن يرد اعتباره ، ويقول له اذا كنت لا تريدنى أيها الولد العاق فأنا اقوى منك ولست فى حاجة الى احترامك •• أو حتى وجودك ، آه لو كان يعلم أن الولد لا يعنى ما يقوله ، وأنه يردد كالببغاء كلام من تولوا غسيل مخه •• لو كان يعلم لاقتحم جلسة المحاكمة وصرخ فى القضاة •• يا حضرات المستشارين •• هذا الولد مسلوب الارادة • انه غير مسئول عن تصرفاته ، اذا كان القانون يعفى المجنون من العقاب لأنه لا يدرى ماذا يفعل •• انظروا يا حضرات المستشارين ما مر به هذا الولد من محن ألغت وجوده تماما •• أنتم تعاقبون جسدا بريئا، لأنه حقن بآراء وتصرفات ليست من عنده •• ثم يشير الى الحوت صارخا •• كل ما فعله ابنى •• هو من فعل هذا الرجل الذى قبض عليه ممثلا لسلطة وأجهزة لا تعترف بانسانية البشر •

خرج من تأملاته على صوت الحوت يقول ببطء :

- ان هذا التراب كله لا يستطيع أن يدفن ما حدث •• ولك الحق كل الحق فى أن تعود وأن تخوض معركتك ، فلعل هذا هو ما يجعلك ترضى عن نفسك وتجد الراحة التى لا اجدها •

وزفر الحوت هواء مختنقا فى صدره وأردف ·

ـ الكل سوف يستريح ما عداى ·· الكل وصل الى تحديد موقفه ·· أنت تعود وتثير قضيك ·

قال يوسف بلهجة حاسمة مقاطعا كلامه :

ـ وأنت معى ·

فأجاب الحوت :

ـ نعم ·· نعم ·· ولكن أرجوك دعنى أتبين ما يدور فى رأسى ·· أنت الآن تعرف طريقك ·· وهم أيضا يعرفون طريقهم ·

سأل يوسف فى دهشة :

ـ هم ·· من تقصد ؟

قال الحوت معاتبا :

ـ أنسيت ؟ · ألم أقل لك انهم دبروا هذا اللقاء للحصول على معلومات تفصيلية شاملة عن عينات من البشر مثلى ومثلك ·· لابد أنهم سجلوا كل ما قلته لك ·· وكل ما اقوله الآن ·· وسجلوا كل ماقلته أنت ·· ان لديهم من أجهزة التصنت ما يستطيعون به تسجيل أية همسة على مجال واسع ·· وكان علينا أن نقبل هذا ونتكلم ·· لأنه لابد أن نتكلم ·· ولو أردنا أن ننجو من تصنتهم كنا نبتعد فى هذه الصحراء حتى نتوه ·· ولكنى لا اريد أن اتوه ·· فانا شخصيا يائس تماما من أى شىء ·· كل ما كنت اتمناه أن أريح ضميرى

بالاعتراف لك ، ثم اتفرغ لقاعة الدومينو ·· أتخلص من كل ذكرياتى ، من كل هواجسى ، لأن الانتصار فى اللعب كما تبين لى وقد يتبين لك اذا فكرت فى البقاء ·

قاطعه يوسف محتدا :

ـ هذا لن أفكر فيه أبدا ·

فردد الحوت مذعنا :

ـ نعم ·· هذا واضح ·· ولا اعتراض لى عليه ·· سوف استسلم لك ·· تفعل بى ما تشاء ، وسوف أستسلم لهم ·· والأمر متروك لك ولهم ·

قال يوسف محتفظا بحدته :

ـ هؤلاء الذين تتحدث عنهم ·· لا شأن لهم بما نحن فيه ·

فقاطعه الحوت :

ـ لا تتعجل واستمع الى نصيحتى ·· انهم يقومون الآن بتفريغ أشرطة التسجيل ·· ولعل كريم شاكر أرسل بعضها بالفعل الى مركز قيادته ·· أتظن أنهم يهتمون بأحوالك الشخصية ·· أو بهمومى ·· سوف يراجعون هذا اللقاء لضمه الى أبحاثهم فى تطوير صناعة عملاء المباحث ·· لاحكام الرقابة والسيطرة على جميع الأطراف سواء الذين يتولون العملية من جانب الشرطة أو الذين يتولونها من جانب العملاء بما فيهم آباؤهم وأمهاتهم ·· صدقنى ان هذا هو بعض ما يريدونه منا ، ولسوف يدخلوننا فى أبحاث ودراسات

مقارنة ، مع غيرنا فى كل أنحاء العالم ·· اننا مجرد فئران فى معامل مؤسسة السلطة ·

صـــاح يوسف :

ـ هذيان ·· هذا هذيان ··

قال الحوت وهو يهز رأســـــه وأنامله تجمع التراب فى قبضـــته :

ـ ليكن ·· فالأمر متروك لك ·· فلن أعارضك فى شىء ·

نهض يوسف قائلا :

ـ اذن هيا بنا ·

فنهض الحوت وأمسك بذراع يوسف يتكىء عليها وسارا فى اتجاه المبانى ، كان المشوار أمامهما طويلا ، وانطلق الحوت يثرثر بذكرياته مع زياد الاسمر ·· قال ليوسف انه لو نجـــح فى عودته الى القاهرة وأخذه معه ، فهو يعود الى حيث انهارت كل آماله ، يعود الى المكان الذى لفظه بعد أن خدعه زيـــاد الأسمر ، لم يخطر ببالى يا أستاذ يوسف أن خطة بدر الجمالى خطوات فى طريق العودة ·· ثم أجاب على سؤال الحوت · التى كنت أفخر بها ستتحول خلف ظهرى الى خطة لاغتيـــال الناس ، كنت أظن أن ابنك فى فرقة أمن ·· أنا المسئول عنها وأعرف كل كبيرة وصـــغيرة عنها ·· يتحركون بتعليمـــات وتوجيهات منى ·· ينفذون اوامر لمصلحة أمن البلد ·· أى أنهم فى أمان تام ·· كان ابنك من وجهة نظرى فى رعـــاية زيـــاد

الأسمر رجل الشرطة ·· لا أداة فى يد مجرم ارهابى ·· هذا هو الخطأ الذى ارتكبته ·· خطأ يبدو بسيطا أول الأمر ·

وتوقف الحوت فى سيره متشبثا بذراع يوسف قائلا :

ـ أتدرى ماذا أقصد ·

قال يوسف لنفسه ، الحوت يزداد اضطرابا كلما قطعنـــا

ـ لا أفهم بالضبط ماذا تعنيه ·

قال الحوت بحرقة :

ـ سأقول لك ·· ولا يعنينى أنهم يسجلون ما أقوله ·· انهم يعرفون أنى أخطأت ·· ولكنهم يسمعون منى الآن لأول مـــرة المصدر الحقيقى للخطأ ·

وضرب الحوت بقبضة يده على صدره هاتفا :

ـ نواياى لم تكن محددة يا أستاذ ·· المفروض أن أختار ضابطا يتسلل الى الجماعة ليكشـــفها من الداخل ·· ولكنى أرسلت زياد الأســــــمر وهدفى الأول هو أن أعاقبه على شراسته ·· خلطت بين هدفين ·· نفس الخطأ الذى أقع فيه وأنا ألعب الدومينو ·

جذبه يوسف حتى اضطره الى السير وهو يقول لنفســـه الرجل يوشك أن يفقد عقله ·

وسار الحوت وهو يواصل لوم نفسه ·· أردت أن أعاقب زياد الأسمر فكانت النتيجة أنه هو الذى عاقبنى ·· غشـــنى ·· أردت أن أنتقم منه ، فانتقم هو منى ·· طبعا ·· يتركنى

ويدوس على ، ويفضل الانتماء للاتبـــاع الذين أحاطوا به واستسلموا لقيادته ، ووجد تأثيره عليهم يتضخم فتضخم هو الآخر وأصابه الغرور .. توهم أنه شـــخص مقدس وحول كل شراسته وقسوته الشيطانية الى اســـتخدام « التقوى والتقية » للاستيلاء على السلطة لنفسه ·

هذا هو حال السلطة يا أستاذ اذا أغوت أحدا من البشر .. مرض لا نجاة منه ، السلطة أشد فتكا بالنفس من السرطان فى الجسد .. كنت أحذرها .. أردد لنفسى ليل نهار .. يا سعد رحم الله امرءا عرف قدر نفسه .. أنت لست أكثر من خادم السلطة .. ولكن الملعونة تسللت الى نفسى ، فجعلت أرسـل هذا فى مهمة لأنتقم منه ، وأعامل هذا على أنه مجـرد شىء استخدمه كما أستخدم ، لا مؤخذة ، عصـــا أو كرباجا فى يدى .. هذا هو ما شعر به زياد الأسمر .. لأنه ذكى ، لأنه خبير بالسلطة .. انها تجرى فى دمه فاعد خطته المضـادة .. أستخدمه كما أستخدم ، لا مؤخذة ، عصـــا أو كرباجا فى لأنه أصبح كل همه أن يتقى رئيسه سعد الحوت .. مبدأ التقية هو أن تظهر لعدوك غير ما تبطن حتى تتمكن منـه .. تتكتم أمورك .. تصبر وتجامل حتى تحين لك الفرصـة لتضرب ضربتـك ·

وتوقف الحوت مرة اخرى لاهثا وقال كانه لا يصـدق ما يقـوله ·

ـ هذا بالضبط ما كان يفعله زياد معى يا أستاذ يوسف ·

قال يوسف لنفسه : ها هو يقف من جديد .. لماذا يتلكأ .. ما الذى يسعى اليه بكل هذا الجهد الذى يبذله ·

قال يوسف بصوت قوى :

ـ أنت قادم معى الى القاهرة ·

قال الحوت بسرعة ، كأن الســؤال يقطع عليه تسلسـل افـكاره ·

ـ نعم .. نعم .. وأنا أحكى لك الخيبة التى أنا عـائد اليها .. ولسوف أنكرهم بها .. بعد أن كنت أطمئن نفسى بأنهم ألقوا بها مع زبالة النسيان ·

صاح يوسف مستريبا ·

ـ أهذه مقدمة للتراجع ·

قال الحوت بحرارة :

ـ أبدا .. أبدا .. ولكن رأسى يضج .. يكاد ينفجر بمـا يهاجمنى من خواطر ·

ثم أردف بما يشبه الصرخة ·

ـ هناك شىء ما .. سوف أصل اليه ·

وجذبه يوسف ، ليستأنفا السير ، ويواصل الحوت ثرثرته ، قالوا انى أخطأت لأنى لم أضع زياد الأسمر تحت المراقبة ، وهذا اجـراء يتبعونه فى المخابرات مع عملائهم وله تاريخ طويل منذ الكوارث التى حدثت فى الحرب العالمية الثانية ..

عندما كانت ألمانيا ترسل الجاسوس لأمريكا ·· فتشتريه المباحث الأمريكية وتجنده لها ·· منذ ذلك الوقت والمخابرات تراقب رجالها ·· ولكن المباحث لا تتبع هذا الأسلوب ، خاصة اذا كنت ما تتعامل معه ضابط مثلك لا يخطر ببالك أنه سيخونك ، ثم لم تكن عندى الأجهزة والوسائل الكافية لمراقبة رجالنا بجانب الآخرين الذين نراقبهم ·

كان زياد يمدنى بتقارير وافية ولا يخفى عنى أى شىء ·· بل انه كان يخطرنى بأنه مضطر الى اجراء تصفيات لبعض اتباعه الذين خرجوا عن طاعته ، ربما فى أمر تافه ، وكنت أنصحه بأن يكتفى بتهديدهم وأحذره من ارتكاب أى شىء يعتبر مخالفا للقانون ·· ومع ذلك حدث أن هجمت فرقة من أولاده على واحد اعتبروه منشقا وضربوه بالخناجر ضربات خفيفة لأنهم يعرفون من التدريب الذى حصلوا عليه كيف يوجهون ضرباتهم لأحداث جرح سطحى للارهاب أو الطعن فى مقتل ·· وحدث أن كان مع المصاب صديق أصيب بالذعر وقفز من النافذة فدقت عنقه ·

اكتفيت بشهادة زياد وما كنت أكذبه واعتبرنا الحادث انتحارا ·· وكنت أبث زياد مخاوفى ، قلت له أكثر من مرة انى أخشى أن يتهور الأولاد ويفلت زمامهم ·· فيقول لى : اطمئن أنا مسيطر عليهم تماما ·· كيف لم يخطر ببالى فى ذلك الوقت أن الذى يجب أن أخشاه واتوقع أن يفلت زمامه هو

زياد الشرس كما أعرفه ·· حتى كان ذلك اليوم الذى وقف فيه الدكتور أبو الفضل عميد كلية الحقوق متحديا للطلبة المتظاهرين ·· واتهمهم بالتطرف والتعصب وسمع طالبا من اتباع زياد يقول له أسكت يا كافر لقد أحل الله دم أمثالك ·· فلما رد عليه الدكتور قائلا : هذا هو كلام أتباع ابليس ·· هجم عليه الولد واشتبك معه ·· وفصله الدكتور أبو الفضل من الجامعة ·

هنا توقف يوسف وقال هامسا كأنه يحلم :

ـ هذا ما قاله الادعاء فى المحكمة ·· ولكنى سمعت عشرات الحكايات ·

قاطعه الصوت :

ـ أنا أقول لك الحقيقة ·

سأل يوسف نفسه والريبة تتفاعل فى أعماقه ·· هل بدأ الصوت يغير حكايته ويعدل عن اعترافه ·· انه يتجه الآن الى ادانة الأولاد ·· ويردد كلام الادعاء ·· أيكون هذا لأننا نقترب اكثر وأكثر من المبانى وطريق العودة ·

ولكن الصوت فاجاه قائلا :

ـ لا تظن أنى أعدل عن كلامى ·· انا الآن لا اتحدث عن ابنك ·· أنا اتحدث عن نفسى ·· عن غفلتى عندما قال لى زياد انه سوف يجرى تحقيقا مع الطالب الذى أهان أستاذه العميد وسيعاقبه ·· وأكد لى أن عقابه سيكون قاسيا لأنه حذر

أتباعه من مخالفة مبدأ التقية ، وأنهم مطالبون بالاحتفاظ بعلاقة حسنة مع أساتذة الجامعة وادارتها والابتعاد عن أى شطط ولكن أعضاء الجماعة أثارهم فصل واحد منهم ·· وأخطر من هذا ذلك الاتهام العلنى لقيادتهم بأنها ابليس وانهم أتباع ابليس ، اهانة لا تغتفر لقيادتهم التى يقدسونها ، وينتمون لها على أساس انها القوة الرهيبة السرية التى لا تمس ولا يصح المساس بها ·· النفسية التى اكتسبوها تعتبر أن العالم كله كافر ماعداهم ·· حتى أتباعهم لا يترددون على الجامعة لتلقى العلم ·· فالعلم فاسد والأساتذة فاسدون انهم يذهبون الى الجامعة كمكان تجمع للشباب ، لانتقاده بنشر الدعوة وفرض سيطرتهم وممارسة الحكم فى مجتمع الجامعة الصغير استعدادا لممارسته فى المجتمع الكبير ·

قال لى زياد : ان الحالة مطمئنة بينما كان هناك تقرير من المخابرات وصل الرياسة يحذر من احتمال تحرك انتقامى بين جماعة التقوى والتقية بسبب فصل طالب منهم من الجامعة ، تقارير المخابرات لا تصلقى ·· التنافس بين أجهزة المعلومات والرغبة فى الانفراد باهتمام السلطة ، تجعل كل جهاز يتعامل على حدة ·· ولكن الوزير نادانى وقال لى : ما هى أخبار التقوى والتقية ·

قلت له : اطمئن يا افندم ·

قال : أليس هناك تحرك ؟ ·

قلت وأنا واثق مما أقول ، يا أفندم هذه الجماعة بالذات أوامرها وتحركاتها بإذن منى ، كنت واثقا من نفسى ، واثقا من زياد الأسمر مطمئنا الى أن شيئا لى يحدث ·· بالعكس كنت أتوقع عقابا صارما للطالب المفصول ·· ولكنهم اتصلوا بى وأنا فى البيت أشاهد فيلم نادى السينما ، وقالوا ان الدكتور أبو الفضل لقى مصرعه وهو خارج من بيت زميل له فى الجامعة بمدينة المهندسين وكان معه الدكتور بسيونى أستاذ القانون الدستورى ، وأن المعتدين ضربوه بالخناجر ، طعنات نفذت فى الصدر والعنق ·· عرفت على الفور الجناة ، السلاح هو الخناجر ·· الطعنات من أيد مدربة ·· والدكتور أبو الفضل كان مرشحا للانتقام ·· والوزير حذرنى ، وأنا المسئول الأول عما حدث ·

انهار كل شىء فوق رأسى ، أكدت شهادة الدكتور بسيونى انهم أولاد من التقوى والتقية ·· كانوا مغرورين الى حد



الهوس ·· هجموا عليه عليه يريدون الفتك به ، فصاح ابنك حسن فيهم ، اتركوه ، لا تدنسوا خناجركم بدمه النجس، لم تصدر لنا الأوامر بذلك ·· فامتنعوا عن التخلص من الشاهد الذى سوف يشهد

عليهم ·· منتهى القسوة ·· منتهى الغرور ·· منتهى الغباء ·

شهادة الدكتور بسيونى أنقذت ابنك من حبل المشنقة ، لأنه اعترف أنه لولاه لما نجا من نفس المصير الذى لقيه الدكتور أبو الفضل ·· بعد أن عرفت بهذه الشهادة فى الساعة الأولى من التحقيق ، انفجرت الحقيقة فى رأسى ، كنت أعمى فأبصرت ، انها الخديعة ، زياد الأسمر خدعنى ·

صرخت مجنونا ، اقبضوا على زياد الأسمر · كان من السهل أن يقبض على الجميع واحدا واحدا ؟ لكن زياد رجل الشرطة استخدم كل مهاراته ليفلت منا ·· فى الوقت الذى كان العالم كله يتحدث عن مطاردة الشرطة لزياد ، كنت أنا وقلة من زملائى نعلم أنه هو الذى يطاردنى ويريد الوصول الى قبل أن أصل اليه ·· كان يقامر بأنه لو تخلص منى فسوف تهبط المطاردة ، وسوف يصبح أسطورة بين أتباعه ، وقد يفلح فى الهرب الى حيث تتحول هذه الأسطورة الى قوة باطشة ، كما فعل شيخ الحشاشين حسن الصباح بعد أن هرب من مصر ·· شعرت بالمهانة الى جانب احساس بالخيبة وأنا أتذكر بدر الجمالى الذى تجرأت وجعلت منه شعارا لخطتى ·· حيث نجح هو منذ مئات السنين فشلت أنا ، وسمعت الهمسات من حولى ، الحوت لا يصلح لهذا العمل ، الحوت تعود على حياة الرفاهية فى القاهرة ·· الحوت خائف على نفسه من زياد الأسمر ·· افترسنى الكل ·· نهشوا لحمى حيا ·· كان من طبيعة عملى الا أظهر فى الصورة ·· انت لم تسمع اسمى فى المحاكمة

ولا فى الصحف ·· الأضواء والشهرة للضباط الذين يعملون علنا ، أما أنا فعملى من خلف كل هذا ومع ذلك صممت على أن أقبض على زياد بنفسى ·

قلت لهم : اذا كان زياد يريدنى ، فاجعلوا منى طعما لاصطياده ، وطلبت أن تصلنى أولا بأول أية معلومات مهما كانت تافهة بعد أن وضعنا تحت المراقبة كل من لهم صلة بالتقوى والتقية ·· الأهل ·· الأصدقاء ، المعارف ، أحيانا الجيران ·

وتوقف الحوت وتراجع خطوة الى الخلف كما لو كان قد رأى خطرا داهما مقبلا عليه وهتف :

ـ لكن المصائب لا تأتى فرادى ·· مرضت واحتبس البول ·· وكان لابد من عملية بروستاتا ·

خيل الى يوسف أنه سمع عن هذا المرض من قبل فى هذا المكان ·· ومضى الحوت يحدثه كيف نقلوه الى المستشفى والعملية التى أجروها له والنزيف بسبب التصاقات فى الشريان ·· عندما أفاق علم أنهم قبضوا على زياد الأسمر ·· بعد أن رأوه وهو يحوم حول المستشفى ثم تعقبوه وعرفوا مكانه ، نعم كنت طعما لزياد ، لكنهم تجاهلوا هذه الواقعة ولم يذكروها ·· تركونى لمرضى وباقات الورد ومجاملات عابرة ·· وادركت أن أيام سعد الحوت انتهت ·· اذا جاء من يزورنى يعتذر بمشاغل العمل ويتركنى ، لم يعد احد يريدنى · لا تليفونات

من الوزير ولا توجيهات من الرياسة ·· ولا جمعيات ولا خلايا ·· لم يبق شيء ·· لا شيء على الاطلاق ·· عندما خرجت من المستشفى صدمت على أن ألتقى بزياد ·· دخلت عليه زنزانته وقلت له : عملتها يا زياد ··

لم يكترث بأنى رئيســـه ·· كان شـــخصا آخر يوجه الى نظرات كلها حقد واستعلاء · وقال بوقاحة : لو أن أحدا مس شعرة من رأسه فسوف نندم ونتمنى أننا لم نولد يوما ما ··· لم أحضر تنفيذ الحكم ·· كنت فى أجازة تمهيدا لاحالتى على الاستيداع ·

وتنهد الحوت وعاد يتشبث بذراع يوسف ، وقد وصلا الى بداية المبـانى ، وأقبلا على ملاعب الكروكيه ، وقال الحـوت فجأة باسما :

ـ الشيء الوحيد الذى اسـتفدت منه من طوفان المعلومات التى جمعتها من المراقبـة قبـل القبض على زياد هو معـرفتى بصاحبك مراد حسنين ··

وثب قلب يوسف مرتطما بضلوعه ·· وتوقف عن السـير وسأل فى دهشة :

ـ ما دخل مراد حسنين ·· بهذا ؟

قال الحوت :

ـ كان يتحدث مع زوجته فى التليفون من بيروت بعد القاء

القبض على ابنك ·· وأرسل أحد المحامين ·· كلفه بأن يتولى القضية ·

همس يوسف مذعورا :

ـ لا علم لى بهذا ·

كيف لم تخبره زينب ·· كيف لم يحدثه مراد حسـنين فى هذا ، لقـــد هجرته زينب طوال تلك الأيام الى حجرة بفندق برستيج وأقامت فيها ·

ظن أنها تواجه أزمتها بالانشغال بعملها ·· ولكنها لجأت الى مراد حسنين ، ارتجف يوسف وهو يواجه هذه المعلومات ، وخيل اليه أنه يسمع خليل فى قاعة الدومينو يعنيه بيا أهبل من عليها ترلم ترلم ·· يا أحمق من عليها ترلم ترلم ··

وكان الحوت يقول له :

ـ ثارت تســاؤلات حول اهتمــام هذا المليونير بمتهم فى الجريمــة ·· هل له دور فى تمويل الجماعة من الخـــارج ·· ما السر وراء اهتمامه بالقضية ؟

قاطعه يوسف يسأله واجما :

ـ وماذا وجدتم ؟

اتسعت ابتسامة الحوت تشق وجهه ، فزادت مخـــاوف يوسف ، وكان الحوت ·· يقول :

ـ تبينا انه مجرد صديق للعائلة ·

سأل يوسف متوجسا :

- ماذا تعنى ؟
قال الحوت :
- علاقته الحميمة بكما ·· هى التى جعلته يسرع الى نجدة زوجتك ·
قال يوسف لنفسه : ولكنه لم يسرع لنجدتى ·· لم يقل لى أنه اتصل بزينب على الاطلاق ·

وشعر بالحوت يربت على كتفه ، والتقت عيونهما · عينا الحوت لا تفصحان عن شئ ·
وقبض على يد الحوت متشبثا بها وهتف :
- لم يعد هناك معنى للبقاء لحظة واحدة فى هذا المكان ·· هيا بنا ·

وهرول وهو يجذب الحـوت من يده الى الرجل البدين الأصلع الواقف خلف مكتب الاستقبال وألقى أوامره :
- أنا واللواء سعد الحوت ·· سوف نعود الآن فورا ·
وقال البدين الأصلع فى أدب جم :
- حسنا يا سيدى ·

اللـواء الحوت وهو يتلفت حـوله فى البهو :
- الآن وقد قررنا العودة الى القاهرة يا سـيد يوسف ··
سأصعد الى حجرتى وأجمع حاجياتى وأغير ملابسى المتربة ·
ومد يده ينفض التـراب عن سـترة يوسـف وهو يقـول
مشـجعا :
كان الحوت يتكلم بلهجة عملية ، لهجة من يريد أن ينجز
وأنصحك أن تفعل نفس الشئ ··
مهمة عاجلة لا تحتمل التـأخير ، ولكن يوسـف اسـتمع اليه
مستريبا ، لم يطمئن الى الحوت وهو يتلفت حوله ، كمن يبحث
عن شخص ينقذه من ورطة وقع فيها ·· وقال يوسف بحدة :
- أنا لا أريد أن أتحرك من هنا ·· الا فى اتجاه السيارة التى تنتظرنا عند البوابة ·
فاحتج الحوت ·· وانطلق يتحدث عن اسـتحالة سـفره بملابسه المتسـخة بالتراب ، أنا لا أرضى لنفسى ولا لك هذه البهدلة يا أستاذ يوسف ·· لا تنسى أننا نعود الى حيث كانت لنا أوضاعنا الاجتماعية ·· لسنا ذاهبين الى مكان سياحى آخر ·· لا يعرفنا فيه أحد ، اننا ذاهبان يا أستاذ الى القاهرة ·· هل تقبل أن ندخل القاهرة كشحاذين متسولين ·

واكد الحوت ليوسف ، أن جميع ضباط المطار فى القاهرة من أولاده وتلاميذه ·· الذين ينظرون اليه كمثل أعلى ، له هيبته واحترامه ، ولسوف ترصد العيون كل حركة او ايماءة تبدر منه ، ولسوف تحدث ضجة بمجرد رؤيته هابطا من الطائرة ، ستدق أجراس تليفونات ، وستنتشر الكلمة فى كل مكان ان الحوت قد عاد ، وستثور التساؤلات ، اين كان ·· ولماذا يعود ·· وما الحكمة من عودته فى هذا الوقت بالذات ·· ووجه الحوت الأسئلة ليوسف ، اذا ما كان يتوقع أن يحدث نفس الشىء بالنسبة له ·· فانقبض صدر يوسف ، وقد انقضت على مخيلته صور ومشاهد لحياته فى القاهرة ، كأنها كابوس غامض لا يريد أن يتبين تفاصيله ، واخيرا وجد نفسه يقول بانفعال :



ـ أريد أن اطمئن الى انك لن تتركنى ··

قال الحوت فى حسم :

ـ عيب يا أستاذ يوسف ·· نحن لسنا صغارا ·· لقد اعطيتك كلمتى وفى هذا الكفاية ·· لو كنت لا أريد العودة لقلت لك ·· لست خائفا منك ·

قال يوسف محاولا أن يعبر عن مخاوفه :

ـ اخشى أن يؤثروا عليك فتغير رأيك ·

وشعر يوسف انه لم يعبر عن كل مخاوفه ·· فهو خائف الا يذهب معه الحوت ويتخلى عنه ، وهو خائف من العودة ، وهذا هو ما لا يريد مواجهته ·· بل انه يقاوم هذا الخوف الدفين ، ويعتقد أن صحبة الحوت له سوف تساعده على التغلب على كل مخاوفه من العودة ·

وهتف الحوت :

ـ لا أحد يستطيع أن يجعلنى اتراجع فى وعد قطعته على نفسى ·

وتلفت الحوت حوله ·

فهمس يوسف محاولا اخفاء قلقه :

ـ هل تنتظر قدوم أحد ؟

قال الحوت فى هدوء :

ـ نعم ·· أريد أن التقى بأى واحد من النزلاء ·· لأخبره انى مسافر ·

فقاطعه يوسف :

ـ لماذا تخبره ؟

فنظر اليه الحوت باسما ·· وقد أدرك قلقه ، وربت على كتف يوسف قائلا :

ـ لا داعى لمثل هذه الوساوس يا أستاذ ·

ثم رفع الحوت رأسه فى كبرياء وقال :

ـ اذهب وافعل مثلى ·· استحم وغير ملابسك ·· ولا تخف ولا تستريب فى أمرى ·· تنكر يا أستاذ أنى الشخص الذى تعتمد عليه فى خوض معركتك لانقاذ ابنك ·· لابد أن تثق فى ·· لابد أن تطمئن تماما الى أنى لن أخذلك ·· كيف يمكنك أن تأمل فى شىء أو فى الحصـول على أى قدر من النجـاح فى مهمتك ، وأنت تقول لنفسك : هذا الحوت يتلاعب بى ·· انه رجل ماكر يخدعنى ويستدرجنى ·

وتوقف الحوت عن الكـلام ونظر اليه بعينيه الزجاجيتين وسأله :

ـ أليس هذا هو ما تخشاه ؟

تردد يوسف فى الاجابة ، ولكن عينيه فضحتا مخاوفه ، فقال الحوت بصوت قوى :

ـ لا يا سيد يوسف ·· لا يا أستاذ ·· تخلص تماما من كل هذه الوسـاوس ·· وأن كنت أفهم تماما انها مخاوف طبيعية ، فلو فكرت بالمنطق ·· لوجدت أنه مستحيل أن يذهب رجل مثلى الى أية جهة تحقيق ويعترف أمامها بهذه الأخطاء ·· انه تصرف ضد التقاليد وأصول المهنة ·· ولكن ثق أنى سأعترف ·· قل أنى جننت ·· قل أنى انفجرت وفقدت توازنى ·· قل انى وقد عشـت حياتى كلها خاضعا للأوامر ولحيـاة الانضباط الكامل ·· قد زهقت من هذا كله وأريد أن أقدم على

شىء جديد تماما لم أتصور انى سأقدم عليه يوما ماق حياتى·

وهز الحوت رأسه كما لو كان يطرد خاطرا مزعجا وأكمل كأنه يخاطب نفسه :

ـ كنت أريد أن أستريح وأنسى همومى فى قاعة الدومينو ·· أخضـع لقواعد اللعبة ·· أسـتسلم لقيادة كريم شـاكر ·· وأعلن أنها القيادة الرشـيدة التى بقيت لى ·· ولكنى رأيتك تبكى ·· وكنت قد فرغت من صلاتى فى تلك الصـحراء ·· وأزعجنى أنى اكتشفت أنها صحراء تراب ·· ولا أدرى كيف عميت عنه حتى أمسكت به فى قبضة يدى ·· لقد اسـتفزنى هذا التراب ·· كأنه يسخر منى ·· يسـخر منى ومنك ·· يسخر منا جميعا ·· وقلت لنفسى : ولماذا لا تفعلها يا سعد ؟ لماذا لا تعود معه وتواجه ما ارتكبت من أخطاء ؟ · هناك بعض أمل ·· قد يكون أملا ضعيفا ·· بل قد يكون مجرد وهم ومـع ذلك تشبثت به ·· لأنى انسان له قلب ·· ولى بنتان أريد أن أراهما ·· ولسـوف أعود الى القـاهرة ، وأقف بجـوارك ، وأمضى معك الى نهاية الشوط ·· وأنا أتوقع مخاطر لا حصر لهـا ·· سـوف يسـتنكرون اعترافاتى ، وسـوف يتهموننى بالجنون ، وسيقولون الحوت عجوز مخرف يهذى بقصـص لا نصيب لها من الصحة ، ولكن ··

وقهقه الحوت فجأة فاهتز جسده كله وقال :

ـ ولكنه سـيكون عملا جديدا رائعا ·· وأنت تعترف أمام

النـــاس ·· لا وانت تتحدث عما فعلته وانت فى التراب ·· ولا يهم ماذا يقولون ، لا تهمنى ردود افعـالهم ، لا يهم أى شىء ·

كان جسد الحوت يرقص وهو يردد :

ـ نعم ·· فليفعلها سعد الحوت ·· ولو مرة واحدة ·

قال يوسف باسما :

ـ كلامك يزيح كابوسا عانيت منـه سنوات وسنوات ··

قال الحوت فى حماس :

ـ اذن هيا بنا ·· أقابلك بعد ساعة فى قاعة الدومينو ·

فسأل يوسف فى دهشة :

ـ ماذا تعنى ؟

قال الحـوت :

ـ نودع الأصدقاء · هذا أقل ما يجب علينا نحوهم ·

قال يوسف وقد اختفت ابتسامته :

ـ ونواجه كريم شاكر ؟

فأسرع الحوت يقول ضاحكا :

ـ وماذا يستطيع أن يفعل كريم شاكر أمام اصرارنا ·· سوف نتمرد عليه ·· كفى سعد الحوت ما قضـــاه فى حيـاة الخضوع والطاعة ·

وضرب بيده على كتف يوسف هاتفا :

ـ ليس زياد الأسمر وحده الذى يســتطيع أن يتمرد ··

سوف ترى منى العجب يا استاذ ·· هيا اذهب الى حجرتك ·· وستجدنى بانتظارك بعد ساعة ·· وربما قبل ذلك ·· المهم ان نزيل هذا التراب ونرتدى ملابسنا النظيفة ·· لنبدأ مهمتنـــا الجـــديدة ·

واستدار الحوت متجها الى ممر يفضى الى الجناح الذى به حجرته ·· وما كاد يبتعد خطوات حتى توقف ، والتفت الى يوسف وناداه بلهفة :

ـ آه تذكرت أمرا هاما يا سيد يوسف ·

واقترب منه الحوت مسرعا وقال باهتمام :

ـ أثناء عودتنا من الصحراء الى هنا ·· كنت أحاول أن أتذكر شـــيئا شعرت أنه هام جدا ·· وأنه من الضرورى أن أقوله لك ·· لقد تذكرته الآن ·

وتهلل وجه الحوت وهو يكمل :

ـ كنت أريد أن أقول لك : أن الجريمة تعم ·

لم يفهم يوسف ما الذى يعنيه الحوت ·· وأدرك الحوت ذلك وهو يرقب تأثير كلماته على يوسف ، فسأله :

ـ ألم تسمع بهذا من قبل ·· ألم يقل لك أحد من قبل ··

وردد الحوت من جديد وهو يضـــغط على الحروف التى ينطق بها ·

ـ الجريمة تعم ؟

قال يوسف بدهشة :

ـ لا ·· ولست أفهم ما الذى تعنيه ·
قال الحوت باسما :
ـ كان يجب أن أعرف أن هذا كلام جديد عليك ·· لأنك لم تدخل كلية الشرطة ·

وانطلق الحوت يشرح كيف أن الجريمة تعم هو المبدأ الذى تعامل به كلية الشرطة طلبتها ·· مثلا عند خروجنا فى الأجازة يوم الخميس ·· كان يتم التفتيش على ملابسنا وعلى الشعر والأظافر ونظافة الحذاء ·· حسن الهندام والمظهر من الأشياء المقدسة بالنسبة للطالب ·· وللضابط ·· انه يمثل السلطة والوقار ولابد أن يفرض رجل الأمن الاحترام بهيئته ·· وكنا مقسمين فى الكلية الى جماعات كل جماعة اسمها الصنف ، هذا هو التعبير الذى نستخدمه فى الكلية ، ولو حدث وأهمل أى واحد من الصنف فى مظهره أو هندامه أو ارتكب مخالفة من أى نوع فلا يوقع عليه وحده العقاب ، كان العقاب يعم على الصنف كله ·· اذا طال شعر واحد منا ولم يقصه فهى جريمة ارتكبها الجميع بما فيهم الذين قصوا شعر رءوسهم · ونحرم جميعا من الأجازة ·· الجريمة التى يرتكبها الواحد ، يتهم الجميع بارتكابها ، والعقاب للجميع لأنهم مسئولون عن أى خطأ يصدر عن أى واحد من الصنف ·

كان يوسف يحاول أن يبحث عن صلة بين كلام الحوت ، وما قد اعتزماه بقرار العودة الى القاهرة ، عندما سمع الحوت يقول له :

ـ هذا هو يا سيدى ما يجب أن نضعه فى اعتبارنا ·· لتدرك خطورة الموقف الذى نحن مقبلون عليه ·· فعندما أعترف بأنى أرتكبت خطأ ·· فالعقاب لابد أن يشمل الجميع ·· فهل يحتملون ذلك ؟

ثم أضاف الحوت :
ـ ولكن هناك شيئا آخر لا يقل عن هذا أهمية ·· ولابد أن نفكر فيه من الآن قبل عودتنا ومواجهتهم ·· اذ يخيل الى أن مبدأ الجريمة تعم ·· لا يطبق على صنف الشرطة وحدهم ·· انه يطبق على صنف البشر كلهم ·· أليس هذا هو ما نحن فيه الآن ·· هأنت تعاقب بحرمانك من ابنك ·· وأنا أعاقب بخروجى من الخدمة بعد كارثة زياد الأسمر ·· وعندك كل من معنا هنا ·· انى أعرف الكثير عن حياتهم ·· كلهم بلا استثناء هاربون من مآس وكوارث الى هذا المكان ·· هناك عقاب شامل يعم البشر جميعا ·

قال يوسف فى قلق : وقد شعر أن الحوت يتوه به فى دهاليز من الكلام الغامض :
ـ الوقت يضيع ·
فاعترض الحوت :
ـ لا ·· لابد أن نتفق على شىء ·
فقاطعه يوسف :
ـ سنناقش هذه الأفكار أثناء العودة ··

فصاح الحوت :

ـ وكيف يا أستاذ ·· أنت تعلم أننا سنعود منومين ·· هذه هى آخر فرصة لنا للكلام ·· وبعد ذلك سوف نغمض أعيننا ونفتحها ·· ونحن نهبط فى مطار القاهرة ·· وساعتها لن تجد لحظة واحدة أمامك للمناقشة أو التفكير ·· ستنشغل بالمحامين وبالتماس اعادة التحقيق والمحاكمة ·· ولسوف تطوف بدور الصحف ·· وترسل الشكاوى والعرائض لمجلس الشعب ·· وعلينا أن نبتكر الوسائل التى تجعل لنا صوتا مسموعا عند المسئولين ·· ونتخطى عقبات الساخرين والمعترضين والمتشككين فى نوايانا ·· والذين يتهموننا بأننا نوقظ فتنة والذين يريدون استغلال أصواتنا لأغراض لم تخطر لنا على بال ·· انها معركة ومعمعة لا أول لها ولا آخر ·· ولا ضمان لسلامة موقفنا مثل الاحتفاظ بالرؤية السليمة ·· وأنا أراها من خلال مبدأ أن الجريمة تعم ·· كلنا مذنبون ·· كلنا أجرمنا ·· وكلنا يحل به العقاب ·· فلتستعد لمواجهة أخطائك أنت أيضا ·· جهز دفاعك عن نفسك ·· لأنهم لن يتركونا ·

قاطعه يوسف محتجا :

ـ ولكننا لسنا طلبة فى كلية الشرطة ·· ولست مستعدا لأن أتحمل العقاب عن جرائم ارتكبها غيرى ·· وأنا لا أنتمى الى الشرطة ولا الى أية هيئة أو رابطة فى هذه الدنيا ·· ولا اعرف

فى القوانين أو الشرائع أن أحدا يعاقب بجريمة غيره · ولا اعرف سلطة تنزل العقاب شاملا جامعا على البشر ·

قال الحوت :

ـ لا يا سيد يوسف ·· الجريمة تعم والعقاب يعم ·· بغضب الله ·· انه السلطة الأكبر من أية سلطة ·· السلطة المنتقمة الجبارة القهارة ·

وفجأة سكت الحوت وأصفر وجهه وتمتم :

ـ يا الهى ·· أيكون الأمر كذلك ؟

فسأله يوسف وقلبه يخفق وقد أفزعه صوت الحوت واصفرار وجهه :

ـ ماذا ؟

فتمتم الحوت ذاهلا :

ـ لا شىء ·· لا شىء ·

ونظر الى يوسف كما لو كان يرى شبحا ·· وهمس وهو يتراجع :

ـ فليرحمنى ويرحمك ·

صاح يوسف :

ـ الدقائق تمر ·

قال الحوت هامسا وهو يبتعد :

ـ سامحنى ·· لن أخلف الميعاد ·

ومضى بخطوات سريعة الى حجرته ·

وقف يوسف في حوض الاستحمام يرش جسده بالماء يتدفق من فوهة الخرطوم المعدني على شكل سماعة التليفون ، وخواطره مشغولة بالحالة التي انتابت اللواء الحوت · وفسرها بانفعال الرجل بالعودة الى أهله وبلده بعد غياب طويل ، توهم خلاله أنه تخلص من مشاكله ، أو توهم أنه هرب الى الأبد من مشاكله وقد أصابه يأس تام من مواجهتها ، فلما ظهرت له بارقة أمل في العودة والمواجهة بتشجيع من يوسف ، اضطربت مشاعره وتناقضت ، فهو ضاحك متحمس للعودة ومواجهة أخطائه وتحمل مسئولية تصحيحها ، وهو حزين يعاني من عقدة الذنب ويبرر ما يشعر به بالعقاب الشامل الذي ينزل بالناس في صورة غضب الهي ·

وأعجبت يوسف صورة هذا الرجل الذي تعود على أن يكون خادما مطيعا للسلطة ، وهو يتبين فجأة ، وقد انتابه فرح جعله يقهقه من قلبه ، انه يستطيع أن يفكر ويتصرف بضمير انسان فرد يقرر أن يطيع الحقيقة حتى مع احتمال تناقض هذه الطاعة مع طاعة السلطة · كأنه اكتشف حياة أخرى ، اكتشف معنى جديدا للحياة جعله يتوثب راقصا بالفرح ·

قال يوسف لنفسه والماء ينساب على جسده : هذا الحوت لا بأس به ، ولسوف أحبه وأنسى كل ما صنعه بابني رغم فداحة وقسوة ما صنع · وانتقلت خواطر يوسف الى قاعة الدومينو وهو يودع مع الحوت رواد القاعة · سوف يعاملهما كريم

شاكر بترفع ولن يخفي ضيقه ونفوره من ذهابهما ، سيعاملهما كمارقين ، وسيبذل كل ما في وسعه من جهد ليمنع تأثيرهما على الآخرين · اما خليل فسيودعهما بنشيده ، يا أهبل من عليها ترلم ترلم وقد يكيل لهما السباب والشتائم ، وسوف يتنهد الدكتور ابراهيم المنجي ويقول بلهجته المتشائمة انه سيستريح أخيرا من رؤيتهما · اما المازني فلن يلتفت اليهما ، وربما ان يشعر بهما على الاطلاق ·

وسيقول له آدم ريشفسكي انه كان يريد أن يحكي له ما يعرفه عن جابي اسكنازي ، ترى ما الذي يعرفه ، أتكون لديه أخبار عنها ؟ · أيقول له ان تلك الفتاة التي أحببتها وأنت شاب في العشرين وفكرت يوما ما أن تتزوجها ، هي الآن امرأة في الخمسين ، ، مواطنة اسرائيلية ، لها زوج اسرائيلي ، وأولاد اسرائيليون وربما أحفاد اسرائيليون ؟لقد تحمل الرجل نوبة قلبية قاسية ، وهو يحاول أن يتذكر تاريخه القديم مع جابي · ترى ما الذي دفعه الى ارهاق نفسه بهذا التذكر ، ألديه مفاجأة أو خبر هام يريد أن ينقله اليه · على أية حال ليس هذا هو المهم الآن ، لا وقت للتذكر واسترجاع ما فات من ذكريات صباه التي لم تأخذ من اهتمامه اكثر من كتابة قصة قصيرة سخيفة · انه مشغول الآن بقضية صباه الجديد ، صباه الذي يراه في ابنه حسن ·

ثم هناك ميرزا الفلكي انه لن يكون في قاعة الدومينو ،

ولديه حديث انقطع ولم يكد يبدأ عن والدته كوثر هانم · كيف عرفها ، بل كيف يدعى أنه يعرفه هو من قبل أن يولد · أيتوقف عند ملعب الكروكيه ويسأله بسرعة ، ولسوف يلتقى بكوستا الذى يؤكد له أنه محاصر فى هذا المكان ولا يستطيع الخروج منه · ولعله يشجع كوستا على العودة معه ·

وهمس يوسف لنفسه ·· ربما أعود اليهم بعد أن أفرغ من قضيتى العاجلة فلا قيمة للتاريخ والذكريات اذا عطلتنا عن مواجهة الحاضر والأمر الواقع ·

وامتدت يده وأوقف تدفق الماء ، والتفت الى بشكير معلق بجوار المرآة ، وقبل أن يلمسه رأى ليلى فى المرآة · التفت مذعورا · كانت واقفة عند الباب تطل عليه وتبتسم · لم تترك له فرصة للارتباك أو حتى الخوف · كانت ابتسامتها واثقة هادئة · كأن ما أقدمت عليه شىء طبيعى ، كأنها زوجة مضى على زواجها أكثر من ربع قرن تدخل على زوجها الحمام ، لم تترك له فرصة لأن يتصرف أو يفكر أو يقول شيئا ، شدته بسرعة الى القضية التى جاءت من أجلها ·

ـ يا أستاذ ·· أتنوى السفر قبل أن تقرأ معى الكتاب ؟

صوتها جاد معاتب · ولهجتها الشامية فيها خشونة ورقة ·

وجد نفسه يضحك · بدت له غبية ، بلهاء ، جسد بض بليد بلا عقل ، لا تدرك خطورة ما أقدمت عليه ، من اقتحام حمام رجل غريب يستحم ، ولا تفهم خطورة ما هو مشغول به هذا

الغريب مما يضطره الى العودة الى القاهرة ·

قالت له معاتبة :

ـ ما الذى يضحكك ؟

اختطف البشكير والتف به وقد أدهشه أنه تخلص من فزعه لا يشعر بأى ارتباك أو خجل ولعله كان يضحك لهذا السبب ، وأنه أعجب بنفسه ، انه مشحون بقوة هائلة تدفعه للعودة لانقاذ ابنه · لانقاذ بقية حياته وامتدادها · لانقاذ مصيره · هذه القوة المعنوية المشحونة فى أعماقه تمنحه ثقة فى مواجهة عشرات بل مئات من النساء أمثال ليلى هذه وغيرها ، انه مشحون بقوى مواجهة الظلم ورفع لواء العدل ، لا مجرد قوى ممارسة علاقة جنسية بين رجل وامرأة ·

قال باسما فى ثقة وسهولة فى التعبير :

ـ أضحك لأنى كنت أتمنى أن أصل الى هذا الموقف ·· أنا وأنت ·· فلما وصلت اليه ·· وتحقق هذا الذى لم أتصور وقوعه الا فى الخيال ·· لم أجد أمامى سوى أن أضحك ·· عفوا ·· أضحك ساخرا من نفسى ·

قالت فى بلادة وقد سدت بجسدها باب الحمام :

ـ لماذا تسخر من نفسك ·· لست وحدك الذى يحلم ويشتهى ·· الجميع يشتركون معك فى هذا الخيال ·

قال وهو يخرج من حوض الاستحمام ويتقدم منها متدثرا بالبشكير :

ـ لا ·· لست مثلهم ·

قالت فى غباء واضح :

ـ هل تظن أنك أقل منهم ؟

لم يعجبه التحدى السافر فى كلامها ·· مد يده فازاحها عن البـــاب ·

غاصت أصابعه فى لحم كتفيها ، قبل أن تفسح له منفذا الى الحجرة ، عيناها الخضراوان سمينتان ، وشعرها المنسدل على كتفيها فى لون النحاس البراق ، أسلاك كهرباء ، أسلاك عارية ترسل وميضـا الى صـدرها البارز النافر من ثوبهـا الأصفر الفضفاض كقميص نوم صدره مطرز بازهار بنفسجية ، وشعر بها تسير خلفه يلاحقه عطرها ، وهو يهجم على ملابسه الملقاة على السرير ·

اوشك ان يقول لها هازئا تدعمه معنوياته المرتفعة :

ـ أنا أفضل من جميع من عرفت من الرجال ·

ولكنه تراجع · خاف أن تؤول كلامه بمفهومها · قد تظن أنه مثل كوستا اليونانى ، وأنه كان يتمنى أن يصــــور معها فيلما اباحيا يستمر عرضه ثلاث ساعات أو أكثر ·· فيلما يعد له سيناريو مقتبسا من رجوع الشيخ الى صــباه · انه الآن منغمس فى سيناريو انقاذ المستقبل وتحقيق العدالة ··

قالت فجأة وكأنها تقرأ أفكاره :

ـ انت طموح يا أستاذ أكثر من اللازم ·· مثل كوستا ·· ولكن على طريقتك الخاصة ·

قال لنفسه وهو يمسك بملابسه الداخلية ·· هذا عجيب ، انها تبدو غبية فوق العـــادة ، ولكن كلماتها هذه فيها جرأة واقتحام الذكاء ·

وقال ساخرا :

ـ كوســتا يريد أن يمثل معك ·· فيلما فى طول ذهب مع الريح ·· أما أنا فلا أريد شيئا غير العودة وفى الحـال الى بلدى تاركا لكم هذا المكان · عندى مهمة خطيرة تنتظرنى ·

ولم يكترث لوجودها ، أسقط البشكير ، وشرع يقلب ملابسه ليعدها فى الوضع الصحيح قبل ارتدائها ·

قالت وهى تنظر اليه فى بلادة :

ـ لن تخسر شيئا لو جربت ·

قال بسرعة :

ـ فات الوقت ·

قالت بصوت اختفت منه الرقة ·· صوت غليظ :

ـ من قال هذا ؟

قال وقد دخل فى ملابسه :

ـ انا الذى اقوله ·· لأن هناك ما هو اهم ·

قالت بالصوت الغليظ البليد :

ـ أهم من قراءة رجوع الشيخ الى صباه ٠٠ لابد أنك جننت ٠

قالتها ، وكأنها تقرر حقيقة لا وجه للشك فيها ، واقتربت منه ، فتراجع خطوة فهتفت ساخرة :

ـ مهلا ٠٠ مهلا ٠٠ لن أغتصبك يا أستاذ ٠

قال لنفسه : ما أغرب هذا الموقف ٠ أوصل به الأمر الى أن يسمع مثل هذه السخرية موجهة اليه ٠ لابد أن يحسم الأمر ٠٠ لكن كيف يحسمه ؟

وسمعها تقول :

ـ أنت لا تفهم شيئا على الاطلاق ٠

قال بسرعة :



ـ بل أفهم ٠٠ أنت تمارسين مهنة قد يرحب بها النزلاء الذين تطول أقامتهم هنا ٠٠ وهذا نوع من الترف السياحى ٠

وتوقف عن الكلام ، اذ انتبه الى وجود سلة فواكه بجوار الكتب ، بها تفاح وكمثرى وبرقوق وخوخ وبجوار السلة

صحنان وسكين أشبه بخنجر ، وسألها فى دهشة :

ـ أنت جئت بهذه الفاكهة ؟

قالت باسمة :

ـ نعم ٠

قال ساخرا :

ـ أدوات الشغل ٠٠ الفاكهة المحرمة ٠٠ فكرة لا بأس بها ٠٠ ولكن صدقينى ٠٠ انها فى غاية السذاجة والسخف ٠

قالت وهى تتجه الى سلة الفاكهة وتمسك بتفاحة تقضمها :

ـ لن أطلب منك أن تأكل فاكهة ٠٠ كما أننا لن نحتاج اليها ٠٠ كل ما فى الأمر أنى فكرت فى أن أحيطك بجو ودى يزيل عنك مخاوفك ٠

وأمسكت بالخنجر وشقت ما بقى من التفاحة التى قضمتها الى قسمين ثم تركت كل ما فى يدها فى صحن ، وقالت فى هدوء غريب وبصوتها البليد :

ـ أنت رجل ٠٠ أليس كذلك ؟!

نظر اليها طويلا ، أيهجم عليها ويفتك بها ٠ هل أحضرت هذا الخنجر لتهىء له فرصة لأن يقتلها به ٠ لماذا تتحداه ، مهما يكن من أمر فهو لن يستسلم لها ، ولكنه يعترف بأنها تستثيره ، قال مغالبا ما يشعر به من غيظ نحوها ، وان شعر فى نفس الوقت أنه مغيظ من نفسه أيضا :

ـ لابد انهم يحاسبونك بنظام النقط والأبناط ٠٠ وكلما زاد

عدد الزبائن زادت مكاسبك .. ولذلك تريدين جمع اكبر قدر من الزبائن حولك .

ورفع صوته هازئا :

ـ آسف .. لقد أصبح بقائى مستحيلا .. رغم هذه الفرصة التى ما كنت أتوقع أن القاها .. ولا فى الأساطير .. ولا داعى لأن تلجئى الى وسائل رخيصة .. كنت لا اتصور أنك تقدمين عليها .. مثل استثارتى وسؤالك اذا ما كنت رجلا .. ليس هذا هو التحدى الحقيقى لرجولتى .

فقاطعته وقد بدا عليها انزعاج شديد .. هاتفة :

ـ أستاذ .. أنا شىء تافه يا أستاذ .. لست فى مركز يسمح لى أن أغضبك أو أستثيرك .. انا مجرد عاملة فى هذا المكان .. تلقيت تدريبات خاصة على يد أحسن خبراء العالم لعلاج النزلاء بأحدث وسائل العلاج .. وليس المطلوب منى أكثر أو أقل من العمل على راحتك وتلبية رغباتك .. واذا كنت متحمسة لعملى .. فلأنى واثقة أن أهم شىء تستطيع أن تفعله .

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة تحولت بسرعة الى ضحكة همجية قائلة :

ـ لا تقلبها غم يا أستاذ .. بصراحة انت تضيع وقتك بارتداء ملابسك .. التى سوف تضطر الى خلعها بعد قليل .

حاول أن يقاوم دهشته من الطريقة التى تعبر بها عن

نفسها .. واعترافها بانها شىء تافه .. ثم الحاحها الغبى فى تأكيد أنها تقدم له أهم شىء فى حياته .. وقال باسما .. أو متظاهرا بالابتسام :

ـ الملابس التى أرتديها الآن أمامك .. لن اخلعها حتى أصل الى القاهرة .

قالت ضاحكة بصوتها الغليظ :

ـ أنت مدهش .. لم أر أحدا مثلك فى عنادك . طفل عنيد ولكنى ساصبر عليك .. وساقنعك .

قال هازئا وهو يكدس حاجياته فى حقائبه بسرعة :

ـ ليس لدى وقت لأقتنع بأى شىء .. بعد ثلث ساعة على الأكثر .. سأقابل الحوت ونختفى من هنا .

قالت وكأنها تخاطب نفسها :

ـ تقابله فى قاعة الدومينو .. حيث يلعبون بالأرقام قد تدخل القاعة فتبتلعك أو تخرج منها فيجذبونك الى الكروكيه حيث يهتمون بانسجام الحركات .. حركة اليد مع حركة الرأس .. مع حركة الرسغين مع حركة مشطى القدمين .. ولكن تدريباتى الخاصة .. تحقق لك انسجاما كاملا .. تحقق لك راحة لم تحصل عليها أبدا .

ومدت يدها الى كتاب رجوع الشيخ واختطفته من فوق المنضدة بجوار سلة الفاكهة . ولوحت به قائلة :

ـ من الذى جاء بهذا الكتاب الى هنا .. هل انتهى أمر

صاحب هذا الكتاب ·· اختفى من حياتك ·· ألن يعود ·· هل قطعت كل ما بينك وبينه من صلة ·· هل أنت يوسف منصـور آخر ·· أم أنت هارب من نفسك ؟

قال وهو يختطف الكتـاب من يدها ويجمع بقيـة الكتب ليخفيها فى الحقيبة المفتوحة فوق السرير :

ـ لا ·· لست هاربا من نفسى ·· بل اكتشـفت أن أمامى واجبات أهم ·

قالت :

ـ تريد أن تعود الى المشاكل التى هربت منها ؟

قال :

ـ نعم ·· الآن هناك أملا فى أن أنقذ ابنى ·

قالت :

ـ وسوف تتخلى عن فكرة الاقامة المريحة فى هذا المكان ؟

قال وهو يهز كتفيه مظهرا عدم الاكتراث :

ـ لم أجد هنا الراحة التى كنت أتمناها ·

قالت بسرعة :

ـ لأنك لم تبدأ بعد أية لعبة ·

همس :

ـ انشغلت بذكريات حاصرتنى ·

فقاطعته :

ـ وهل تخلصت منها ·· أم انت تهرب منها ·

قال :

ـ الذكريات ·· لا أهمية لها ·· المهم هو الحاضر ·· ابنى فى السجن ·

قالت :

ـ كنت أفضل أن تأخذ أولا قسـطا من الراحة ·· أعنى الراحة الحقيقية ·· قبل أن تقدم على مغـامرة قد تنتهى الى الفشل ·

ثم سارعت وقد رأت وجهه يتجهم :

ـ وطبعا ·· قد تنتهى الى النجاح ·· ولكن أمامك فرصة لممارسة لعبة معى لا تورطك فى مشاكل ·

واقتربت منه ومدت يدها ولمست بأصـبعها ذقنه ورفعتها وهى تبتسم قائلة :

ـ أرجوك ·· ابتسم ·· لا تتجهم هكذا ·· أنت فى حاجة ماسـة الى علاج سريع ·· نمارس معـا لعبة لا تورطك فى مشـاكل ·· لا انجاب ولا أولاد لا صبيان أو بنـات · لن اكون أما ·· ولن تكون أبا ·· ولن يزعجك نجاح أو فشـل ··

سأل فى فضول :

ـ ماذا تعنين ·· لا نجاح ولا فشل ·

قالت :

ـ انه ليس الجنس الذى عرفته ·· ذلك الجنس الذى تسبب فى وجودك ·

ووجد نفسه يتذكر أمه ·· بينما كانت تستطرد قائلة :
ـ وهو ليس الجنس الذى أنجب لك ابنك ·
وتذكر حسن · ووجم :
فصاحت وهى تعيد رفع ذقنه بأصبعها :
ـ أرجوك ·· اضحك يا أستاذ ·
قال فى أسى :
ـ فات وقت الضحك ·· الحوت ينتظرنى ·
قالت فى عناد :
ـ انه لن ينزعج اذا ما تاخرت قليلا ·
قال فى انزعاج :
ـ لا ·· لابد أن نمضى الى بلدنا ·
فابتسمت فجاة وقالت :
ـ أمرك ·· يا سيدى لم يبق الا ان أودعك ·
وانقضت عليه تعانقه وتقبله قبلات الوداع ·

وهى تحتويه بين ذراعيها بخدر يسرى فى أطرافه ، وينمو ببطء فى دماغه ، واعجبه مذاق ما شعر به كأنه مقبل على راحة شـــهية ، راحة يغوص فيها حتى تغطيه وتطمس وجوده تماما ، كانت شفتاها تداعبان رقبته ، ولذة نعاس مريح حنون تنتشر فى حنايا جسده المتهالك ، احضانها رحبه وصدرها ممتد كسحابة بيضاء تنتشر فى الســـماء ، وشعرها ينســـدل كوهج غروب يعلن بلا تردد أن الليل آت لا ريب فيه ، آه لو يستريح ·· هل آن الأوان بعد ســنوات العذاب والشقاء ان يستريح ·

قبل ان يغيب فى نعــاس كامل ، انتفض شىء فى اعماقه ، خاطر بعيد يتأرجح فى ذاكرته ، خاطر يومض قبل ان ينطفىء تماما ، انه قرر أن يعود ، وانه لا يستطيع أن يســتسلم نهائيا لهذه الراحة اللذيذة فى احضان هذا الجسد الذى يحتضنه ، عينا الحــوت الزجاجيتان صمدتا فى ذاكرته تذكراته بانهما اعتزما العودة الى القاهرة ·

ولابد انها شــعرت بانتفاضته ، فقد تركته فجاة ، وقالت فيما يشبه العتاب :

ـ أستاذ ·· أنت مازلت مشغولا بعودتك ·

كانت تتراجع فيخيل اليه انها توشك أن تجذبه اليها ، أو لعله تمنى أن تجذبه اليها ، أنه فى أشـــد الحاجة الى هذه الراحة التى لم يألفها من قبل ·· لابد أنها خبيرة فعلا فى هذا اللون من العلاج ، ولابد أنها درست فنونا فى السيطرة على الجسد ، والتأثير فى مراكز حساسة منه ، تنقل الانسان الى هذا الهدوء العميـــق الذى يجعله يستقبل النشوة كاملة خالصة ·



وسمعها تقول :

ـ لا تخف ·· لن أخدعك ·· ولن أفرض عليك ما لا تريد

كاد يتوسـل : بل أنقذينى مما أنا فيه من عـــذاب ·· امنحينى بعض هذه الراحة ·

ولكنه اكتفى بأن يترنح فى محاولته أن يستعيد نفسه ، بأن يتخلص من شعور الراحة ويعود الى القـــلق والتوتر العصبى ·

وقالت له باسمه :

ـ مازلت فى حاجة الى تدريب طويل ·· ان التقاء جسدين أصبح فنا راقيا ·· وله مستويات تتحقق فيها راحة تامة ·· لا تشوهها انفعالات أو اضطرابات نفسية ولا تشنج عصبى ·· أنك تنتفض كما لو كانت عروقك توشك على الانفجار فى أية لحظة ·· صدقنى أنا أتألم لحالك ·· وأنت أولى الناس بالراحة ·

همس وقد استعاد بعض نفسه :

ـ صدقت ·· ولكن هكذا شاءت الظروف ·

وتنهد قبل أن يكمل ملوحا بيده فى يأس :

ـ لدى الآن فكرة عن هذا الراحة التى تستطيعين تقديمها لى ·· وهى شىء أتمناه بالفعل ·· لقد قضيت سنوات بعد سنوات ·· وأنا أتساءل يائسا ·· هل آن الأوان لأستريح ·· أنت تقدمين لى الجواب وتقولين لى بطريقــة عملية ·· نعم تستطيع أن تحصل على راحة لم تحلم بمثلها من قبل ·

وعاد يلوح بيده وهمس :

ـ كنت أتمنى أن أحصل على نصيبى من هذه الراحة ·· اقتنعت الآن ·· فى هذه اللحظة الخاطفة أن لديك ما أنا فى اشد الحاجة اليه ·· ولكن لابد أن أعود لأنقذ ابنى ·· لأنقذ نفسى ·· انقذ ما تبقى من مستقبلى ·

ضحكت قائلة :

ـ لقد تغيرت لهجتك ·
قال بسرعة :
ـ نعم ·
قالت وهى تقدم له شطرا من التفاحة :
ـ كنت أريد أن أنجز عملا أفخر به فى مهنتى ·· فحالتك ليست سهلة ·· لقد جئت الى هنا تحمل معك رواسب ضـارة من علاقاتك بالمرأة ·

قال ضـاحكا فى عصـبية وهو يأخذ منهـا قطعة التفاح ويقضمها :
ـ كيف عرفت ؟
قالت فى مرح :
ـ من السهل على خبيرة مثلى أن تدرك ذلك بسرعة ·· ان جسدك قلق ·· لا يطمئن الى جسد المرأة ·
وقهقهت فى همجية وهتفت :

ـ أنت لم تشـعر فى حيـاتك براحة حقيقية ·· أو شـهوة حقيقيـة ·· أنت لا تعرف حقيقـة هـذه المشـاعر ·· وكنت سأجعلك تنغمس فيها انغماسا خالصا من أية رغبة فى شىء آخر ·· خالصا من أية فائدة تتخيلها فى علاقتك بالمرأة ·· لأنه كلما قلت الفائدة ·· كلما زاد الانغماس ·· تعطى نفسك ·· تتركها ·· تتخلى عنها ·· عندئذ فقط تبتلعك الراحة تماما ·· وتدرك أنه لا شىء يستحق أن ترهق نفسك من أجله ··

لا شىء يسـتحق أن تبحث عنه أو تتحسر على فقـدانه ·· أو تحزن لانقطاع صلتك به ·
وضربته فجأة على كتفه هاتفة :

ـ هيا ·· حتى لا تتأخر عن الحوت ·

أدهشه أنها تذكره بواجبه · لم تعد تهتم به · وارتبك · أو لعله خجل من نفسه ، فانشغل باغلاق حقائبه الثلاث ، وطاف بالحجرة يبحث عما يكون قد نسيه فى الدولاب أو فى الحمام أو تحت السرير ، وحمل الحقائب الى الباب ، فى انتظار من سيأتى لحملها ·

وكانت رأسه تتلقى هجمات مشاهد من حياته فيحـاول طردها · جابى اسـكنازى ، أمه ، زينب · علاقاته الحقيقية بالمرأة ارتبطت بثلاثتهن ، وكلها علاقات انتهت الى نوع من الخيبة والفشل ، وارتجف جسده وهو يتذكر الحوت يردد له أن الجريمة تعم · كان يشـعر على نحو غامض أن علاقاته كانت تنطوى على نوع من الجرائم ، ولكن كيف ، وصـاح بصوت مرتفع على الرغم منه ·

ـ كيف ؟
وارتبك وقد سمعها تسأله :
ـ ماذا تقول ؟
واضطر الى ان يبحث عن شىء ما يقوله بسرعة · قال :

- أتساءل .. كيف تقومين بهذا العمل ؟ .

ســألته :

- ماذا تعنى ؟

قال :

- انه عمل كثير لامرأة واحدة .. ولابد أن الزبائن ..

وسكت . لم يجد التعبير المناسب ، وسمعها تقول :

- لست وحدى .

سألها فى دهشة :

- أهناك غيرك .. كنت أظن .

قاطعته ضاحكة :

- تظن أنى وحدى هنا .. لا يا سيدى .. كل ما فى الأمر انك كنت من اختصاصى .

وأردفت وهى تقترب منه تنظر فى عينيه بجرأة لا يتحملها .

- أنت يا سيدى تنظر الى كما لو كنت شيئا غريبا .. مع انى مجرد موظفة عادية .. أقوم بمهمة جديدة .. معروفة فى بلاد كثيرة من العالم .. وان كنتم تجهلونها فى بلادكم .. الصحة النفسية لم تعد حبوبا مهدئة .. وصدمات كهربائية .. وجلســات تحليل نفسى .. الاكتشــافات العلمية الطبية توصلت الى العلاج بالجنس لاعادة تنظيم نفسية الانســان وسلوكه .. لأن الجنس هو الذى جاء بالانسان الى الوجود ، فاذا ما اختلت حياة الانسان ، فاللجوء الى الجنس هو افضل

وأحسن الطرق الى اصلاح هذا الاختلال .. والانسان يبدأ حياته بالجنس .. ويظل يجاهد فى الحياة ويشقى ويتعذب ويحــارب وينتصر أو ينهزم ، ثم يأتى وقت يحتــاج فيــه الى الراحة .. وأفضل وسائل هذه الراحة التى يتوج بها الانسان حياته .. هى أن يستقر على وضع يريحه ، ويكتشفه من خلال ممارسة جنسية سليمة ، فيحصل على راحته الكاملة بعد طول العنــاء .

همس :

- هذا كلام غريب .. لا أستطيع أن أتخيله .

قالت ضاحكة :

- بالنســبة لك نعم .. ولكن الدنيــا تتطور .. ووســائل العلاج تتغير .

سألها فجاة وهو لا يدرى ما الذى دفعه الى السؤال :

- ما اسمك الحقيقى .

قالت بصوت خفيض :

- لم يعد هذا بالأمر الذى أهتم به .

كانا قد خرجا من الحجرة ، وســـارا جنبا الى جنب الى المصعد ، وهى تقول بصوت خفيض :

- غيرت اسمى .. منذ كنت أهتم بالسياسة .. وأنتمى الى خلايا سرية .

ومطت شفتيها باشمئزاز مما تذكره وقالت :

- كل هذا انتهى ·· ولم يعد له معنى بعد أن وصلت الى هنـــا ·

كان يضغط على زر المصعد · وهو يسألها :

- ولماذا انتهى عملك فى السياسة ؟

قالت بسرعة :

- انتهى بالفشل ·· ثم اليأس من كل شىء ·

سأل وهو يعيد الضغط على زر المصعد :

- وكيف اشتغلت بمؤسسة د · س ؟

ورأى المصعد يصل ، عندما سمعها تقول :

- مراد حسنين ·

كان قد مد يده ليفتح باب المصعد ، فجمدت يده ، واستدار اليها مصـعوقا وأصـابع يده ترتجف وتتقلص ، وشـفتاه ترتجفان ، وصدره يضج بالدماء التى تفور فى رئتيه ، وقال بلهجة غاضبة وقد تشنجت يده على مقبض المصعد :

- الكل يتحدثون هنا عن مراد حسـنين ·· هذا أمر غير مفهوم ·· هل تستطيعين تفسيره لى ؟

قالت بأسمه :

- انظر ·· كيف انت غاضب ·· مهتاج ·· كيف تتحمل هذه الحياة ·· ان اعصـابك مرهقة بشـكل فظيع ·· ولولا عنادك لكنت تستريح الآن ·

قال وقد اشتد عناده ·· واشتدت قبضته على باب المصعد يكاد يخلعه :

- تكلمى بسرعة ·· ما صلتك بمراد حسنين ؟

قالت بهدوء :

- انه ·· هو الذى أوصانى بك ·

صرخ وباب المصعد يرتج فى يده :

- أوصاك ·· ما معنى هذا ·

دفعته الى المصـعد · فدخل بصـعوبة · كان لا يريد أن يتزحزح من مكانه قبل أن تفسر له صـلتها بمراد حسنين · وضغطت بأصبعها على زر المصعد ليهبط ، وحاول أن يهرب من وجهه يطل عليه من مرآة المصعد · وجه مرهق ، مجهد ·· وجه آخر ليوسف منصور لم يره من قبل ·

وسمعها تقول :

- مراد ·· هو الذى ساعدنى على العمل هنا ··

تمتم ذاهلا :

- مراد ·· اذن فالجميع جاءوا الى هنا عن طريقه ·

قالت :

- لا ·· ولكن هناك مجموعة لا بأس بها من النزلاء على علاقة به ·

فسألها :

- وكيف أوصاك بى ؟

قالت :

– عندما قدموا لى التقرير الخاص بك ·· لنستعد لمجيئك ·· قالوا لى ان مراد حسنين طلب أن أعتنى بأمرك ·

سأل مرتابا :

– من الذى قال لك ذلك ؟

همست :

– الادارة ·

سأل بالحاح ·

– ومن هم الادارة ؟

قالت :

– هذا سر من أسرار العمل ·· لا شأن لك به ··

فزمجر :

– وكيف تعرفت بمراد حسنين ·· أهذا أيضا سر ·

قالت ببساطة وقد وصل المصعد الى الطابق الأرضى ، ووقف وهو لا يريد أن يخرج منه :

– تعرفت به فى بيروت ·

رأى أمامه وهو يخرج من المصعد ، الصندوق الزجاجى داخله الشيكولاته وشعر بتعاسة لأنه لم يحصل على حقه من الراحة ، ولأنه مرهق ومجهد كما تأكد من صورة وجهه التى أطلت عليه من مرآة المصعد · وهو مضطر الآن الى أن يتحرك بسرعة · وأن يواجه الكوارث التى يبدو أنها أكبر وأضخم

مما كان يتوقع · كل الدلائل تشير الى أن مراد حسنين قد دبر له أمرا ·· كان عقله يعمل بسرعة ، والمشاهد تتلاحق فى ومضات خاطفة بمخيلته تسترجع علاقته بمراد حسنين · أيام التحقيقات بوزارة المعارف ·

كانت مكالمة تليفونية من الشيخ الامام عبد السلام صبرى ، قد فتحت له أبواب الوظيفة ، بين البيت وادارة التحقيقات دقيقتان تسيرهما على الأقدام ، كلاهما فى جاردن سيتى ، قال له الشيخ أذهب يا بنى واستلم الوظيفة ، ولسوف تشعر ببعض المرارة لأنك تلتحق بوظيفة ادارية وهناك شبان فى مثل سنك أكملوا تعليمهم وحصلوا على شهادة الليسانس ويتولون التحقيقات ، ويتقاضون مرتبات أكبر ، وأنا أتمنى أن يستفزك هذا الوضع ، فتكمل تعليمك ، فلا شىء يحول بينك وبين اتمامه الا عنادك وتكاسلك واهمالك لدروسك ومحاضراتك ، لا تظلم نفسك يا بنى ، دراساتك ميسره ، ومحاضرات الشريعة تستطيع أن تسألنى عنها فى أى وقت ، لقد اخترنا لك هذا العمل حتى لا تضيع وقتك فيما هو مفسدة للشباب ، فأنت واحد منا ، ونريد لك الخير والسعادة ، عندما أوشك أن يخرج من الحجرة التى يجلس فيها الشيخ فى بيته ، ناداه ، فوقف بالباب ، ورأى وجه الشيخ يبتسم قائلا :

– لا تبتئس ·· واذا ضايقك أن المحققين فى وضع أفضل منك من حيث الوظيفة والمؤهل الدراسى ، فلا تنسى أنك يوسف

منصور ·· وان عائلتك واسمك كفيلان بأن يهيئا لك وضعا اجتماعيا لا يحصل عليه غيرك بالمناصب والدراسات ·

رفض اتمام دراسته تحديا لهذا الشيخ وعائلته ، فانتهى به الأمر الى أن يلتحق بوظيفة عن طريق وساطة الشيخ ، لم يكترث بالمحققين حملة شهادة الليسانس ، ملابسه أفخر ، بيته فى جاردن سيتى بحديقته وأشجاره ، يفرض على كل ادارة التحقيقات أن تنظر اليه فى احترام ووجل ، انه قريب الشيخ الامام الوزير أمر بتعيينه بالتليفون واستلم العمل قبل وصول الأوراق · مدير التحقيقات يستقبله بحفاوة ، اعتبر نفسك ابنى ·· لن أعطيك عملا مرهقا لتكمل دراسة الحقوق ولا تحاول التزويغ ، لأنى مسئول عن سلوكك أمام لطيف بك صبرى ، كان المدير يعلم أن لطيف بك زوج أمه ، ويعلم أن زوج أمه شقيق شيخ الأزهر ·

كان يستعد للمناوءة والمشاكسة ، عندما انعقدت صداقة بينه وبين مراد حسنين كاتب الآلة الكاتبة بادارة التحقيقات ، اسرع من يكتب على الآلة تقارير التحقيق ، صاحب سيارة اوستن ، صاحب محل خردوات فى شارع عبد العزيز ورثه حديثا عن أبيه ، متشبث بالتسعة عشر جنيها التى يقبضها كل شهر من الادارة أكثر من تشبثه بالسيارة ومحل الخردوات ، جعلا من حجرتهما فى ادارة التحقيقات وكرا باهرا للمحققين ، يتسللون اليه لمعرفة تاشيرة المدير على تقاريرهم ، او لاقتراض النقود من مراد او السجائر من يوسف بك ، ولكن مراد كان

عليه ان يختار بين الوظيفة والدكان ، واختار الدكان ولم يحتفظ من ادارة التحقيقات الا بصداقته ليوسف ، سهراتهما فى الدكان حتى يغلقانه ثم تمتد فى قهوة شارع فؤاد ، او فى بار فى شارع الالفى ، وظن زبائن دكان مراد أن يوسف شقيقه وايقن جرسونات المقاهى والبارات أن مراد ويوسف صديقان لا يفترقان ، فلما رأى مراد مريم وهى تدخل دكانه شعر لأول مرة انه أمام امرأة لا يستطيع أن يتخلى عنها ، كانت المفاجاة التى بدت أنها كمعجزة للصديقين ، اكتشاف أن مريم لها شقيقة توءم هى زينب ·

خرج يوسف من خواطره ، وهو يتوقف عند الدرجات الثلاث المفضية الى الحجرة التى فى نهاية الممر ، انتبه حتى لا يسقط على الدرج وهمس :

ـ هل تسمحين بلحظات ·· قبل أن اذهب الى قاعة الدومينو ؟

قالت مستسلمة :

ـ أمرك ·

قدم لها مقعدا جلده بنى وجلس قبالتها بينهما منضدة من الأبنوس الأسود وقال فيما يشبه التوسل :

ـ هل استطيع ان أعرف منك ·· كيف وصلت الى مراد حسنين ؟

قالت ضاحكة :

- وصلت اليه عن طريق الحوت ٠

قال منفعلا :

- نعم ٠٠ نعم ٠٠ الحوت قال لى انه يعرفك ٠

قالت باسمة :

- كنت أعمل لحسابه فى المباحث ٠

ومضت تروى له كيف كان لها نشـــاط ســـياسى فى الجامعة ٠٠ المبادىء والشعارات ٠٠ الاجتماعات ، الكفاح الثورى ، كنا أقوياء ، وكان معى من أصبحوا فيما بعـد حكاما فى دمشق وبغداد والجزائر وعمان ٠٠ أحلام كبيرة ٠٠ القومية العربية ٠٠ الوحدة العربية ٠٠ ولكن الأحلام تحولت الى كوابيس ، والانتصارات انقلبت الى هزائم ، زمـــلاء خانوا ، وزملاء قتلوا زملاء ، وزملاء وصـــلوا الى الحكم فانقلب عليهم زملاء ينتزعونهم من الحكم ويقتلونهم بالرصاص أو برسائل متفجرة ، أو بالسم ، أو بالاعتقـــال والنفى ، تساقطوا واحد بعد الآخر ، أتعرف يا أستاذ أن أكبر وأهم مظهر للشباب الثورى المكافح كما عرفته ٠٠ هو قدرته على التلون كالحـــرباء ٠٠ القيمة الحقيقية التى يحارب من أجلها بضراوة هى فى نهاية المطاف مصلحته الشخصية ، اذا جاءت المصلحة فى صورة منصب أو نفوذ عن طريق البعث فهـــو بعثى ، اذا كانت الشهرة واكتساب الأهمية عن طريق الارتباط بالشيوعية فهو شيوعى ، واذا كان ٠٠

قاطعها وهو يذكر ابنه ٠

- أعرف ٠٠ أعرف ٠٠ أنا لا أسألك عن السياسة ٠

قالت ضاحكة :

- لك كل الحق ٠٠ فأين هى ٠٠ على أية حال كانت هى ايضا مصلحة شخصية بالنسبة لى ، أو هكذا تحولت عندما أصـــبحت خطيبة لرئيس الخلية التى أنتمى اليها ٠٠ وكان مثلى الأعلى فى العمل السياسى ٠٠ وانهار كل شىء ٠٠ عندما هجرنى وتزوج ابنة أحد الباشـــوات ٠٠ ووجدتنى مهددة بالترحيل الى سوريا ٠٠ أنا التى كنت أهتف فى شـــوارع القاهرة فتردد الجموع هتافى بالوحدة العربية والقوميـــة العربية ، ونادانى الحـــوت ، قال انه قد تقرر صرف معاش لى كمجاهدة وطنيـــة ، لم يفت وقت طويل قبل ان اتبين أن لا شىء يقدمونه لك بلا مقابل ، وان الحماية والمال اللذين أحصل عليهما ، من الحوت ٠٠ مقابل أن أنقل اليه ما لدى من معلومات ٠٠ وكنت قد وصلت الى بيروت ، وأقمت فى فـــرع فندق برستيج هناك ٠٠ أتردد على صـــالة اللعب ٠٠ وأعرف آخـــر أخبار الكفاح والجهاد ، والتقى بالوجوه القـــديمة ، وأتعرف على وجوه جديدة ، وكان الرصاص يدوى فى كل أنحـــاء بيروت ، ومع ذلك



فالفندق مفتوح ، والكازينو يمارس نشاطه ، ولا أحـــد يقترب منه ·· لا من اليمين ولا من اليسار ، ولا من المارون ولا من المسلمين ، ولا من السنة أو من الشيعة ·· ولا من الكتـــائب ولا من المقاومة ولا اليهود لا أحد منهم جميعا يهاجم الفندق وملحقاته لان الجميع يقبضـــون أجر حماية الفندق ، هذا هو ما شرحه لى مراد حسنين ، وكنت قد قابلته فى صالة اللعب ، حكيت له قصة حياتى ، كيف أحببت ، وكيف خاننى وهجرنى وأنا حامل ، وكيف أجهضت نفسى ·· ودعانى الى الافطـار ، شربنا الشمبانيا مع القهوة ، وطبعا ســـكرت ·· وكنت قد خسرت مالا كثيرا فى الكازينو ·

قلت له لا أريد هذه الحيـــاة ، فقدت ثقتى بكل شىء ·· بالحكومات ، بالزعماء ، بالمبـــادىء ، بالقيم ، كله كـــذب فى كذب ، حتى الحب ، حتى أية علاقة انسانية لا اتصـــور ان تقوم أية علاقة ويقبلها الناس ، الا اذا كانت على أســـاس الخداع والغش ، والكذب ، الناس هكذا ·· يطمئنون للكذب أكثر من اطمئنانهم للصدق ، حشرات ·

وقال لى مراد ان عنده لى وظيفـة ، فى فنـدق بمؤسســـة سياحية ، سألته ، اين ، قال فى مكان بعيد عن هنا لا يعرفه أحـــد ·

فقلت له بسرعة ، ارجوك ، الحقنى ، انا موافقة ·

وعندئذ قدم لى عرضا بأن احصل على دراسة تدريبية فى

العلاج عن طريق الجنس ، وقال لى وهو يضحك : انى سأجد متعة من نوع يفوق بكثير متعة السلطة السياسية التى كنت أسعى اليها اثناء عملى بالسياسة ، وقال انى سأسيطر على الرجال بأساليب جديدة تماما ، المهم أن أقبل ، أن أتخلص من أية رواسب من أفكار عتيقة عن الجنس ، وأهتم بدراستى وتدريباتى ، وفعلا ذهبت الى مركز التدريب ، واكتشـــفت بسرعة ما الذى كان يعينه مراد حسـنين ، بعد محاضرات قليلة على يد خبراء وأطباء عالميين ، وتدريبـــــات يتولاها مدربون من الهنود والصينيين درسوا اليوجا والزن ، تعلمت أن السلطة التى تحصل عليها من السيطرة على الجســـد لا تفوقها سلطة أخرى فى الوجود ، عالم آخر تفتح أمـــامى تشعر فيه بانتماء للكون ·· لأصل الوجود ·

ـ همـــس :

ـ ولكن واضح أن سلطة مراد حسنين أكبر ·· وأقول لك بصراحة : ان أصبحت أخشى أن يكون قد دبر لى أمرا ، مع أن هذا احتمال يصعب تصديقه ·

فضحكت قائلة :

ـ ربمـــا ·

ســـألها :

ماذا تعنين ؟

قالت محاولة التهرب من الاجابة :

ـ أقول ربمـــا ٠
قال محتدا :
ـ ماذا وراء ربما هذه ؟
قالت وهى تنهض :
ـ لا داعى لأى كلام ·· ما دمت قد اعتزمت السفر ··
قال ملحـــا :
ـ ولكن أريد أن أسمع منك ··
قالت متهربة :
ـ تسمع مـــاذا ٠
قـــال :
ـ رأيك فيما قلته لك ·· ان مراد حسنين قد يكون يدبر أمرا أجهله ٠
قالت :
ـ انه يستطيع أن يفعل أى شىء ٠
قـــال :
ـ ماذا تعنين ·· هل لديك معلومات ؟
قاطعته وقد ضاقت بالحاحه :
ـ هل تظن أن مليونيرا مثله يتحمل نفقات اقامتك لمجـرد راحتك ·· أو لأن صداقة قامت بينكما يوما ما ·· لا اظن أن مثل هذا المليونير الرومانتيكى موجود فى الواقع ·· وهـو على أية حال لن يكون مراد حسنين رجل الواقع والتصرف العمــلى ٠

قال هامسا :
ـ اذن ما الذى يريده ·· أرجوك تكملى بصراحة ٠
قالت :
ـ صدقنى ·· لا أدرى ·· أحيانا يخطر ببالى ·· أنه أرسلك الى هنا لأنه مهتم بزوجتـــك ·· فقد روى لى فى بيروت ·· أنه كان خطيبا لشقيقتها التوءم ·· وكان يشرح لى ·· كيف أنه أحب يوما ما ، وأن قلبه الذى عرف الحب يجعله يفهم مشكلتى بعد أن هجرنى من أحببت ، وأعطيت له نفسى بلا أى قيد أو شرط ٠

انفجر يوسف ضاحكا فجأة ٠
ـ ما تقولينه تخريف ·· مراد حسنين لا وقت عنده لمثل هذا الكلام الفارغ ·· أنه أكبر وأهم وأخطر من أن يشـــغل نفسه بتوءم خطيبته ، أن يحاول أن يبعدنى ليصفو له الجو مع زوجتى ، ان علاقتى مع زوجتى ليست على ما يرام ·· ولكن لأســـباب أخرى تماما ·· يستحيل أن يكون من بينها اهتمام مراد حسنين بهـــا ٠

قالت معتذرة :
ـ قلت لك : ان ما أفكر فيه مجرد تخمين ٠
وهنا دوى صوت يردد :
ـ تخمين ·· تخمين ·· تخمين ·· مـــا الذى تتحدثان عنه ·· التفت يوســـف وراءه ، فراى ميرزا الفلكى مقبلا

عليه ·· وصـــاح وهو يهبط بكفه على كتف يوسف كأنه يقبض عليــه ·

ـ أمسكت بك أخيرا ·· ولن تفلت منى ·
قال يوسف بسرعة :
ـ آسف يا ميرزا بك ·· انى على موعد مع اللواء الحوت فى قاعة الدومينو لأننا مسافران فى التو ·
قال ميرزا باسما :
ـ مسافران ·· هكذا ببساطة ·
ـ لا أظن أنك ستغادر هذا المكان ·· قبل أن تسمع منى ما تريد أن تعرفه عن عصابة اليد السوداء ·
وأصفر وجه يوسف ·· وهمس :
ـ أنت تعرف هذا ·
وانتشرت فى وجه ميرزا الفلكى بشـــاشة فيها مزيج من شقاوة الطفل ومكر العجوز ·

والفضـــيحة وأيـــام المشـــاعر البغيضة التى طغت على الأحزان واحتلت مكانها لتصـنع له حياته ، تصـنع الحياة التى يعرفهـا يوسف منصـور وحده ولا أحد غيره ، تصنع أعماقه الدفينة ، تهمس له ، توسوس له ، وتصوغ له ألوانا من المكر والخبث والغرور والاستعلاء يدافع بها عن نفسه بين النـاس ، ويحمى نفســه من الأذى والظلم والخداع · ما الذى يعرفه ميرزا الفلكى عن كل هذا ، كيف وصل فى معرفته الى واقعة العصابة السوداء ·

وجد يوسف نفسه منقادا لميرزا الفلكى ذاهلا عما حوله ، لا يسمع ما تقوله ليلى ، ولا يسمع ما يقوله ميرزا الذى كان يجذبه من يده خارجا به من المبنى الى ملاعب الكروكيه ، كان يوسف الذاهل يتحرك فى الزمان لا فى المكان ، يعود الى ماض بعيد محاولا دخول البيت الذى انهدم ، بيت طفولته وصباه فى جاردن سيتى ، انها محاولة قاسية مريرة ، فهو يرى بمخيلته العمال وهم يهدمونه ·

كانت لحظة غريبة فى حياته ، كان يقود سيارته الفولكس فاجن فى طريقه الى مبنى التليفزيون ، رأسه مزدحم بالمشاهد

المثيرة التي سيفاجىء بها المخرج محمد صفوت • خاصة ذلك المشهد الذى سوف تخدع فيه البطلة اللص الذى يسرق أموالها بأن توهمه أن النقود التى معها مزيفة ، سيصدقها اللص • وسيقذف بالنقود التى أمسك بها مذعورا كأنها عقارب تلسعه • موقف مثير ، وله مغزى أخلاقى • المال الحرام كالعقارب السامة ، وله جانب مضحك • فالناس يعجبها تلك المواقف التى تتغلب فيها فتاة عادية على لص ذكى محترف ، انتصار الفتاة يملأ نفوس المشاهدين بالثقة فى أنفسهم •

وفجأة سمع يوسف صراخا ورجلا يقف فى منتصف الطريق يشير له أن يقف • وأوقف سيارته قبل أن يصدم الرجل الذى كان يحذره من التقدم لأن بناء يوشك أن يتداعى • وانتبه فجأة الى أن هذا البناء هو « بيتنا » القديم • وأن هذا الشارع • هو « شارعنا » القديم ، وعمال يعتلون السقالات يضربون بمعاولهم فى جدار بالطابق الثانى ، هو جدار حجرة نوم أبيه وأمه • أفاق من حلم السيناريو ليواجه واقعا أغرب من الأحلام • كانوا قد هدموا السقف ، والنوافذ عارية من الخشب



والزجاج •• البيت أصبح هيكلا حجريا والعمال يزحفون فوقه بالمعاول وقد ثار الغبار حولهم ، حيوانات أو حشرات مخيفة تنهش ما بقى من الجسد • صدفة عجيبة • صدفة أليمة ، واجهها بابتسامة للرجل الذى كان يحذره • وهبط من السيارة ، ووقف ينتظر سقوط الجدار ، ها هو الانهيار يمتد الى البيت بجدرانه وحجارته وأخشابه وحديده •

ها هو الدمار ينتشر ويسحق كل ما كان فى هذا البيت ويحيله الى غبار وانقاض وتراب ، ولكنه سيرتفع فوق هذه الأشلاء ، هذا هو ما تريده الأقدار التى هيأت له مشاهدة هذا المنظر التاريخى ، لعله يحوله الى مشاهد فى رواية ، ترى هل يوافق محمد صفوت على اخراج هذا المشهد • مستحيل ، سيعترض بأن التصوير الخارجى غير مرغوب فيه لتكاليفه الباهظة ، شاشة التليفزيون لا تحتمل هذا البذخ ، أيتنازل محمد صفوت عن أجره ليقبل ، أيعترف له بأن مشهد انهيار البيت ، هو ذروة ماضيه الذى صنع له حاضره • لن يفهم محمد صفوت هذه المشاعر سيقول له ساخرا ، وما الذى يجذب الناس الى مشاهدة انهيار بيت وخرابة وانقاض وأتربة • هل هى قنبلة نسفت البيت ؟ وتمنى يوسف لو كان معه ابنه حسن فى هذه اللحظة • لعله يأتى به فى يوم أجازة المدرسة ليشهد بيت جده وهم يهدمونه • هذه يا حسن هى غرفة جدك وجدتك ، وهناك حيث سقط الجدار فى الجانب

الأيمن كانت حجرتى انام والعب وأذاكر فيهــا · وبجوارها حجرة عمتك كريمة ، كان بيننا باب ، وكنت اخاصمها فتقف خلف الباب ترقبنى من ثقب المفتاح ، وتذهب لأمى وتقول لهــا انى لا أذاكر ·

وهذه الحديقة التى لم يعد فيهــا زرع ولا اشــجار ، كانت كلها أحواض ورود وأزهار ، وتحت نافذة حجرتى كانت هناك شجرة موز ، ذات يوم رأيت تحتها ثعبانا طويلا رفيعا فضى اللون طوله متر · وكان طولى لا يزيد على متر ، وجريت الى عم محمود وجـذبته من جلبــابه وهو جالس على الدكة أمام البيت ، هنا حيث ترى أكوام التراب ، وصرخت ، ثعبان يا عم محمود · ثعبان تحت شجرة الموز ، وظن انى أضحك عليه ، ولكنه جــاء ، ورأى الثعبــان ، وكانت نظـرات من عينى عم محمود ونظرات من الثعبان الذى تلوى وانســـاب وصرخت وقفزت فى الهواء ، وضربه عم محمود بقبقاب فى قدمه · كان يستعد للوضوء ، وتدلى الثعبان على عصا حمله عليها ، وكان وجهه عابسا وعيناه غاضبتين وذعرت أمى · لم تصدقنى أول الأمر ، ونادت عم محمود ، فلما قال لها ان الثعبان حقيقة ، خافت وضمتنى الى صدرها ، ورفضت أن أبتعد عنها ، وجاء أبى يفتش الحديقة وينبش الأرض بعصاه الأبنوس ذات المقبض العـــاجى ·

وسأل عم محمود من أين أتى الثعبان ؟ وطلب منه أن يبحث

عن كل الشقوق ويسدها ، وانشغل عم محمود ليومين وهو يعد خلطة الأسمنت وأنا أساعده ، وهو يرفض مساعدتى ويتهمنى بانى ألوث ملابسى وحذائى وأضع الأسمنت فى فمى ، وعرفت كل الشقوق الصغيرة فى جدران البيت ، وراقبت النمل وهو يدخل ويخرج منهــا ، وكنت أتابعــه وهو يحمل الذباب الميت ويصعد به الجدار ليختفى فى الشق ، وكنت أرش عليه الماء ، وأســـــحقه بقـدمى ، ثم أخــاف وأتوقع ان يهاجمنى لينتقم منى ، وكان عم محمـــود يحـــذرنى من الاقتــراب من النمل ويقول لى انه جاء فى القرآن ، فأشعر أن له هيبة وابتعد عنه ، ثم أهاجمه من جديد فى محاولة للقضــاء على كل النمل الذى أراه فى الحديقة · ولكنه لا يختفى ابدا ·

تعالت الصيحات ، وســقط الجدار ، وثار الغبار ، وامتلأ الجو بذرات التراب ، فخيل الى يوسف أنه يســمع صراخهم جميعــا ، صراخ أبيه وأمه وصراخ جـدته لأمه · وصراخ نور زوجة عم محمود · وصراخ محمود وصراخ ابراهيم السائق · وانتفض وقد خيل اليــه أن ســيارة أبيه البــاكار مازالت فى الجراج وان الانقاض سقطت عليها وهشمتها ، وتراجع وقد ملأ الغبار عينيه وركب الفولكس فلما وصــل الى التليفزيون كان قد نسى كل ما رآه ، ومضت شـــهور قبل ان يمر بنفس الطريق التى كان ينحرف اليها اذا ما توقع أن يعطله الزحام فى شارع قصر العينى ·

وفاجأه هذه المرة منظر الآلات الضخمة تدق خوازيق الأسمنت فى الأرض التى كانت بيتنا · الآن قامت تلك العمارة الكبيرة التى يشغلها موظفو الضرائب ، مكاتب ورجال ونساء وسعاة وممولون وملفات مكدسة فوق المكاتب ، كل هؤلاء محشورون فى حجرات ضيقة يعلوهم غبار كأنه بقايا غبار انهيار بيتنا القديم ، كان يدخل الحجرة لتراجع مأمورة الضرائب اقراره الضريبى ، فيرى مع هذا الحشد فى هذا المبنى الجديد ، أمه جالسة تطرز مفرشا للمائدة ، وجدته تصلى ، ونور جالسة عند قدمى أمه تدلكهما ، وأباه جالسا فى حجرة المكتبة يشرب القهوة بعد أن استيقظ من نوم العصر ، يقرأ البلاغ والمقطم · وكريمة تمشط شعرها المبلل بعد أن خرجت من الحمام ، هل يجوز أن يحدث مثل هذا الاختلاط فى ذاكرة الانسان · ومن المسئول عنه ، كان كل شىء مستقرا ثابتا ·

وكان أباه قادرا على طرد الثعابين من بيتنا ، وكانت كلمته مسموعة من الجميع ، ولم يكن مسموحا باقامة عمارات عالية فى جاردن سيتى ، كان يسمع أباه يردد فى مناسبات عديدة ، ان الذين يسكنون الشقق فى عمارات بالايجار أناس من طبقة أخرى ، يفسدون الأحياء التى يزحفون عليها ، يجلبون معهم الدكاكين أسفل العمارات ، ويتكاثر حولهم الباعة والخدم ويحدث الشغب الذى لابد منه بين جيران غرباء ليست لهم

مساكن يمتلكونها ، فهم بلا أصلا ولا جذور ، انهم رعاع يجتمعون كيفما اتفق فى حجرات تجمعها بناية واحدة ، هى بؤرة للضجيج والشجار تفوح منها روائح متنافرة منفرة لأطعمة يطهونها تعافها النفوس ، يستخدمون فى طهوها أردا أنواع الزيوت والدهون ، فضلا عن رائحة الزبالة والنفايات ، وأسوأ من كل هذا الأصوات غير المهذبة ، والكلمات البذيئة ، وعويل النساء الجاهلات ، وضجيج أولاد منحطين ينطلقون فى سلالم العمارات وفى الشارع بلا رقيب ، يتفوهون بأقذر الشتائم ويشوهون الوقار والسكينة التى يجب ان تتوافر لأى مسكن تعيش فيه أسرة كريمة ·

كان منصور بك سالم رجلا محافظا ، ولم يفهم يوسف معنى أن والده من عائلة محافظة الا بعد سنوات وسنوات ، عندما اكتشف أن كل ما أراد أبوه أن يحافظ عليه قد تداعى وانهار · كان أبوه مطمئنا الى أن كل شىء سوف يبقى كما هو · يهز رأسه ويقول ان البيت قد أقيم على أساس متين ، وأن صديق والده المهندس الايطالى السنيور برنينى قد جاء من الاسكندرية ليشرف بنفسه على بناء البيت وتنظيم الحديقة · وأنه صمم على أن يجمع طراز البيت بين التعبير عن الفخامة والهيبة بالأعمدة الرخامية التى جلبها المهندس من قرية « كرارا » الايطالية والنوافذ ذات الأشكال والأحجام المتعددة ، والبرج الذى يعطى مظهر القلعة الحصينة ·

وكان أبوه يردد بزهو بيتنا هو الوحيد فى شارعنا على طراز الباروك وكان ينطق الكلمة باعتزاز ، فلما سأله يوسف عن معناها ، قال له ضاحكا انها كلمة برتغالية معناها اللؤلؤة الكبيرة ، وأن هذا البيت هو فعلا لؤلؤة وسط الجيرة الحسنة ، فالشارع ليست فيه ثغرة يستطيع ان ينفذ منها الرعاع الى أى بيت من بيوته • كان الشارع صغيرا ، وعلى يمينهم قصر الأمير ف ، وهو قصر منيف يمتد الى نهاية الشارع ، والى يسارهم بيت سعيد باشا حقى رئيس الوزراء الأسبق ، ومن بعده بيت فاطمة هانم شريف التى ورثت رجلين من أكبر أثرياء مصر ، تزوجت الأول فورثت عنه قرى باكملها فى الصعيد فتزوجت الثانى فورثت عنه قرى باكملها فى الشرقية • كرست حياتها لأعمال الخير •

وكانت ترسل مع خادمها الأسمر العملاق ذى الشعر الأبيض والصوت الرفيع الحاد ، اطباق عاشوراء وسد الحنك وأم على • كانت اطباقها علامة مميزة للمواسم ولم تكف عن ارسالها حتى بعد غياب ابيه وكانت تركب سيارتها ، ولديها سيارتان ، ناش ورولزرويس ، تبدلهما عصر كل يوم وتختفى من الشارع ، وتعود بعد المغرب بقليل وقد اضاءت الأنوار بوابة بيتها وحديقتها ، وكانت البيوت الأخرى تكتفى باضاءة البوابة ، اما قصر الأمير فكان غارقا اغلب الوقت فى ظلام دامس • وذات مرة وقفت سيارة فاطمة هانم امام بيتنا ،

وكان يوسف يجلس على الدكة الخشبية بجوار عم محمود ، الذى كان مشغولا باعداد لفافة تبغ واحكم لصق اللفافة بلعابه ، وشرع فى اشعالها بحك حجر فى زند •

وفوجىء يوسف بوجه فاطمة هانم المستدير ، وشعرها الفضى المقصوص وعينيها الزرقاوين الواسعتين ، تطل من نافذة السيارة الناش الصفراء ، ثم أخرجت من النافذة عصا ابنوس مثل عصا ابيه ولوحت بها وهى تتمتم بكلمات غير مفهومة ، وانتفض عم محمود واقفا وقذف بلفافة التبغ على الأرض ، وهمس له وهو يرتعد ان يتقدم فالهانم تناديه •

خاف يوسف وقد انتقلت اليه العدوى من عم محمود ، واقترب مترددا ، ورأى وجهها متجهما ، وعصاها توشك أن تلمسه وتضربه ، وتبين انها تهدده بصوتها الحاد الرفيع أنها ستؤدبه بالعصا اذا رأته جالسا على الدكة الخشبية مرة اخرى • فليس هذا من شيمه اولاد الناس المحترمين • والمرحوم والده ما كان يقبل هذا • قال لها خائفا انه تعود منذ طفولته أن يجلس هذه الجلسة وان اباه رآه يجلس على الدكة ، وهى ايضا راته من قبل • فاسكتته بصوتها الغاضب ملوحة بعصاها قائلة له انه قد كبر ، وانه الآن يمثل اباه الذى غاب وان عليه ان يحافظ على سمعة أبيه ويحفظ لبيته ما عرف عنه من وقار •

كان ذلك بعد أن غاب ابوه بقليل ، وكان يشعر بحرمان ،

ويفتقـد الذى ذهب ، وكان يجلس على الدكة لأن عم محمـود رجل كبير ، وهو يحتاج الى الاحســـاس بأنه قريب من رجل كبير ، وكان يشعر ببعض الراحة والدفء عندما يلتصق بعم محمود فى جلسته ، وعندما يشم رائحته ورائحة ملابســـه ورائحة التبغ الذى يدخنه ·

وارتبك اذ خيل اليه أن فاطمة هانم تتهمه بأنه يســعى الى هذا الاحساس بجسد عم محمود ، وكأنه احســـاس شـاذ ، وخيل اليه ان خوف عم محمود مصدره هو نفس الاحساس ، فما الخطأ فى جلوســـه الى جـواره ، الا اذا كان تلاصـق جسديهما عيبا لا تقبله الأخلاق ·

وتحركت سـيارة فاطمة هانم متجهة الى بوابتها المفتوحة على مصراعيها ، وانطلق يوسف الى الداخل ، وغضبت أمه عندما قال لها ان فاطمة هانم لوحت بعصاها فى وجهه ·

وقال لأمه : ان العصا كانت مثل عصا أبيه · فقالت أمه : انها هدية من أبيه ، طلبتها فاطمة هانم منه لتتوكأ عليها ، وانها قالت لأبيه ان هذه العصا لا تصلح لفاطمة هانم فهى عصــا للرجال ، فقال لها ضاحكا انه قد آن الأوان لفاطمة هانم ان تتصرف كالرجال وتهتم بادارة ممتلكاتها ، ولا تفكر فى الزواج من رجل ثالث ، وأضافت أمه تعلق على الكلام الذى سمعته من أبيـــه انه كان لا يرتاح الى وقـوع أى شىء فى بيـــوت الجيران يؤدى الى اثارة الكلام عنهم · أى كلام عن الجيران

هو فضيحة فى نظره ، لو سمعنا صوتا عاليا فهو فضيحة ، لو حمل الينا الهواء رائحة ما يطهونه من طعام فهى فضيحة ، لو أطل وجه من نافذة فهى فضيحة ·

وقالت أمه فجأة ان فاطمة هانم على حق فى تأنيبها له فقد بلغ الثالثة عشرة ، ولم يعد ســـنه مناسبا للجلوس بجوار البواب على دكته الخشـــبية أمام الباب · انه الابن الأكبر وعليه ان يفكر فى شـقيقته كريمة فهى فى حاجة الى الرجل الذى يقدم لهـا فى البيت المثال الذى حافظ عليه منصـور بك سالم · قال لأمه انها تسمح لنور زوجة البواب ان تجلس فى حضرتها · قالت له هذا شىء آخر ولا شـــأن لك به · كانت تقول ذلك وكأنها صـــاحبة الكلمة الأخيرة فى المحافظة على التقاليد المرعية فى البيت ·

واستسلم لها وهو لا يدرى أنها بعد عامين سـوف تتزوج لطيف صبرى وسوف تصنع الفضيحة التى كان أبوه يخشى وقوعها فى بيوت الجيران لا فى بيته ·

كان أمام « بيتنا » بيتان متماثلان ·· توءما ·· من طابقين ولهما حديقتان متشابهتان يســـكنهما شقيقان ، البيت الذى يواجه بيتنا مباشرة هو بيت الشيخ عبد السلام صبرى ، شيخ الأزهر ، الامام عالم الدين الكبير ، بيته يضاء بأنوار متوهجة فى البوابة والحديقة ونوافذ الطابقين تضاء ، وتفتح نوافذ حجرات الطابق الأول وتزدحم بالزوار وتظل الحال هكذا لفترة

تطول أو تقصر ، ثم تنطفىء الأنوار وتغلق النوافذ ويختفى الزوار ويخيم صمت ثقيل على البيت لفترة تطول او تقصر ، وكان يسمع من أبيه وهو يتحدث مع أصدقائه ، أن الشيخ قد تصالح مع السراى ، أو ان الشيخ قد اغضب السراى • وكان الحديث يدور حول النزاع بين الشيخ والملك فؤاد ، فيتوقع يوسف أن يهاجم الملك بيت الشيخ بجنوده وفرسانه فالملك قائد عظيم يهتفون باسمه فى المدرسة ويحفظون الأناشيد يرددونها قبل القيام بالاجازة فى عيد ميلاده او عيد جلوسه على عرشه •

ويتساءل يوسف كيف يجرؤ ذلك الشيخ على اغضاب الملك ، ويتساءل ما هو سر قوة الشيخ عبد السلام صبرى فيحتار ، كان الشيخ طويلا ممتلىء الجسم ، عمامته ناصعة البياض ، قفطانه زاهى اللون ، يسير فى تؤدة ، عيناه رماديتان حالمتان ، بشرته بيضاء محمرة ، وكان يرى عم محمود بين كثيرين يسرعون الى الشيخ عند خروجه من بيته ينحنون ويقبلون يده ، وهو مالا يفعلونه لاى واحد من أصحاب البيوت الأخرى ، ولا مع الامير فى المناسبات النادرة التى يشاهدونه فيها عندما يعود من الخارج ويمضى بعض الوقت فى قصره • كان الامير يخرج متسللا ، تنطلق سيارته فى صمت ، ولا احد يلتفت اليها ، أو كانوا يسارعون بالابتعاد عنها ، لا صلة بينهم وبين الامير ، أو حتى حاشيته ، ولا أحد

يتحدث مع سائقه الذى يختفى داخل القصر ، ولا يرونه الا وهو خارج يقود سيارة الأمير • لا يلتفت الى أحد ، لا يبتسم ، ولا يتبادل النظرات مع أحد •

أما الشيخ عبد السلام فهو الذى يعرفه الجميع ، الكبار وخدمهم على السواء ، ولا يدرى يوسف من الذى قال لأبيه انه ذات مرة اندفع مع الآخرين وأمسك بيد الشيخ وقبلها ، كان بيت الشيخ فى تلك الليلة متألقا بالأضواء ، وكان عائدا فى سيارة بعد المغرب بقليل ومن خلفه سيارات كثيرة وقفت أمام بيت الشيخ وأمام الرصيف المقابل ، أى أمام بيتنا ، وكان عم محمود وابراهيم السائق ورجال كثيرون بينهم العملاق الأسمر خادم فاطمة هانم يتزاحمون أمام بيت الشيخ وفى منتصف الشارع يعكرون هدوءه ، وكانوا يتحدثون عن فوز الشيخ بالوزارة ولابد انها كانت وزارة الأوقاف ، وكان هناك من يتحدث عن رؤية رآها فى المنام بشرت بفوز الشيخ وسبقت ما حدث بالفعل بأيام •

وقال صاحب الرؤية لعم محمود والآخرين ، انه ذهب الى الشيخ وبشره ، وقال له انه رآه فى المنام يجلس فوق مقعد مرتفع وقد ارتدى ملابس خضراء ، فنهره الشيخ وقال له انها أضغاث أحلام ، وقال أحد الذين يسمعون الراوى ولعله كان طاهيا فى بيت سعيد باشا حقى أو فى بيت لطيف بك صبرى شقيق الشيخ ، انه لابد أن صاحب الفضيلة كان

يعلم بأن الله سوف ينصره على من يعاديه ، فمثله رجل مكشوف عنه الحجاب ، وأراد يوسف أن يسأل عن معنى أضغاث أحلام وعن معنى مكشوف عنه الحجاب ، ولكنه ما كان يستطيع أن يتكلم وسط هذا الحشد من الكبار وقد سيطر عليهم الانفعال وانطلقوا يتصايحون فيما بينهم مؤكدين ان شيئا خارقا قد حدث ٠

واكتفى يوسف بما سيطر عليه من شعور غامض بأن هذا الشيخ مقرب عند الله سبحانه وتعالى ، وهو ما كانت تردده جدته التى كانت تزور اهل الشيخ وتستشيرهم فى امور صلاتها وزكاتها ، فلما ظهر الشيخ هابطا من سيارته هجمت الجموع تحيط به وتقبل يده ، وتكاثر عليه كثيرون من بينهم من هبطوا من السيارات الأخرى ، سواء الذين يركبونها أو السائقون الذين يقودون السيارات ، واندس يوسف بينهم وحشر نفسه وجاهد متسللا حتى وصل الى الشيخ وقبل يده ، ورأى الشيخ ينظر اليه بعينين طيبتين فيهما رقة وعذوبة ٠

وسأله باسما انت ابن منصور بك ؟ فأجابه فى زهو : نعم يا عمى ، وتمتم الشيخ وهو يمسح بيده على راسه ماشاء الله ، قال له ابوه ، سمعت انك قبلت يد الشيخ ، وانه عرفك ٠٠ ابتسم يوسف وقد ظن انه قد حقق انتصاراً باهرا يعترف به أبوه ، ولكنه فوجىء به يقول له وقد تجهم وجهه ،

انه رجل صالح ، ولكن ابنى لا يقبل يد أحد ، تقبيل اليد للخدم ، أبوك لا يقبل يد أحد مهما كان ٠٠ لا ملك ولا امبراطور ، نحن أسياد ثم أردف أبوه قائلا ٠٠ هل رأيتنى اقبل يد جدك عندما يأتى لزيارتنا أو نذهب الى الأسكندرية لزيارته ، انه كان يفتك بى ٠٠ هل قبلت أنت يدى يوما من الأيام ، ما كنت أسمح لك بهذا ، لأن تقبيل اليد هى عادة من عادات العبيد ، ومد أبوه يده وقرصه من أذنه فتألم وشعر بسخونة فى اذنه وخده ، ومازال يشعر بها كلما تذكر هذا المشهد ٠

وخاف بعد أن وبخه أبوه أن يسمع جده بما فعله ٠٠ لا لأنه كان يرهبه كما يرهب أباه ، أو يتوقع أن يفتك به كما يقول أبوه ، بل لأنه لا يحتمل أن يتكدر جده أو يغضب منه لأى سبب من الأسباب فيحرمه من تلك الجلسات الطويلة معه وهو يحكى له القصص عن المعارك التى خاضها والجنود الذين قادهم فى بلاد بعيدة يحاصرون القلاع ويقتحمون أسوارها العالية ، كان يجلس عند قدمى جده فى بيته بالاسكندرية ، ذلك البيت الذى له برج يشبه البرج فى بيتنا بجاردن سيتى ، وله حديقة تتوسطها نافورة يلعب فيها السمك الأحمر ، وكانت الحجرة التى يجلس فيها جده عالية الجدران ، علقت عليها سيوف ودروع وحراب ، وصور لجده بملابسه المزركشة المزدانة بالنياشين والأوسمة على

صدره ، وطربوشه طويل طويل ، وشارباه مبرومان ، وعيناه تبرقان ، تجعله وهو يشاهد صورة جده يشد قامته ويرفع رأسه وقد امتلأ زهوا وقوة ، يقول لنفسه : ها هو يوسف باشا منصور ، وأنا يوسف منصور ، أنا وجدى انسان واحد ، وكان جده يجلس على المقعد الأسيوطى ذى المسند الذى يتحرك الى الأمام والخلف بتحريك قضيب من النحاس خلفه ، وكان معجبا بهذا المقعد ، وقد استطاع ذات مرة أن ينتهز الفرصة ويسحب القضيب النحاسى من خلف المسند وأخفاه وانتظر حتى جلس جده وأسند ظهره ، فسقط المسند ، ووقف جده مندهشا مما حدث ، فلما رآه يضحك أدرك على الفور انها فعلته فهجم عليه باسما متوعدا مهددا ، فجرى ضاحكا فى الحجرة ، وجرى جده خلفه ، فاختفى وراء أريكة وتسلل تحتها ، فهبط جده على الأرض وزحف وراءه وأمسك به ، وضحكا واحتضنه جده ، يا عفريت أين أخفيت القضيب ·

فلما أعاد له القضيب جلس وجذب يوسف الى حجره ، وقد تحول الى رجل آخر غير الجد الذى ينظر اليه فى الصور المعلقة على الجدران ، صور كلها جده ، وكلها لها حكايات يرويها له ، وأحيانا يمسك بعصا ·· السجاد تحت قدميه أنهارا وهمية وجبالا وقلاعا يشير اليها ويصفها فيتخيلها يوسف ·· هذا جبل فى الحبشة ، هذا نهر فى المكسيك هذه غابة فى السودان ، ويتحدث جده

عن رجال يأكلون لحوم البشر ، ويروى عن نيران تندلع وقذائف تنطلق ، ويتحمس فيهتف بصوت أجش وهو يصدر الأوامر بالهجوم على قلعة واطلاق القذائف ويقلد صوت القنابل وهى تنفجر ·· بوم ·· بوم ·· بوم ·· ويتحمس يوسف ، ويتشقلب على الأرض ، ويسمع جده يصيح فيه يا ولد يا (خنزءور) ، كان جده وحده هو الذى يردد هذه الكلمة ، ويمنحه لقب (خنزءور) الذى لايعرف معناه ، ولكنها كانت تملأه بالنشوة والمرح والانطلاق فهو سعيد ، كله حيوية وشقاوة وعفرته ، كله مرح وتفتح ·· انه (خنزءور) ويطلب من جده أن يصعد فوق مقعد لينزع من الحائط سيفا أو حربة أو درعا ليواصل الحرب بسلاح حقيقى ، ويرفض جده ويدرك أن هذه الأشياء لا تمس ولابد من المحافظة عليها ، فيسأل جده اذا كان سيحتاج الى هذه الأسلحة فى حرب أخرى ، فيهز رأسه ناظرا اليه نظرة غريبة تقلقه ، ويزيد من قلقه أن جده يمد يده ويمسح بكفه على شعره فى حنان ، قائلا بصوت مفعم بالأسى أن هذه الأسلحة أصبحت للزينة ·· وانها لا تصلح للحرب ·· فيسأله وأين الأسلحة التى تصلح للحرب الآن ، فيقول له انها مع الانجليز وحدهم ، فيسأله يوسف وهذا هو السبب فى أنك أرسلت أبى الى انجلترا ·· فيقول جده ، ارسلت أباك الى انجلترا ليتعلم منهم لأنهم يحكمون العالم ·· وهم أصحاب الكلمة ·· وكان جده هو الذى حدثه عن هوجة عرابى ·

كان فى السراى مع الخديو توفيق ، والضباط الفلاحون خانوا الخديو وتركوه وحده ولكنه لم يترك الخديو وذهب معه الى مركب كبيرة بها مدافع ضخمة صنعها الانجليز ، وضربوا الخونة بالمدافع ، وبعد ان انتهت الهوجة قال له الخديو ، ماذا تطلب يا يوسف باشا منصور سالم ، قال للخديو :

أنا لا أطلب الا أن أكون بجوار أفندينا ·

فابتهج الخديو بهذا الرد وقال عفارم ، وأعطاه أرضا فى البحيرة وأمره أن يكون حاكما لرشيد ·

وهناك رأى الصبية أمينة عند شاطىء البحر ·· قمر شعرها أصفر عيناها فيروزتان ·· قال أتزوجها فتزوجها ·· كانت أم أبيه ولم تنجب سواه ·· كان أشقاء أبيه الذين يقولون انهم أعمامه من أمهات غير أمينه أم منصور ·

ولقد عرف الأعمام عندما اختفى أبوه ·· قالوا ان جده لا يستطيع الحضور الى القاهرة ، وذهب مع أمه وشقيقته كريمة الى الأسكندرية ، وقضوا مع جده أياما ، وكان صامتا لا يروى قصصا ، ولا يناديه بالولد الخنزعور ، وكانت أمه تبكى بلا انقطاع ، ثم جاء يوم قررت فيه أن تعود الى القاهرة ·

ولما دخل على جده ، كان صامتا لا يتكلم وقد رقد على السرير ، واكتفى بأن يحرك يده ويمسح بها على شعره ··

وعادوا الى القاهرة وسمع أمه تتحدث مع أمها وصاحباتها عن الميراث ·· وهن يرددن ·· هذا ظلم ·· ظلم ·· ظلم ·· ولم يفهم ما الذى كن يعنيه بقولهن ان الله لا يرضى بهذا الظلم ·

وترددت أمه مع جدته على بيت الشيخ عبد السلام صبرى ، وسمع جدته تقول بعد عودتها من الزيارة ان كلام الشيخ قد أكد لها أن الأولاد لا يرثون جدهم فالأعمام يحجبون الأحفاد ·· وقالت أمه ان الشيخ كان فأسيا فى اجابته ، وانه قال ان الحل الوحيد أن يوصى الجد بنصيب ابنه فى الميراث لحفيديه يوسف وكريمة ·· وانه لم يذكر شيئا عن نصيبها هى ·· وشعر يوسف أن خطأ ما قد وقع وأصابهم ، جاء النبأ الذى كانت تنتظره أمه واجفة ، لحق الجد بأبيهم ، وذهبوا الى البيت الكبير فى الأسكندرية ، النافورة بلا ماء ولا سمك ، وأمه تصرخ صرخات غريبة ، تتشاجر من الأعمام ، تمسك بتلابيبهم ·· تشد شعرها ·· وتحدثوا عن وصية ليوسف ببعض نصيب أبيه ، لا ذكر فيها لكريمة ولا أمها ·· اتهامات بالسرقة وبأكل أموال اليتامى ، جاءت أيام الحقد ، والدم يفور فى رأسه ، عيناه تتألمان ، ولن ينزاح الألم الا برؤية اعمامه أشلاء متناثرة ·· هم وأولادهم وزوجاتهم ·· اللصوص ·· الشياطين ·· أهل جهنم ·· وعبرت أمه الشارع الى بيت الشيخ ، وأكثرت من عبورها ، وسمع كلمات الشرع والفتوى والمحكمة والمحامى والمستندات ، وظهر مع

هذه الكلمات لطيف بك صبرى شقيق الشيخ ، كان بيته مغلقا أغلب الوقت لأنه وزير مفوض فى الخارج .

وكان يعود لفترات قليلة فيلفت الأنظار بسيارته المكشوفة كان وسيما وتذكر يوسف أن أباه كان معجبا به ، اذ كان يثنى على ثقافته واجادته للغتين الفرنسية والانجليزية ، وقال له أبوه ذات مرة وهو يراجع معه دروسه فى اللغة الانجليزية : ان مدرستك هى أحسن مدرسة انجليزية فى البلد .. والمدرسون الذين يدرسون لك كلهم من الانجليز وأبوك تعلم الانجليزية فى اكسفورد .. ومع ذلك تزعجنى بهذا النطق الردىء .. انى أسمعك فلا أصدق أن هذا هو النطق الذى يصدر عن ابنى .. من أين أتيت بهذا التطجين .. هل تختلط بفلاحين ..هل فى مدرستك أولاد فلاحين .. انى أعرف بعضهم .. حتى فى أيامنا كان هناك فلاحون يرسلون أولادهم الى المدارس الأجنبية .. ولكنهم كانوا يتأثرون بنا .. ويقلدوننا .. لا نتأثر نحن بهم ونقلدهم .

ثم قال أبوه : ألم تسمع لطيف بك صبرى وهو يتحدث الانجليزية .. انه ابن شيخ وعائلته كلها مشايخ .. ومع ذلك يتكلم الانجليزية كأنه لورد ابن لورد .. ولا ينطقها مثلك كأولاد الغجر .

عندما رأى لطيف صبرى يتردد على البيت ، توقع المعجزة ، لقد كلفه شقيقه الشيخ أن يتولى شئون قضيتهم مع

المحامى .. وكان يحمل معه أوراقا ، ويناقش نص الوصية التى تركها الجد مع أمه فى حضوره ، ويناديها .. يا هانم .. وكان يحدثه عن أبيه ، وذات يوم دخل البيت ، وسبق يوسف أمه ، وجلس معه وحدهما وفجأة مد لطيف صبرى أصبعه وتحسس أنف يوسف ، وقال له باسما : ان أنفه مشقوق .. وأن هذا يعنى أنه قد بلغ ، فاحمر وجهه .

فقال له لطيف صبرى :

ان والده كان رجلا يفهم الدنيا ، وانه كان سينصحه عند بلوغه بأمور لا حياء فيها ، سوف يحذره من العادة السيئة ، وقال باسما : انت تفهم ماذا أعنى .. وكان يعرف ماذايعنيه، فمثل هذه الأمور هى حديثهم اليومى فى المدرسة ، ومع ذلك احتفظ بوجه جامد ، فبدت الدهشة على لطيف صبرى ، وحذره منها ، ونصحه بأن يقرأ ، وأن يلعب التنس ، وان يشغل نفسه بأى شىء حتى يحافظ على صحته ، وقال له : لا تفرط فى قواك والا ندمت بعد ذلك عندما تكبر وتتزوج .. كان يتحدث همسا .. اذ كان يتوقع دخول الهانم فى أية لحظة ، فلما دخلت أمه .. لاحظ أن لطيف صبرى كان هو الذى ارتبك واحمر وجهه ، أو هكذا خيل اليه .

ولم يسترح لكل ما قاله لطيف صبرى عن أبيه ، كان يتحدث عن شهامته وكرمه وانه مثال نادر للجنتلمان الحقيقى .. وقال ضاحكا : انه كان فى شبابه ساحرا للفتيات

الانجليزيات ، ولكنه رفض أن يتزوج انجليزية رغم أنه كان يستطيع أن يتزوج بنتا من عائلة كبيرة ، كانت على استعداد لأن تهجر عائلتها وتأتى معه الى مصر ، ثم قال ان أباه لم يكمل دراسته فى اكسفورد ، وهذا النبأ ضايق يوسف ، وظن بعض الوقت أن لطيف صبرى يكذب ·· خاصة وانه قال ان أباه كان حاد الذكاء ·· ولو كان أكمل دراسته لأصبح أستاذا فى الجامعة أو صاحب منصب كبير فى الدولة ·

ولكن منصور بك كان يرفض العمل ، وهو معذور لأن أباه كان يحبه ويغدق عليه المال ، فعاش الدنيا بالطول وبالعرض
خيل الى يوسف وهو يسمع هذه الكلمات أن لطيف صبرى يلوم والده ، وانه يريد أن يلقى فى روعة بطريقة ملتوية ان أباه قد أخطأ وأنه لم يتحمل مسئولياته فقد كان مدللا ، واشتد الضيق بيوسف عندما وجد خواطره تنساق فى هذا التيار الذى يقوده اليه لطيف صبرى ·

كان فى قرارة نفسه يلوم والده على اختفائه الذى جلب عليهم هذه الأحزان وما تجره فى أذيالها من هموم ومشاكل وتدخل غرباء عن البيت فى شئونه ، تلجأ اليهم أمه ، وتسألهم المساعدة والمشورة ·

وكان يذكر والده وهو يدافع عن البيت ضد الثعابين ويأمر عم محمود بسد الشقوق ، ويذكر عصا فاطمة هانم ، تلك العصا التى أهداها لها أبوه ، وهى تلوح بها وتسأله ان

يحافظ على سمعة والده وبيته ، ما الذى يجعل أباه يذهب ويختفى عن هذه الدنيا تاركا عصاه لسيدة غريبة عن البيت ·
انها نفس تلك العصا التى كان يمسك بها يوما ما فى الحديقة ويشير الى شقوق الثعابين ، انه يشعر بالأخطار تحاصره ولا يدرى ما هى على وجه التحديد ، ولا يدرى كيف يحاربها ، وها هو لطيف صبرى يتنهد قائلا فى آسى ·· ان منصور بك لم يتوقع أبدا أن يرثه أبوه ·· فوجىء يوسف بهذه الملاحظة وتذكر على الفور الأسلحة التى كان جده يعلقها على جدران بيته فى محرم بك ، حارب بها فى زمانه ، ولكنه قال انها أصبحت أسلحة زينة · لم تعد تصلح للحرب ، والانجليز وحدهم الذين يملكون الأسلحة التى تصلح للحرب الآن ، ولكن اباه ذهب الى بلاد الانجليز ولم يكمل تعليمه ، ولم يحضر معه اسلحة يحارب بها ثم يعلقها على الجدران ، والجد نفسه قد ذهب · وذهبت معه أسلحة الزينة التى تخاطفها الأعمام ··
وكان لطيف صبرى يواصل حديثه باسما وهو يردد لدهشة يوسف كلمات بالانجليزية ، ترجمها الى العربية بعد أن قال انها كلمات رجل يونانى عاش منذ قرون بعيدة ، قال ان الأولاد المهذبين لا يتقدمون أباءهم فى الغياب عن هذه الدنيا ، فيضطر الأب الى أن يسير خلف ابنه وهو يودعه الى مثواه الأخير ، وضحك لطيف صبرى وكأنه قال دعابة ظريفة ، ثم علق على كلامه قائلا انه لا يصدق أن جنتلمان مثل منصور بك قد ارتكب هذه الجليطة فى حق أبيه ·· وابتسمت أم يوسف · فزادت

ابتسامة لطيف صبرى ، بينما كان يوسف يرى أباه صباح ذلك اليوم ، أول أيام العيد الكبير ، وهو يضحك ويأكل اللحم المسلوق ويعلن فى مرح أن الفت ساخن ولسع لسانه ٠٠ ثم يرى أباه ظهر نفس اليوم وهو يهبط من الباكار وقد أسرع الأسطى ابراهيم يسانده ، وجرى يوسف الى أبيه مرتديا ملابس العيد ملوحا بمسدس حاول أباه أن يثنيه عن شرائه لأنه كبير ، ولم يفهم ما الذى يدعو الأسطى ابراهيم الى الامساك بذراع والده ، يكاد ينحنى تحته ليساعده على الحركة ٠

وكان أبوه صامتا شاحبا ، لا يتكلم ، ودخل الأسطى ابراهيم مع أبيه حتى حجرة النوم ، وهو يقول ليوسف نادى على الست ٠٠ ويوسف لا يهتم بطلبه ، كل همه أن يتابع هذا المشهد العجيب الذى يحدث أمامه ٠٠ ورأى أباه يحاول أن يخلع سترته ، ثم رآه ينهار مكوما على السرير ، وخيل اليه أن أباه يداعبه ، وأنه يريد أن يتصنع السقوط لأن يوسف أطلق عليه المسدس ٠٠ كان المسدس فى يده وكاد أن يبتسم ، لولا أن لطم ابراهيم وجهه بكلتا يديه ، صارخا ، وجاءت أمه وصرخت ٠٠ وانطلق الصراخ ٠٠ والعويل ولطم الجميع الخدود ، ولم يعد يرى أباه ٠٠

انتبه يوسف ويد تهزه بعنف ، وصوت ميرزا الفلكى يهتف :

ـ الا تسمعنى ٠٠ أقول لك ان صحتك تبدو اليوم أحسن ٠

نظر يوسف حوله ، فبهره ضوء الشمس ، وخفض عينيه

فرأى ظلين يلاحقانهما وقال لنفسه فى ذهول : هذا ظلى ٠٠ وهذا ظل ميرزا ٠٠ كان ظله ينحرف أمامه الى اليمين ، وميرزا يسير الى يمينه قدماه تطاردان ظل يوسف ، الذى حاول أن يتحرك بسرعة خشية أن تدوس قدما ميرزا ظله ، وسأل نفسه فى اندفاعه ، أين أنا ، ورفع رأسه ليتبين أنهما متجهان الى أرض الكروكيه ٠٠ ودخلا من البوابة المصنوعة من فروع الأشجار ، وسارا فى ممشى من الحصى الملون متجهين الى مبنى صغير عند الملعب الثانى الخالى ، وكان رجال وسيدات يمسكون بالمطارق الخشبية يتحركون هنا وهناك وراء الكرات الخشبية الملونة ٠ لم ينظر اليهم ، كاد يترنح وهو مشغول بحركة قدمى ميرزا توشكان فى أية لحظة أن تدهساه أن تدهسا ظله ، وسمع ميرزا يقول له ٠

ـ نعم يا عزيزى أنا أعرف كل شىء ٠٠ ولقد مضى على ذلك العهد حوالى أربعين عاما ٠٠ ولكنى أذكر الأحداث وكأنها وقعت اليوم ٠٠ هل تصدقنى لو قلت لك : انه لولا تصرفك مع السيدة والدتك كوثر هانم عندما وصلتك تلك القصاصة باسم عصابة اليد السوداء ، لما أقدمت على الزواج من عمك لطيف صبرى ٠

انتفض جسد يوسف ، وقد شعر أن ميرزا الفلكى يقول له انه ارتكب جريمة ٠٠ وكأنه سمع صوت الحوت يقول له : الجريمة نعم ٠٠

سنوات عمره وهو لا يعرف من الذى كتب تلك القصاصة الملعونة وأرسلها له فى مظروف عن طريق البريد · كانت كلمات القصاصة سما ، وموقعة باسم رهيب ·· عصابة اليد السوداء ·

كانت الكلمات تقول « أمك تستقبل لطيف صبرى سرا فى الليل وهو يضاجعها فى الفراش ، وكل الناس عرفت ، وبعضهم سأل أمك عن علاقتها الآثيمة فقالت انها تزوجت سرا زواجا عرفيا ولكنها تكذب ، فامنع هذا الفجور الذى يدنس بيتكم وكن رجلا واغسل العار والفضيحة فى بيت منصور بك سالم ، واذا كنت جبان عاجزا فسوف نضطر للتدخل وأعذر من أنذر » ·

ارتعشت يدا يوسف فتراقصت كلمات القصاصة فى عينيه ، وبذل جهدا خارقا ليعيد قراءتها ، وقلب الورقة ، وقلب المظروف الذى كانت بداخله ، كان الكلام الملعون مكتوبا بقلم كوبيا على ورقة صغيرة مسطرة · خط كبير واضح ، خط ساقل نتن ، ثم ذلك التوقيع الذى ينبىء عن عصابة اجرامية تتهدد وتتوعد وتنذر بالشر ·

وراجع يوسف ختم البريد على المظروف ، انه ختم بريد العتبة الخضراء · أى جنون هذا ، أية وضاعة ، من الذى يجسر على توجيه هذه الطعنة الغادرة اليه ؟ الأرض تميد تحت قدميه ، الدنيا تنتهى ، الحياة تنتهى ، لقد حدث ما لا يمكن أن يحدث · أهين أبوه ، أهينت كريمة شقيقته التى يجب أن يحميها ، أهينت أمه ·· يا الهى ·· أيمكن أن يكون هذا صحيحا ؟ ان عينيه تصطدمان بالكلمات ، ولا يصدق أنها كلمات ، ولا يصدق أنه يقظ يعيش فى الواقع · ان هذا الا كابوس ، سوف يفيق منه ، عليه أن يفتح عينيه ، يزفر الهواء بشدة فيستيقظ ، ولكنه لا يحلم · وها هى الورقة بين أصابعه ، وها هى الكلمات تسرى فى رأسه وصدره وأطرافه تحدث طنينا جارفا ، والعرق يتصبب منه ، وهو لا يدرى ماذا يفعل أو كيف يتصرف ، ولابد أن يتحرك من مكانه حيث يقف عند عتبة الباب الداخلى للبيت ·



كان عم محمود قابله باسما عند الباب الخارجى للحديقة ، وهو عائد من كلية الحقوق ·· كان يوما مرحا ، ما أحلى تلك الاسابيع الاولى التى تعرف فيها لاول مرة على الدراسة الجامعية ، حرية دخول المحاضرات والخروج منها ، لا سؤال عن المواظبة ، ولا ملاحقة من المدرسين أو من البيت كما كان يحدث فى السنة الماضية وهو يستعد لامتحان التوجيهية

.. وقلق أمه ، ومساعدات لطيف صبرى فى اللغات .. كل هـذا قد انتهى .

الآن .. أصبحت رجلا يا يوسف . أنت مسئول عن نفسك وعن دراستك .. الأساتذة فى الكلية يرددون نفس الكلام . لقد بدأ ينعم بالحرية ، بدأ يتمتع باستقلال ارادته . ولقد قضى هذا الصباح يتحدث مع زميله طلعت عن مغامرته مع السكان اليهود الجدد فى عمارتهم بالجيزة ، وفى المساء سوف يذهب مع طلعت الى سينما رويال . وها هو عم محمود يفاجئه بأن خطابا باسمه قد جاء به ساعى البريد . انه أول خطاب خاص يصل اليه . أليس هذا دليلا على أنه قد كبر ، ان عم محمود يدرك تماما هذا المعنى ، فهو يسلمه الخطاب وفى نفس اللحظة يكتسب وجهه علامات تأثر واضحة فى عينيه وفى صوته .



وقد انتقل هذا التأثر الى يوسف ، ولكنه يشعر فى نفس الوقت بشىء من الزهو لان الناس خارج هذا البيت يعترفون بوجوده ، ويسلمون بأن له كيانه المستقل ويتعاملون معه مباشرة مؤكدين أنه أخذ مكان أبيه .. ولم يفعلوا مثلما تفعل المحكمة الشرعية أو المجلس الحسبى الذى يرسل الخطابات الخاصة به الى أمه الوصية عليه .

ان هذا الخطاب الذى قدمه له عم محمود هو شهادة من الناس ومن المجتمع بأنه رجل له أهميته فما أعظم هذا الشعور الذى يجتاحه ، حتى أنه أوشك أن يفض الخطاب فى الحال امام عم محمود ، ولكنه راجع نفسه ، وقرر أن يتريث ويحتفظ بوقار تقتضيه المناسبة . انه منذ نهرته جارتهم فاطمة هانم يوم رآته جالسا على الدكة بجوار عم محمود وهو يحاول أن يحتفظ بوقاره ، وهو الآن قادر بالفعل على أن يتصرف بوقار وتؤدة . أمسك بالخطاب باذلا كل جهده ليكتم انفعاله وأسرع مبتعدا الى داخل البيت دون أن ينبس بكلمة ، أو يظهر تجاوبا مع تأثر عم محمود بالموقف الجديد الذى طرأ بوصول أول خطاب الى السيد الجديد فى هذا البيت .

ما شأن البواب بالخطابات التى تصل الى سيده . أسرار الأسياد لا يطلع عليها الخدم . كان يتذكر صـورة أبيه ، بل يشـعر به فى أعماقه ، كأن جسده هو ثوب جديد للأب الذى ذهب . وما كاد يصـل الى الباب الداخلى حتى تلفت حوله ليطمئن الى أنه وحده ، وتجاهل أن أباه كان لا يقرأ الخطابات عند عتبة الباب ، بل يفضها فى تؤدة وهدوء وهو جالس الى مقعده بجوار المكتبة مستعينا بسـكين ذهبى خاص يفتح به المظروف . انه يخشى أن يمضى الى الداخل فترى أمه الخطاب فى يده فتأخذه منه وتفضه هى وتقرأه ، فيفقد متعة الانفراد بقراءة الخطاب الشخصى الموجه اليه . ويفقد متعة أن يعلن

أمه أن خطابا قد وصله · فتسأله بلهفة ممن الخطاب · وماذا به · فيتريث قليلا ، ليرقب اللهفة على وجهها ، قبل أن يدلى بالمعلومات التى يمتلكها وحده · أية متعة · أية سلطة تنعم بها وأنت تدلى بما لديك من معلومات للهوف لسماعها ·

مزق طرف المظروف بعصبية ولهفة وأخرج بأصابعه القصاصة · أخرج الثعبان الذى لدغه بالكلمات السامة · وانهارت الدنيا من حوله ، ومن فوقه ومن تحته · وبقدر ما كان مزهوا متألقا منتشيا ، بقدر ما انقض عليه فزع كبير ، زلزل كيانه ، أصابه ذعر لم يعرفه من قبل · انكمش وغسله عرق بارد ، ولم ينتبه الى ما يفعله ، حتى وجد نفسه أمام أمه ، طفل صغير يهاجمه وحش مسعور يجرى فزعا مرتعدا الى أمه · بينه وبين صدرها شبر ، عيناه فى عينيها ، يكاد يتوسل اليها أن تحتضنه وتحميه ، لولا هذه الهواجس المخيفة التى تدوى فى رأسه ، ان أمه هى مصدر هذا الفزع وأن عليه أن يخشاها ويحذر ما تخبئه له من مصائب تنذره بها عصابة اليد السوداء ·

انه لا يدرى كيف انتقل الخطاب من يده الى يد أمه · ولا يدرى كيف قرأته ، فقد مرت به لحظات ألم وعذاب عطلت حواسه ، ورفضت ذاكرته أن تعيها ، ولكنه يرى جيدا الآن لون وجه أمه وقد احتقن بدماء داكنة ، وجه شوهه الفزع ، قسماته قاسية ، وجه من الشمع ، أو من الجبس ، انها تصيح لعلها تهمس ، أذناه تسمعان بصعوبة ·

ـ هذا كذب ·· كذب ·

وهو يصيح أو لعله يهمس :

ـ من الذى أرسل هذا الخطاب ؟

لابد أن تجيبه ·· لابد أنها تعرف ·

وهى تردد :

ـ هذه مصيبة ·· لا أدرى ·· لا أدرى ·

خرج صوته فحيحا مختنقا يزفر فى هواء يمزق صدره ·

ـ الناس تقول هذا عنك ·· كيف ·· كيف ··

الدموع فى عينيه · سيبيد الناس ، سيبيدهم كلهم ، سيقضى عليهم واحدا واحدا ، سيتخلص من هذه الدنيا بأسرها · ما عادت الدنيا دنيا ، انه لا يرى ما أمامه ، لأن كل ما أمامه ، كل ما يحتمل أن تقع عليه عيناه ، لابد أن يمحى من الوجود ·

أرادت أن تحتفظ بالخطاب · لماذا · أتريد أن تلجأ الى لطيف صبرى ، أتعطيه الخطاب ليقرأه ، كما أعطته من قبل كل أوراق أبيه ليقرأها ، وليذهب بها الى المحاكم والمجلس الحسبى ويتخذها ذريعة للمجىء والاختلاء بها ، بل لقد اتخذوا منه شخصيا ذريعة للقاء الفاجر · أى عار ، أى

شقاء ، اختطف الورقة من يدها ، لو امتدت يده لأطبقت على عنقها ، لفتك بها ، لم تصر على الاحتفاظ بالخطاب ، ولم يعد يطيق البقاء معها ، فتركها الى حجرته ، أعطاها ظهره وابتعد ، لكنه ما كاد يخطو بعيدا ، حتى تمنى لو تناديه ، أن يسمع صوتها ، أن تعيده اليها ، أن تفرض عليه أمومتها انه يبتعد ليسقط فى فراغ مرعب هى وحدها التى تستطيع أن تسترد له حياته ، أن تفسر له هذه المصيبة أن تقضى على هذه الورقة فتلغيها من الوجود وكأنها لم تكن .

ولم يسمع صوتها تناديه لتسترده الى أحضانها فيدفن رأسه فى صدرها وتحنو عليه ، وتمسح بيدها على شعره ، أيكون قد أصبح من المحال أن يرى تلك البسمة فى عينيها تتدفق بالحنان والدفء من قلبها الى قلبه . أضاع الى الأبد عطرها الذى يشمه فى جسدها فينتشى براحة تتمدد فى أوصاله ، فكأنه يتمدد فى رحاب الدنيا الرحيبة بينه وبينها عمار ودفء . ولكنه يبتعد ويبتعد وأحشاؤه تتمزق مع كل خطوة يبتعد فيها عن أمه . ووقف ذاهلا فى حجرته . يده قابضة على الورقة والمظروف . الشهادة التى تسجل أنه وحيد فى هذا العالم . المجتمع ينكر وجوده ، يهزأ به ، يسحقه بلا رحمة أو شفقة . أين أبوه ، أين جده ، صرخت أعماقه ، أين اختفيت يا أبى ، لقد خدعتنى ، عشت حياتك تخدعنى بأوامرك وتعاليمك ألا يخرج صوت من البيت ،

الا يطل أحد من نافذة البيت . ألا يعرف أحد ما يجرى داخل البيت ، لقد خدعتنى بلؤلؤتك المزيفة ، هذا البيت وهذه الجيرة ، وهذا الشارع ، وكل ما حولنا يفوح برائحة نتنة ، الكون قد اختفيت لأنك اكتشفت هذه الحقائق البشعة فلم تتحمل الأكذوبة التى صنعتها ، ولكنك فررت ، وكان يجب عليك أن تنبهنى ، لا أن تتخلى عنى ، وتتركنى أواجه المصيبة وحدى .

ها هى زوجتك تضاجع لطيف صبرى فى سريرك أمام عيون كل الناس . نقلوا حجرة نومك الى الشارع ، كيف أخرج الى الشارع ، كيف ألحق بطلعت فى السينما . لابد أن أمى ترحب بذهابى الى السينما ليخلو لها المكان . أترك البيت ليدخل لطيف صبرى . ترى هل تعرف كريمة ما يحدث ، هل ارتابت فى الجريمة . أهى مثل امها تتكتم عليها . أيقول لها ثم يأخذها ويهربان من هذا البيت . يهربان الى أين ، انه محاصر ، وكل من يفكر فى اللجوء اليه ، قد ذهب ، انه يتذكر الآن نظرة القلق فى عينى جده وهو يقول له ان سيوفه وحرابه ودروعه لا تصلح للقتال وأنها مجرد أدوات زينة معلقة على الجدران . لعله كان يحذره بطريق غير مباشر أن الدنيا تدبر له الخيانة ، وستهاجمه فى عقر داره وهو بلا سلاح يدافع به عن نفسه . لابد أن يفعل شيئا يدافع عن شرفه ، لابد أن يحسم هذا الأمر ويقضى على هذا الكابوس الكئيب .

ظل يوسف حبيس حجرته لا يدرى كم من الوقت قد مضى عليه ، حتى دخلت عليه أمه تسأله وكأن شيئا لم يحدث ، اذا كان قد نسى موعد الذهاب الى السينما · انتفض مستريبا من دعوتها له للخروج ولكنه لم يقو على الغضب أو الاحتجاج · كان يشعر بضعف مسيطر عليه ، وهمس أنه متعب · فاقتربت منه ومدت يدها تتحسس جبينه ارتجف وسمعها تقول بلا مقدمات وكأنها تستأنف حديثا قديما : ان أولاد الحرام فى هذه الدنيا كثيرون ، وأن عليه أن يتجاهل هذا الخطاب ، فلا شىء يفسد ما يريده أولاد الحرام مثل تجاهل أفعالهم الشريرة · استسلم لها ، كان ارهاقه وعجزه يفرضان عليه هذا الاستسلام لأنها الوحيدة التى تستطيع أن تحميه من هذه الأخطار الغامضة التى تتهدده ·

وانساق وراءها الى الصالة ، وجلس ومعهما كريمة يستمعون الى الراديو · هتلر يستعد لاقتحام خط ماجينو ، ها هو الدمار يتجمع لينقض على العالم · ليته يحترق ويحترق الذين أرسلوا هذا الخطاب · ولكن الحرب هى التى جعلت صبرى يمد اقامته فى القاهرة ، لولا الحرب لكان سفيرا الآن فى مكان بعيد ، اختفى أبوه وجاء لطيف صبرى ونشبت الحرب ، هذه هى الحقائق التى عليه أن يواجهها الآن برؤية جديدة · انه يعيد فهم ما كان يدور بين أمه ولطيف صبرى ، ويعيد فهم حديث أبيه عن الاستقرار ، كان أبوه لا يهتز امام

احداث تجرى وكأنها الحرب · انه يذكر عندما تعطلت الدراسة بسبب المظاهرات التى انتشرت فى كل مكان ، وانقلبت عربات الترام فى الشوارع وتحطمت فوانيس النور ، واشتعل الغاز فيها ، فأصبحت أعمدة النور مردة تقذف اللهب على جانبى شارع قصر العينى ، وسمعوا طلقات الرصاص ، وتحدث عم محمود عن قتلى بالعشرات ينقلونهم الى قصر العينى · واذا بأبيه قد ارتدى ملابسه وأمسك بعصاه يعلن أنه ذاهب الى النادى ، راقب أمه خائفة تعترض طريق أباه · كيف تخرج والرصاص فى الشوارع ، ولكن أباه كان ممتلئا بثقة هائلة ، ملأت قلب يوسف بنشوة واعجاب ·

خرج وسط الرصاص الطائش والحطام وألسنة النار ثابت الجنان ، لا يخاف شيئا · واثقا من خطواته وكلماته وأوامره · انه رجل يعرف أن الرجل يجب أن يكون رجلا والمرأة يجب أن تكون امرأة ، والطفل طفلا والسيد سيدا والخادم خادما · هذه الذكريات التى علمته الثقة ، كانت تهاجمها الأم عندما تحتاج الى نقود فتقول له أو لعلها تخاطب نفسها : ان أباه كان يلعب بالمال لعبا ، وانه كان يخسر عشرات الجنيهات فى لعب الطاولة أو على مائدة الورق وكأنه يخسر الملاليم ·

وكانت أمه تردد فى أسى أمام لطيف صبرى ، آه لو كان يعرف أنى سأحتاج الى النقود التى بعثرها ولكنه الآن

لا يعرف • ويؤيدها لطيف صبرى ، مهيئا لنفسه ولها مبررات الخيانة والاثم •

سوف تقضى الحرب على كل هذا ، سيدمركم هتلر • ولن تجدوا ملجأ يأويكم وتحتمون به كما فعل جدى عندما لجأ مع الخديو توفيق الى الانجليز ، الذى خشى على نفسه من هوجة الرعاع • هتلر سوف يتولى أمر العالم ، أما يوسف فعليه أن يتولى أمر لطيف صبرى الذى أرسله شقيقه الشيخ الأكبر باسم المروءة وواجب الجيرة والشهامة فاذا به يتسلل الى البيت ثعبانا ناعما خبيثا لا منجاة منه ومن شروره وسمومه ، الا بدق عنقه كما فعل عم محمود عندما قضى على الثعبان فى الحديقة بقبقاب انتزعه من قدمه •

وانفجر فى رأس يوسف خاطر أقلقه • أليس ما كان يتحدث عنه طلعت فى الصباح عن بنات الأسرة اليهودية جيرانهم الجدد ، وكان يستمع اليه مرحبا مشجعا هو نفس ما يفعله لطيف صبرى الجار مع أمه •

فى الصباح كان طلعت فى ذروة حماسه وهو يروى ليوسف أخبار العائلة اليهودية التى سكنت فجأة فى شقة مهجورة من حجرتين وصالة بسطح عمارتهم فى الجيزة ، كانوا فى الاسكندرية ، ولكنهم خائفون من هتلر ، انهم فزعون قلقون • يتنبأون بأحداث رهيبة يتوقعون سقوط فرنسا بمجرد هجوم هتلر عليها •

يروون قصة غريبة أن هتلر يحرق اليهود فى أفران • يستبقون الأحداث وأسرعوا بالمجىء الى القاهرة لأنهم واثقون أن الاسكندرية ستضرب بالقنابل وسيحاول موسولينى دخولها راكبا حصانه الأبيض • أن هتلر وموسولينى يحاربان من أجل ابادة اليهود واستئصالهم من العالم • كان طلعت يضحك مبديا دهشته من الحالة الهستيرية التى انتقل بها الخواجة ليفى اسكنازى وزوجته سيدة بدينة قصيرة طيبة اسمها فورتينيه ، مريضة بالقلب ، تخشى تعطل المصعد هى الوحيدة التى يبدو عليها التردد لأنها تركت بيتها فى كامب شيزار ، ويضايقها أنهم يصرون على أنها السبب الأول فى مجيئهم الى القاهرة ـ لأنها لن تتحمل أصوات القنابل وانفجاراتها •• المهم أن للأسرة بنتين وولدا • البنتان فى منتهى الجمال ، ويبدو أنه لا مانع عند البنتين من قبول دعوة الى السينما •

قال طلعت وهو يفضى بهذه الأنباء الخطيرة ليوسف : انه سألهما أن تأتيا معه لمشاهدة فيلم بسينما رويال ، وأن له صديقا ليخرج الأربعة « كوبلين » فاعتذرتا بانشغالهما بترتيب البيت ، ولكنهما ألحتا فى تأكيد قبولهما بكل سرور الدعوة الى الخروج فى يوم آخر •

وكانت السيدة فورتينيه الأم فى غاية السعادة لأن طلعت دعا البنتين ، ورحب كلود وهو أصغر من البنتين بالدعوة الموجهة لشقيقتيه ولم يبد أى اعتراض أو رغبة فى أن يكون

فى صحبة شقيقتيه لمراقبة سلوكهما • وقالت السيدة فورتينيه انها كانت قلقة لأن البنتين غريبتان عن القاهرة وأصدقاؤهما فى الاسكندرية ، وقال الخواجة ليفى لطلعت انه يرحب به فى بيته ولما سمعت أم طلعت هذه الحكايات المثيرة عن الجيران الجدد ، بدا عليها القلق ، وأعلنت بوضوح أنها تخشى ألا يهتم طلعت بالمذاكرة ، ويوجه اهتمامه الى البنتين ، ولكنها فوجئت بهما تدخلان عليها وبعد دقائق كانت تضحك معهما وتحدثهما عن بناتها المتزوجات فلما استأذنتا فى الانصراف صممت على أن تصعد ومعهما سلة مليئة بثمار المانجو جاء بها والده عند عودته من العزبة فى قليوب •

هذا هو ما كان فى الصباح ، كانت الحرب مجرد فرصة للتعرف بفتاتين جميلتين وطلعت ويوسف منشغلان بهذه الصحبة الجديدة ، طلعت يقول أنا سأختار « البا » الكبرى ، وأنت لك « جابى » وعاد يوسف وهو يحلم بجابى التى لم يرها • السينما مع جابى اسكنازى ، الرقص فى جروبى سليمان باشا مع جابى اسكنازى • وعند بوابة البيت أعطاه عم محمود الخطاب الذى جعله يمتلىء نشوة وزهوا للحظات قصار ، ثم انهارت الأحلام وفاحت رائحة الواقع النتن • ولم تبق له من أمنيات الا الحرب ، وأن يدمر هتلر كل شىء حتى لو كان سيحرق جابى اسكنازى ويحرق معها كل يهود العالم بشرط أن يضيف الى هذا الحريق بقية البشر فتنتهى الدنيا ويستريح •

لم ينم يوسف ، سهر الليل بطوله يراقب من خلف شيش النافذة بيت لطيف صبرى والشارع بينهما ورآه يعود فى سيارته الفورد الزرقاء ، يدلف بها الى جراج البيت داخل الحديقة • ولمح شبحه وهو يختفى فخيل اليه أن لصا يتسلل الى بيت غير بيته وفاضت به كراهية تكاد تنفجر من فمه وشفتيه وأهداب عينيه وأنفه • لابد أن يلتقى به ويقتله • فلما جاء الصباح لم يذهب الى كلية الحقوق • ما قيمة دراسة المدخل الى القانون ، والقانون الرومانى والاقتصاد السياسى ، اذا سكت على الجريمة ورضخ لها • اخترق شارع قصر العينى واقتحم مبنى وزارة الأشغال ، واقتحم مكتب سكرتير وكيل الوزارة ، وقال بكبرياء وحدة للسكرتير الذى يتأمله فى فضول •

ـ قل للبك •• يوسف منصور يريد مقابلتك •

لم يغب عنه ملاحظة أن السكرتير يتأمله فى دهشة وحيرة وهو يسأله :

ـ أيعرفك البك الوكيل ؟

قال يوسف بصلف :

ـ طبعا يعرفنى •

كان لهذا الصلف تأثيره على السكرتير الذى بذل محاولة اخيرة ليعرف المزيد عن هذا الشاب الصغير الذى يريد مقابلة

وكيل الوزارة ، وكأنه واثق أن سعادة البك لن يتردد فى مقابلته كزائر له أهميته ونفوذه ·

ـ حضرتك قريب للبك ؟

قال يوسف بكبرياء ينم عن غضب يسيطر عليه :

ـ أنا ·· ابن منصور بك سالم ·· يكفى أن تذكر له اسمى ·

نهض السكرتير ودخل حجرة الوكيل · وعاد ليسمح بدخول يوسف فورا ·

ابتسامة ترحيب على وجه لطيف صبرى · ضباب فى عينى يوسف ، حقد مسعور فى صدره فى يديه تمنى لو كان أطول قامة وأكبر سنا ، تقدم من المكتب ، الدهشة على وجه لطيف صبرى وهو يرى القادم يدور حول المكتب ظن أنه مقبل عليه ليعانقه فاذا بيوسف يهجم على رقبته بكلتا يديه يريد خنقه ، دفعه لطيف صبرى بكلتا يديه ولكن يوسف استطاع أن يتشبث برقبة الرجل الذى احتقن وجهه وقد امتلأت عيناه رعبا وارتعشت شفتاه ، يتمتم بكلمات لا يسمعها يوسف ، الذى يهز الرقبة وقد انفجرت الكلمات والدموع من فمه وعينيه · ماذا تريد من أمى ·· سوف أقتلك ·· اياك أن تتصل بها ·· هل تسمعنى ·· سوف أقتلك ·

لطيف صبرى يهمس بصوت رتيب ، اهدأ ·· اهدأ يا يوسف ·· اهدأ ·· نحن فى الوزارة ·· أنت رجل ·· لا تتهور ··

اهدأ ·· اللهم أخزيك يا شيطان ·· ماذا تريد ؟! · تريد قتلى ·· هكذا ببساطة ·· هل تظن أن كل شىء مباح ·· لا شرطة ولا سجون · كانت يدا يوسف تتراخيان ، عجز عن اتمام ما شرع فيه هد الانفعال والبكاء قواه · بينما تزايدت قوى لطيف صبرى ، وارتسم الغضب على وجهه · وانطلق يهدد · ولكنه هدأ فجأة وقال : أتريد قتلى ·· تفضل ·· ماذا أقول لك ·· أنت ابنى ·· صاح يوسف ·· لا لست ابنك ·· أنا ابن منصور سالم ·· أعرف ·· أعرف يا يوسف ·· أرجوك اهدأ ·· دعنى أفهم ·· لا يمكن أن تكون قد جننت ·· ألقى يوسف بالورقة فى وجهه ·· أمسك بها ، وقرأها فاكفهر وجهه ، وقذف بالورقة بعيدا وارتمى على مقعده ·· وسار خطوتين ·· ثم عاد ودق جرسا ·· وهو ينظر الى الباب فى هلع ·

وظهر السكرتير عند الباب ، وصاح به قبل أن يدخل خطوة واحدة ·· أن يغلق الباب ولا يدع أحدا يدخل تحت أى ظرف · وقف السكرتير مبهوتا ، حتى نهره لطيف صبرى أن يذهب · فأغلق الباب · وتنهد لطيف صبرى وجلس على مقعد أمام مكتبه · وأشار ليوسف أن يجلس أمامه طالبا منه أن يتفضل بالجلوس ·· أنا لا ألومك يا يوسف ·· ولكنى أعود وألومك لأنك نسيت من أنا ·· نسيت من هو أبى ·· ومن هو أخى ·· بل نسيت من هى السيدة الفاضلة والدتك ·· ما تفعله هو

اتهام لا تقبله أنت ولا يقبله أى مخلوق يحترم نفسه ·· تدفق الكلام وتألق لطيف صبرى ، ووجد يوسف نفسه يريد أن يسمع المزيد والمزيد ، لعله يطمئن ، لعله ينجو من الكارثة ، يطرد شبح الفضيحة ·· ينقذ شرف أمه · ينقذ والده ·· ينقذ نفسه · تدفق الكلام ليتأرجح يوسف بين راحة يتمناها ، وريبة فى أنه يغرق فى دوامة من الخداع الناعم ·· ويسمع لطيف صبرى يقول له فى النهاية : الهانم والدتك سيدة عظيمة شريفة وكل صلة بينى وبينها أو بينكم هى صلة خادم يخدمكم ·

ثم عاد لطيف صبرى يبحث عن الورقة التى قذف بها وقرأها بعناية وراجع الظروف وأختام البريد ، وسكت برهة قبل أن يقدم على تحليل الموقف الذى أدى الى وصول هذه الرسالة المشئومة الى يوسف · ألسنة الناس · الخدم · الجيران ·
انه يتعرض لامتحان رهيب واذا كان لا يصدقه · اذا كان يرتاب فى أمره فما عليه الا أن يذهب الى أخيه الشيخ عبد السلام · أنه ليس شقيقى فقط يا يوسف أنه أيضا أبى اذهب اليه ومعك هذا الخطاب واساله رأيه ·

كان الشيخ عبد السلام هو الذى طلب يوسف ، واستقبله وهو راقد فى فراشه · وقال ليوسف انه انتظره اياما فلما لم يحضر وجد أنه لا مفر من أن يطلبه وفوجىء يوسف بالشيخ يقول له بلا مقدمات :

ـ الزواج ليس عيبا يا بنى ·· وهذه الورقة اللعينة التى

تهددنا بالفضيحة · سنرد عليها بورقة حلال ، ورقة شريفة ، تصون كرامتكم وكرامتنا ·

ولقد جاءتنى أمك وتكلمنا فى كل ما أقوله لك الآن · وهى تعرف أنى أقابلك الآن لأبلغك به ·

لحقت به الهزيمة · هاجم الأعداء القلعة أطلقوا المدافع وصوبوا النيران وأسقطوا قنابلهم الناسفة والحارقة واقتحموا الأسوار واستولوا على أمه وبيته · المرأة هى المخلوق الذى لا تثق فيه أبدا حتى لو كان أمك ، الدين هو الأحكام الظالمة والفتاوى التى تسمح للغير أن يغتال بيتك ·

لو عاش أبوه · لو عاش جده · لو استقرت الحياة كما كانت ، لو لم يسرق الأعمام · لو لم تكتب يد نجسة تلك القصاصة مهددة بالفضيحة · ولكن كل شىء فقد استقراره ، والذين كانوا يحافظون عليه ذهبوا وتخلوا عن كل شىء ولم يبق له الا أن يفرح بأحزان أمه ، يقدم لها هدية زواجها كل عام برسوبه فى الامتحان ، ويشفى غليله برؤية الحزن والألم والدموع فى عينيها ، والحيرة والارتباك ، فى أحوال لطيف صبرى الذى أصبح زوجا لأمه ·

صاح ميرزا الفلكي

وهو يقرص يوسف فى ذراعه :

ـ لست معي يا أستاذ ؟

فهمس يوسف مرتبكا :

ـ بالعكس ·· أنا معك بكل جوارحى ·· لأنى أنتظر منك أن تكشف السر الذى أفسد حياتى ·

ابتسم ميرزا ولمعت عيناه وقال :

ـ اجلس أولا ·· وأجبنى على سؤالى :

جلسا عند آخر منضده بالقرب من المبنى الصغير بجوار ملعب الكروكيه الأخير ·· كان الملعب خاليا ، بينما انتشر فى الملعبين الآخرين رجال ونساء أعطاهم يوسف ظهره ، وأعاد ميرزا سؤاله ·

ـ ليمون أم قهوة ؟

همس يوسف :

ـ أى شىء ·

فنادى ميرزا وقد اتجه برأسه الى المبنى على رجل اسمه قلاوون · فبرز من باب المبنى رجل تترى الملامح رأسه ملساء

لولا رقعة صغيرة من الشعر فى مقدمة رأسه ، له عينان ضيقتان وحاجبان مقوسان ، تقدم محنى الرأس يطوح بيديه كأنهما مجدافان فى قارب ، ووقف الرجل أمامهما وقال بصوت بليد يغالبه النعاس :

ـ أفندم ·

فأمره ميرزا أن يطلب لهما كوبين من الليمون ، فنظر اليهما التترى نظرة لم يسترح لها يوسف · لايدرى اذا كانت تدل على بلاهة الرجل أو مكره ، استسلامه أو تحديه ·· وذهب التترى ·· بينما مد ميرزا يده عبر المنضدة وقرص يد يوسف قائلا وقد فاضت الشقاوة من عينيه :



ـ سيطول كلامنا ·

قال يوسف فى احتجاج أقرب الى التوسل :

ـ بشرط الا أتأخر عن اللواء الحوت ·

فاعتدل ميرزا فى جلسته

ثم تقدم برأسه متكئا بذراعيـه على المنضدة ، وحذر يوسف من الاندفاع ٠٠ هل هذا معقول يا أستاذ ، تعتمد على رجـل شرطة لتواجه مسئولية الشـرطة عن القبض على ابنك ٠٠ انت كمن يريد أن ينقـذ نفسـه من النار بالقاء نفسه فى النار ٠٠ ليس هذا هـو الأسـلوب الذى تتحرك به ٠٠ أنت لست قوة ٠٠ حتى تصارع من هم أقوى منك آلاف المرات ٠٠ أبوك نفسه ٠٠ بل جدك ٠٠ كان يعرف أن زمانه قد فات ، أفق يا أستاذ ٠٠ قدر لقدمك قبل الخطو موضعها ٠٠ هل تريد أن تذهب مع الحـوت لتأخذ حقك ٠٠ من أنت ٠٠ ما المصالح الضـخمة التى تمثلهـا ٠٠ هـل تظن أن وراءك قبيلة أو أسرة حاكمة أو شركة دولية ٠٠ أو جهازا من أجهزة السلطة ٠٠ لو كان بامكان انسان بمفرده أن يحصل على حقه فى هذه الدنيا ٠٠ ما كنت أبقى هنا لحظة واحدة ٠

لم يسترح يوسف لما يسمعه ، تململ قبل أن يقاطع ميرزا محاولا تأكيد عزمه على المضى فيما انتواه ٠

– لم يعد هناك ما يدعو الى اعادة النظر فى أمر عودتى مع الحوت ٠٠ لابد أن أبذل كل شىء لأنقذ ابنى من السجن ٠٠ ولقد أصبح هـذا أمرا محتما بعـد أن عرفت ما عرفتـه من الحـوت ٠

قال ميرزا معترضا ٠

– افعل ما تريد ٠٠ ولكنى ادعوك للتريث ٠

قال يوسف محاولا التخلص مما يعتقد أنه جدل عقيم ٠

– أرجوك أن تخبرنى بما تعرفه عن عصابة اليد السوداء ٠٠ من هم ٠٠ ولماذا تقول انى كنت السبب فى زواج أمى ٠

ابتسم ميرزا ابتسامة غريبة وقال :

– اهدأ أولا ٠٠ واشرب الليمون ٠

قال يوسف مغالبا ضيقة بالانتظار ٠

– لا أستطيع أن أهدأ ٠

فاتسعت ابتسامة ميرزا وزادت غرابة وهو يقول :

– لا تفقد أعصابك ٠٠ ولا تتعجل الأمور يا عزيزى ٠٠ فأنا واثق أن ما ستسمعه منى سيجعلك تعيد التفكير فى كل شىء ٠

صاح يوسف :

– صدقنى ٠٠ ليس لدى وقت اضيعه ٠

فتحداه ميرزا قائلا فى حسم :

– الوقت الذى تتعرف فيه على نفسك ٠٠ ليس وقتا ضائعا كل ما أطلبه منك ٠٠ هو بعض الوقت تشرب فيه الليمون ٠٠ وتروق فيه أعصابك ٠٠ ونتكلم كما يتكلم الناس المتحضرون ٠٠ ومع ذلك ٠٠ ها هو الليمون قد أقبل ٠

ورأى يوسف الرجل الأسيوى ذا الوجه الصينى ، يحمل الليمون على صينية ٠٠ وانحنى ووضع أمامهما الليمون ، وانصرف ٠ فأمسك ميرزا بكوبه وقال :

- اشرب واهدأ .. واستمع لما سأرويه لك .. لترى حقيقة الوضع الذى انتهينا اليه .

عرف ميرزا الفلكى أبو يوسف فى مدرسة فيكتوريا بالاسكندرية .. كانت البداية تحديا سافرا بين الاثنين .. ميرزا فلاح ابن فلاح . ينظر الى منصور سالم على أنه من نسل ذلك الجنس غير المعروف ، الذى يعيش كأنه من طينة أخرى غير طينة بقية البشر فى مصر ، يتحكم فى الناس وكأنهم عبيده ، يتعامل معهم وهو واثق أن السلطة فى يديه ، والامارة له ، والكون مصنوع من أجله .

ذهب ميرزا الى فيكتوريا لأن أباه صمم على أن يتصدى ما لحقه من ظلم .. كان قد ورث أرضا فى البحيرة ، وقالوا له : ان بعض هذه الأرض عليها مشاكل ورهونات ، ودخل المحكمة المختلطة فى الاسكندرية ، وسمعهم يتكلمون بالافرنجى .. كان القاضى انجليزيا .. لم يفهم شيئا مما قاله القاضى أو قاله محامى البنك العقارى أو المحامى الذى اختاره ليدافع عن حقه ، جلس وهو صاحب الأرض يشهد معركة يسعى فيها الخصوم الى انتزاع أرضه ، وهو عاجز عن أن يفتح فمه بكلمة ، لا يفهم شيئا على الاطلاق ، الشىء الوحيد الذى افهموه له وهو خارج من قاعة الجلسة أن الحكم قد صدر ضده ، وأن الأرض لم تعد أرضه .

من يومها صمم الحاج الفلكى أن يسلح أولاده بتعليمهم

اللغات والانجليزية والفرنسية بالذات .. وخرج ميرزا من قريته فى البحيرة الى الاسكندرية أول مدينة كبيرة يدخلها فى حياته .. عالم مسحور جديد ، عالم مخيف ، عليه أن يقتحمه لينتزع منه أسرار السلطة التى تمكن الانسان من المحافظة على أملاكه .

وقال الأب لميرزا ابنه ، استعد لمواجهة أولاد فى المدرسة سيحاولون السخرية منك ، ولكن لا تخف ولا تضعف أمامهم ، ستجد من يقول لك ان أبوه فلان باشا وعمه ترتان باشا .. ولسوف يسألك ومن يكون أباك .. قل له .. أنا أعرف شجرة أجدادى .. أبا عن جد .. الى الجد العشرين .. فهل تعرف أنت أجدادك ، هل تعرف جدك ، وسيحتار الولد ابن الباشا .. لأنه من نسل بزرميط .. نسل مماليك وعبيد وعساكر من الأناضول وخدم التركمان .. أنت أعرق منهم .. قل لمن يسخر منك .. ما يدرينى أن جدك حرامى أو قاطع طريق ، صعلوك من صعاليك الترك جاء خادما فى السراى .. ان هؤلاء الذين يملكون السلطة ليسوا أكثر من مظاهر ونفخة كدابة .. وحدث الذى توقعه الحاج الفلكى .

وكان أول صدام خاضه التلميذ ميرزا الفلكى مع التلميذ منصور سالم الذى سخر من لهجة ميرزا ومن طريقته فى الكلام ، وطريقته فى تناول الطعام . ومن ملابسه ومن ملامحه،وقال منصور لميرزا باستعلاء:انه يعجب كيف سمحوا

له بدخول المدرسة · فقال له ميرزا : أنا أعرف آبائى وأجدادى ، أما أنت فهل تعرف اسم جدك ؟ فاندهش منصور وقال بعجرفة انه ابن يوسف باشا · فألح ميرزا أن يخبره باسم جده والد يوسف باشا · واحتار منصور وارتبك ·
كان لا يعرف اسم جده ، أو لعله اكتشف أنه ليس باشا وليس صاحب شأن يذكر يستطيع أن يتفاخر به فآثر الصمت وارتبك ·

وامتلأ ميرزا بالثقة وبالاعتزاز بأبيه الذى توقع المعركة واستعد لها وحصن ابنه بالأسلحة التى يقاوم بها الاعتداء عليه · ولكن لم يمض عام حتى أصبح ميرزا ومنصور صديقين ، جمعتهما المذاكرة · والشجاعة التى امتلأ بها ميرزا بعد يوم عصيب رأى فيه أباه وهو يدخل مع عمتين لميرزا فناء المدرسة ، وكانتا ترتديان الملس الريفى · قال الحاج : تعمدت يا ولدى أن أحضرهما بملابسهما خشية أن تضيع جهودك وتشتت أفكارك بالكذب على تلاميذ المدرسة ، أنت فلاح وأبوك فلاح ، وعماتك وأمك فلاحات ، ولا مهرب لك من هذا · فنحن أسياد البلد · والأرض ستكون لنا ، ولا معنى لتعليمك هذا التعليم الا للمحافظة على أرضنا وأموالنا وأقدارنا فى بلدنا ·

هذا هو ما يجب أن تعرفه ، ويجب أن يعرفه الجميع هنا ، حتى لا تنقاد لاغراء المظاهر التى يخدعون الناس بها ، وهم فى رأيى المخدوعون · لن يصمدوا طويلا أمامنا وسيأتى يوم

قريب يعرفون فيه من هو صاحب الكلمة فى هذا البلد ، كانت الكلمات تتدفق من الأب ، بينما ميرزا مذهول من منظر العمتين فى فناء فيكتوريا ، يتمنى لو انشقت الأرض وبلعته ، ولكن الفأس وقعت فى الرأس وما عاد له من مهرب · الشىء الغريب حقا أن رد الفعل لزيارة الأب والعمتين كان على غير مايتوقع ، كانت نظرات الفضول فى العيون هى الغالبة بين التلاميذ ، خاصة بين أولاد الخواجات الذين اهتموا بالسؤال عن حياة الفلاحين وملابسهم وطريقة حياتهم ، وذهب ميرزا الى بيت منصور فى محرم بك بعد ذلك اليوم العصيب بأيام ، وهناك اعترف له منصور أنه سأل أباه عن جده ، فنظر يوسف باشا الى سيف معلق على حائط وقال له : هذا هو جدك · ولم يزد على ذلك سوى أنه ذهب مع مركب غرقت فى قاع البحر فى معركة نافارين ·

ومضت سنوات الدراسة وميرزا يتفوق ، لأنه يعرف الهدف من دراسته ، ولأن التحديات التى تواجهه واضحة ، أما منصور فكان لا يعنيه الا الخلاص من محنة الدراسة ليعيش حياته ، وسافر منصور الى اكسفورد ، وسافر ميرزا الى باريس · وعاد منصور قبل أن يتم دراسته،ولكن من الممكن أن تقول انه حصل فى بلاد الانجليز على شهادة جنتلمان ، يتردد على النادى ، ويحرص على تناول الشاى فى الساعة الخامسة عصر كل يوم ·

وكان مهتما بأناقته ، يفصل ملابسه فى لندن ، ويقتنى العربات الخاصة ، ولولا أن كوثر هانم رفضت بشدة دخول الكلاب بيتها ، لاقتنى عددا من الكلاب • أما ميرزا فعاد من باريس ومعه شهادة الاقتصاد السياسى ، والتحق بوظيفة فى بنك مصر ، والتقى بمنصور وعرف منه أن سعيد باشا حقى رئيس الوزراء قد ألحقه بوظيفة سكرتير خاص له • وكان سعيد باشا صديقا ليوسف باشا والد منصور وقد اشتريا معا قطعة أرض كبيرة فى جاردن سيتى ، هى امتداد لأملاك الأمير « ف » ومجاورة لقصره ، وأقاما بيتين متجاورين ، وكان يوسف باشا يريد تزويج ابنه منصور من احدى قريبات سعيد باشا ، ولكن أمينة هانم كانت ذات دهاء شديد ، شخصيتها قوية ، وهى ابنة تاجر كبير فى رشيد أرادت أن تدعم نفسها بزواج ابنها من احدى قريباتها ، ومال منصور لاختيار أمه •

وهكذا تزوج كوثر هانم وانتصرت زوجة يوسف باشا الرشيدية • وقال منصور لميرزا وهو يذكره بأول لقاء بينهما فى فيكتوريا انه يعرف جدود أمه الى الجد الخامس والعشرين ، وأن جدودها من المغرب ، فيسخر ميرزا منه ويداعبه قائلا : « مغربى كداب يشوف البخت ويفتح الكتاب » •

ولم يتحمل منصور الوظيفة ، فلما ترك سعيد باشا الوزارة ، رفض أن يبحث عن عمل ونصحه ميرزا أن يذهب ويعمل فى أرض أبيه ، ولكنه كان لا يهتم بالزراعة ولا بالفلاحة ، كل

ما يهمه الدخل الذى يحصل عليه من أبيه • ولكن جاء وقت باح فيه منصور لميرزا بندمه لأنه لم يكمل تعليمه ، وكان يوسف باشا قد دخل مرحلة الشيخوخة ، وترك كل مسئولياته لأولاده أشقاء منصور من أم غير أمينة هانم • وبدأ يلاقى متاعب فى التفاهم معهم •

وكان منصور يعرف جاره لطيف صبرى ، ولكن الصداقة قامت بينهما عن طريق ميرزا الذى قضى سنوات الدراسة فى باريس مع لطيف • وتعود الثلاثة الالتقاء فى النادى عندما يعود لطيف من الخارج فى أجازة من عمله بالسلك الدبلوماسى • وأصبحوا شلة لها مغامراتها ، وكان لهم صديق فى النادى اسمه خورشيد بك من رجال زمان ، رجل أسطورة يستحيل أن يوجد رجل مثله فى هذه الأيام • كان من الأعيان ، ومن كبار الأثرياء ويهتم بالشعر والأدب والفلسفة ، وكان معجبا بشوقى الى حد التقديس ، ولا يقبل اسم حافظ ولا العقاد ، ويقول هؤلاء الذين ينقدون شوقى مخرفون يتطاولون على سيدهم ، وكان منصور مولعا بمشاكسة خورشيد بك ، ويسخر من حديثه الذى يردد فيه كلمات ضخمة فخمة مثل الأزل والجوهر والكينونة ويقول له ان هذا الكلام لا معنى له فيتجاهله خورشيد بك ويسأل ميرزا :

ــ فاهم يا فلكى •

فيقول ميرزا وهو يغمز بعينه لمنصور :

- طبعا يا خورشيد بك ·

فيبتهج خورشيد بك ويلتفت لمنصور ويقول له :

- أما أنت فلن تفهم أبدا ·

ثم يردد فى أسى :

- عرفت الكثير وقرأت الكثير ·· ولكن ما الفائدة من تعب العقل والجسد ·· لا أحد يريد أن يفهم أو يستفيد ·

ويلوح خورشيد بك بمقبض منشته ويقول :

- المهم ·· هو الاتصال ·· الاتصال بالحق ·

فيسخر منصور قائلا :

- المهم يا خورشيد بك هو الاتصال بالمندوب السامى ·· الاتصال بالسراى ·· الاتصال ببنك باركليز ·· هذا هو الكلام المفيد ·

وذات يوم دعا خورشيد بك ، الأصدقاء الثلاثة ميرزا ومنصور ولطيف الى رحلة بحرية فى يخت يملكه اسمه « خورشيد الأول » وكان ميرزا ومنصور قد ذهبا الى الاسكندرية لاستقبال لطيف قادما فى أجازته السنوية على ظهر المركب « مارسيليا » ، ولما شق اليخت طريقه الى عرض البحر ، فوجىء ميرزا ولطيف بمنصور مقبلا عليهما وقد غلبه انفعال كبير بدل هيئته ،وقال لهما : ان فى صدر المركب مدفعا· وجذبهما ليريا المدفع · وجعل يدور حوله ويتحسسه ، ويسأل اذا كان مدفعا حقيقيا أو هو مدفع للزينة ، وأصر على أن يذهب

الى خورشيد بك ويسأله ، وكم كانت دهشتهم بعد أن أكد خورشيد أنه مدفع حقيقى ، من تصميم منصور على اطلاق المدفع ، لماذا يا منصور ، ما الحكمة فى ذلك ؟ ولكن منصور رفض المناقشة ، وبلغ به التصميم مداه ، كما لو كان قد جن جنونه ·

وزاد تأزم الموقف أن خورشيد بك قال متباهيا : ان لديه قذائف قديمة ليثبت أن المدفع ليس مجرد زينة ، وماكانت هناك قوة تستطيع منع منصور من اطلاق قذيفة وتجربة المدفع · وفعلا جاء البحارة بقذيفة ووضعوها فى المدفع وأطلقوه ، ووقعت الكارثة ، اهتز المركب اهتزازا شديدا ، وعلا الموج على جانبيه ، وكأن يدا هائلة قذفت باليخت فى الهواء ، ووقعوا جميعا على الأرض ، حتى خورشيد بك ، وانفلت المدفع من مكانه بعد أن تحطمت السلاسل الحديدية التى تربطه بسطح المركب ، وانحدر بقوة وسرعة مخيفة كوحش ضار ، وكاد يرتطم بالصارى ويقتلعه ، لولا أنه انحرف وجرف الحاجز الخشبى بقوة وهوى معه الى قاع البحر ·

قال يوسف باشا عندما سمع بالحادث ، ان ابنه منصور يريد أن يقلد جده الذى هوى الى قاع البحر فى معركة نافارين ، ولكنه أحمق اذ يجهل شروط اطلاق المدافع فى المراكب والاحتياطات الواجبة فى مثل هذه الظروف · أما الحاج الفلكى فقد علق على الحادث ، أنه جنون وأن هؤلاء

الذوات يبددون حياتهم وأموالهم فى الكلام الفارغ،وتساءل كم يبلغ ثمن المدفع ، وما هذا السفه والخرق الذى أصاب هؤلاء القـــوم ·

كان ميرزا حريصا على الأرض ، حريصـــــا على تخليص قريته من ديون البنك العقارى أو السماسرة ، وكان قد أعد نفسه منذ سنوات ، هو وأولاده ، لاسترداد أية أرض يضعف مالكها ويوشك أن يفرط فيها ، كان يشترى الأرض من هذا المالك ويضمها الى أملاكه



كان مصمما على أن ينتقم من ذلك الموقف المهين الذى وقفه فى المحكمة المختلطة ، يســـمع خواجات يتحدثون بلغة لايفهمها عن مصالحه ، ثم يقـــولون له انهم استولوا على أرضه، انه الآن يستزيد من أملاكه ،وهو مستعد لان يواجه الخـواجات ويواجه الذوات الذين استولوا على الأرض بسلطة السـيف والانتماء الى رجـــال الحرب والسراى ، أولئك العســـكر والعبيد والأغوات والمـاليك

الذين ينتمون الى نسل « بزرميط » انه قادر على التحدى وعلى المحافظة على أملاكه ومصالحه ، كان يركب فرسه ليفتش على العزب البعيدة ، ويركب البغل ليفتش على الأرض القريبة ، يخرج من داره التى يضم صحنها أنوال النسيج وبئر المـاء وكور الحدادة ، ويفتش على الأرض ويمشى عليها بقدميه قائلا: ان أقدام صاحب الأرض هى أخصب سماد لها · يعمـل من صلاة الفجر الى ما بعد شروق الشـمس ، ويطمئن الى بدء العمل ، ويلقى تعليماته ، ثم يعود ليتناول طعام افطاره،ويتهيأ لاستقبال زواره · كانت أرضه تنمو وتتسع ، وأرض يوسف باشا تنكمش يثور حولها نزاع الأولاد الذين ترك لهم الأب مسئولية ادارتها، فتركوا المسئولية لمن ينهبونهم من الفلاحين·

وجاء اليوم الذى لا ينساه ميرزا ، ثانى يوم العيد الكبير وقد عاد من قريته والتقى بأصدقائه فى النادى ·

كان منصور مرحا ، ولكن ميرزا كان يعلم أنه يخفى أحزانه وقلقه بهذا المرح ، فهو لم يسافر أول أيام العيد الى الاسكندرية حتى لا يلتقى بأشقائه من أبيه · وهو يتوقع أن تتعقد المشكل ويريد أن يعلم أباه باحتجاجه ، يريد أن يفجر الأزمــة التى تفرض على الأب الكهل أن يتدخل ويحسم الأمور ، فلا يحتاج منصور الى أن يتصل بأحد ليحصل على أمواله التى خصصها له الأب · وخيل لميرزا أن منصور قد أرهق نفسه بالتظـاهر بالمرح ، وأنه يريد الانصـــراف المبكر ليخلو الى أحـــزانه

وهمومه ، ودعه على أن يلتقيا فى المســاء ، وهو لا يعلم أنه يودعه الوداع الأخير ٠ وتابع ميرزا أخبار أسرة منصور من صديقه جار الأسرة لطيف صبرى ، ومضت سنوات ، حتى جاء يوم اتصل به لطيف صبرى من الوزارة وطلب حضوره لأمر هام ، كان لطيف مضطربا ، وقال له عندما دخل عـلى مكتبه :

ـ خذ واقرأ ٠٠

وأعطـاه خطابا قرأه ، فذهل ولم يفهم شيئا ، وروى له لطيف ما حدث من يوسف فى الصباح ، كان الموقف خطيرا ، يوسف ولد صغير ٠ تدل تصرفاته على طيشه ، وتذكر ميرزا وجه منصور والد يوسف يوم تصميمه على اطلاق المدفع على ظهر يخت خورشيد الأول ٠ تذكر الطيش والتهور والاندفاع هل ورث الولد من أبيه هذا الميل الى العنف الذى كشفه حادث المدفع ـ سأل لطيف ، كيف تخلص من يوسف ، قال له : هو الذى خرج من مكتبه فجاة ٠ وقال : انه غير مطمئن الى ما قد يقدم عليه من تصرفات جنونية أخرى ٠

وسأل ميرزا صديقه ٠ من الذى كتب هذه الورقة وأرسلها٠

قال لطيف فى ألم :

ـ وهل هناك أحد غيرها ؟

كانت امرأة تريد أن تتزوج لطيف صبرى ، عرضت عليه الزواج ، هى التى طلبته لنفسها ، وسأله ميرزا :

ـ هل أنت واثق ؟ لابد أن نتأكد أولا :

وبدا الارتباك على لطيف ٠

فقال له ميرزا :

ـ سأذهب وأقابلها ٠

وذهب ميرزا الى بيتها ٠ قابلته وفتحت الموضوع مباشرة٠ فهى تعرف مدى صداقته بلطيف صبرى ٠ وكثيرا ما دعتهما الى الغداء أو العشاء فى بيتها ٠

قالت له :

ـ هل عرفت ما فعله صاحبك ٠

وانطلقت تتهم لطيف بما جاء فى الخطاب ٠ وأيقن ميرزا أنها التى دبرت كل شىء ٠ وانزعج مما اكتشفه ٠ فالمـرأة واسعة الثراء ٠ مجنونة لن تتورع عن شىء ٠ تعودت على أن تنال ما تريد ، لن توقفها أخلاق أو تقاليد ، أما أن يتزوجها لطيف صبرى ، أو تهد الدنيا غير مكترثة بلطيف ولا بشقيقه الشيخ الأكبر ٠

وعاد ميرزا الى لطيف صبرى ، وقال له :

ـ انها هى ٠

وتداولا فى الأمر ، وانتهيا الى ضرورة أخذ مشـورة الشيخ عبد السلام ٠ لابد أن يعرف الشيخ الجليل أن اسـم عائلته تتهدده الفضيحة ٠

مرض الشيخ وهو يسمع ما سمعه ، ولكنه كان شجاعا وله

نظرة غير عادية للأمور · قال ان الأمر لا يخصنا وحدنا ، انه يمس جارة كريمة لنا ، وعلينا واجب حمايتها ودفع الأذى عنها ، ولابد أن تعرف كل شىء · ومن التى أرسلت الخطاب ، والتصرف الذى أقدم عليه ابنها · ولابد أن تشاركنا فى الرأى·

وطلب الشيخ والدتك ، فذهبت اليه وقال لها كل شىء ·

قالت له بعد أن هدأت وما العمل ؟ ·

قال لها الشيخ بلا مقدمات :

ـ وما رأيك فى الزواج ؟

فانزعجت ، ولكن الشيخ عبد السلام كان قد فكر فى الأمر مليا ، وهو يعرف بالمشاكل المالية التى تعرضت لها لذهاب زوجها منصور قبل والده واستيلاء أشقائه من الأب على معظم أملاكه ، ثم هو يرى ألسنة الفضيحة توشك أن تسرى كالنار فى الهشيم ، فى الحى وفى كل مكان تستطيع أن تصل اليه تلك المرأة المسعورة ، وهى قادرة على أن تبلغ صوتها الى أماكن كثيرة ، ولسوف تستغل يوسف وتثيره بخطابات ووشايات قد تؤدى به الى الجنون أو الجريمة ·

وقال الشيخ لكوثر هانم :

ـ لو أردت أن نواجه الكذب وألسنة السوء فنحن لها ولكنى ارى فيما حدث اشارة لنا أن ترتبط العائلتان برباط حلال ·

استمعت كوثر هانم واجفة ملتاعة لكلام الشيخ حتى قال لهـا :

ـ أعلم أنك تفكرين فى ابنك ·· وما قد يقـولـه لم تم هذا الزواج ·· فقد يظن أن ما جاء فى ذلك الخطاب الخسيس الذى وصله صحيح ·· ولكنى سأطلبه وأخبره بما قلته لك ·· سأصارحه وسأحدثه حديث الرجل للرجل ··

وطلبت كوثر هانم مهلة للتفكير ، وقبل أن تعيد الاتصال بالشيخ ، ناداك يا يوسف ، وحدثك فى أمر زواج والدتك فلم تعترض ·· لم ترفض · لم تقل أبدا للشيخ ولا لوالدتك أنك لاتوافق على الزواج، ولما علمت كوثر هانم من الشيخ بموقفك هذا تشجعت وقبلت الزواج ·

همس يوسف وقد خرج صوته من أغوار بعيدة :

ولكن من هى تلك المرأة ؟

قاطعه ميرزا :

ـ تقصد التى كتبت الخطاب ·

وتهلل وجهه قائلا :

ـ اذا أردت أن تراها فاتبعنى ·

ونهض ميرزا قائلا :

ـ هيا ·· فلابد أن تتهيأ لهذا اللقاء ·

ـوجـى: يوسف

باصرار ميرزا الفلكى على أن يجذبه الى ملعب الكروكيه رافضا كل محاولات يوسف للتخلص من هذا المأزق •• وكانت حجة ميرزا أن يوسف أمامه فرصة لا تعوض عليه أن يستغلها ، بل هو مصر على ألا يهدر هذه الفرصة •• لأنه واثق أنها ستفيد ابن صديقه سواء أراد البقاء • أو صمم على العودة الى القاهرة مع اللواء الحوت •

واحتار يوسف ، هل يشتبك مع الرجل ، يلجأ الى العنف فيدفعه متخلصا من قبضته التى تضغط على ذراعه ، ولكن مثل هذا التصرف من الصعب أن يقدم عليه مع رجل يقول له انه صديق والده ، وأنه ينصحه بما كان سيفعله سالم منصور لو كان موجودا معهما فى هذا المكان •

كان ميرزا يفرض على يوسف أن يستعيد طفولته ، يسترجع علاقة الصغير بالكبير ، الابن بالأب ، وكانت لهجته آمره واثقة،تحمل معانى غامضة ، فهو يقول ليوسف:ان لقاءه بتلك المرأة التى أرسلت له قصاصة عصابة اليد السوداء لن يتم الا اذا لعب معه الكروكيه •• وظن يوسف أن الرجل يسخر

منه ، بل أيقن من هذا ، فقال ميرزا : انه لايصر على لقاء هذه المرأة ، أما لعبة الكروكيه فربما يتعلمها عندما يعود بعد قيامه بمهمته فى القاهرة •

وردد ميرزا بصوت ساخر :

ـ تعود •• تعود •• ولكنك لا تستطيع أن تعود ••

سأله يوسف فى دهشة ••
لماذا ؟
قال ميرزا :

ـ عودتك يا عزيزى تفسد هذا المشروع السياحى من اساسه ••



وأفاض ميرزا فى شرح استحالة عودة من يخرج من هذا المكان •• لما سيترتب على السماح بالتردد عليه أكثر من مرة من ازعاج شديد للجميع ، النزلاء والمؤسسة السياحية معا •• فالذى يعود سيأتى معه بأخبار

جديدة عن عائلات النزلاء وأولادهم ومصالحهم التى تركوها طلبا للهدوء والراحة ، فماذا يكون الموقف ·· !

ان هذه الأخبار سوف تقلق النزلاء وتفسد راحتهم وتشغلهم عن ألعابهم وتعيد اليهم هموم الحياة ومشاكلها ·· سيفقد هذا المكان هدوءه ·· ولابد أن يحاول حامل هذه الأخبار استغلالها فى السيطرة على النزلاء ·· يبيعهم أخبارهم ومتى بدأت النفوس تميل الى سماع الأخبار الجديدة لابد من صحف واذاعة وتليفزيون ·· ثم لابد من سلطة ومحاكم وشرطة ·· لأن الصراعات سوف تنشب بين النزلاء وستجتاحهم انفعالات من الصعب التنبؤ بنتائجها ، فيفسد تماما الهدف السياحى الكبير الذى قامت لتحققه مؤسسة د · س · لا أمل لك يا عزيزى يوسف منصور فى أن تعود مرة ثانية الى هنا ·· ان احتمالات ذهابك الى القاهرة قد تتحقق ·· أما رجوعك الينا فهذا أمر مستحيل ، ولهذا أقول : ان هذه هى فرصتك الأخيرة لتتعلم اللعبة فلا ترفضها ، ولن أسمح لنفسى أن أتركك تهدر ما أتصوره أعظم فرص حياتك ·

استمع اليه يوسف وهو يقارن بين الحاحه ، وبين محاولة كريم شاكر ، وهو يترافع بأسلوب المحامى ليقنعه بالانضمام الى لعبة الدومينو ·

فبينما ترك كريم شاكر ليوسف أن يفكر فى الأمر ·· كان ميرزا يجذبه من يده الى صالة فى المبنى الصغير الملحق

بالملاعب ، ويدس فى يده مطرقة خشبية أحضرها الرجل التترى قلاوون · ويأمره أن يخلع حذاءه ذا الكعب حتى لا يتلف أرض الملعب ، وأحضر له حذاء خفيفا بلا كعب وأرغمه على أن ينتعله ·

فلما اطمأن ميرزا الى استلام يوسف ، أو خيل اليه أنه استسلم ، طلب منه أن يذهب وراء ستارة فى نهاية القاعة ويتبول ليخلص جسده من أى شىء قد يضايقه أثناء اللعب ··

ووقف الاثنان جنبا الى جنب يتبولان ، وقد أغمض ميرزا عينيه وارتخت عضلات وجهه ، ثم وقف ميرزا أمام مرآة وتأمل وجهه ، وثبت غطاء الفرو على رأسه ، وخرجا الى الملعب وقد أمسك كل واحد منهما مطرقة ··

سأل يوسف نفسه ·· الى متى يستمر هذا التورط الذى لا مبرر له ؟ وخطر له أن يلقى بالمطرقة ويجرى هاربا ، بينما انشغل ميرزا يشرح قواعد اللعبة وقد تألق وجهه ولمعت عيناه ، وكان التترى قد دحرج أمامهما أربع كرات خشبية ملونة ، وطلب ميرزا من يوسف أن يلعب بالكرتين الزرقاء والسوداء واختار هو الكرتين الحمراء والصفراء ·· وارتفع صوته يشرح طريقة ضرب الكرة بالمطرقة لتمرق من الهدف الذى هو حلقة حديدية صغيرة مثبتة فى الأرض ، أو ليضرب الكرة بالمطرقة لتطيح بكرة الخصم التى تهدد بالنفاذ من الهدف ·· كان حديثه جادا مفعما بالحماس عن

ضرورة التركيز ، الأمر يا عزيزى يحتاج الى استخدام العقل قبل استخدام العضــلات ·· أحصر تفكيرك فى الاتجاه الذى ستصوب اليه المطرقة والموضع الذى ستضرب فيه الكرة ·· لا تنظر الى الهدف أثناء ضرب الكرة ·· لا ترفع رأســك ·· لا تفكر فى أى شىء ·· أكتم أنفاســــــك حتى لا يهتز شىء فى جسدك ·· لا أمل لك فى أن تجيد اصابة الهدف اذا نظرت اليه ·· لا أمل لك فى الوصول اليه قبل أن تسيطر على نفسك بأن تتخلص من أية هواجس أو انفعالات ··

ورغم هذا الالحاح فى طلب التركيز ، كان ميرزا يتوقف بين وقت وآخر عن اللعب ويتنهد ، ثم يقول ليوسف انه لا يصدق أنه اعتزم فعلا الرجوع الى القاهرة ، ما الذى يسعى اليه ، فيحاول يوسف أن يذكره بمأساة ابنه ، فيهز ميرزا رأســه منكرا ما يســمعه ، ما فائدة أن يعود الى ولده الذى رفض الاعتراف بأبوته ؟ فى زماننا كنا نســمع عن آباء لا تعترف بالأبناء أما فى هذا الزمان فالأبناء هم الذين يتنكرون للآباء ··

كان يتحدث ساخرا من هذه العودة ، فهى فى رأيه حمــاقة لا معنى لها ، ولسوف يواجهه ابنه بجحود مروع ·· فالولد لم يعد هو نفس الولد الذى كان ابنه ··

ولقد جرب هو العــودة بعــد أن ترك مصــــر ليعارض عبد الناصر الذى استولى على الأرض التى يملكها أبوه ·· كانت صحف العالم واذاعاته ترحب بهذه المعارضة وتنشرها

على الملأ ، فلما ذهب عبد الناصر عاد الى مصر ليســــترد حقوقه ، فاكتشـــف أن الدنيا تغيرت ، الأعيان أمثال أبيه اختفوا ·· أنواع أخرى من البشـــر هى التى تحيا الآن ، لا صلة لها بأبيه ولا بالعالم الذى جاء منه يوســف أو والده أو جده ، الولد الجربوع عبد العزيز الفلكى ابن أحقر فرد ينسب الى عائلة الفلكى ، كان أبوه لا يستطيع أن يقترب من دارنا ، أبوه شـحات وأمه شـحاتة ، هذا الجربوع خرج من مصر كما خرجت أنا ·· وعاد اليها كما عدت أنا ·

ميرزا الفلكى ابن سيد العائلة حارب فى الخارج وتحمـل النفى والتشريد ، وعاد ليسترد حقوقه ، وعبد العزيز الفلكى حثالة العائلة ذهب الى بلد فيه بترول وحبس نفسه فى حجرة مع عشرة من أمثاله يأكلون النفايات ويجمعون المال ·· ثم عاد ليستولى على أملاكنا ·· جاء ليشترى دار أبى فى أرضنا بالبحيرة ·· عرض على أن يدفع عشـــــرة آلاف فى دار لا تســاوى خمســة ولا ثلاثة ·· معه مال مكدس فى زكايب ، وهو ليس فى حاجة الى دار تهدمت فى الريف ، شــعرت أنى أمام دودة سمينة شرهة ، دودة منتصرة ·· تريد أن تنهشنا حتى النخاع ، تنهش بياض عيوننا وسوادها ، تريد أن ترفع علم انتصارها وتجعل من اسـتيلائها على دار أبى راية لهذا الانتصــــار ··

سألت نفسى ما الذى يريده هذا الولد الجربوع ؟ فوجدت

أنه يريد أن يملك ما كان يملكه أبى •• يريد أن يمحو ذكريات الدار التى كان لا يجرؤ أبوه على الاقتراب منها ، ليجلس هو فى نفس هذه الدار ••

وعدت أسأل نفسى أهذا هو ما حاربت من أجله ؟ • أين المعركة التى خضتها ؟ • أين أبى ؟ • أين هيبته ؟ •أين وقاره •• ما الذى بقى من دارنا وزوارها ؟ • لم أجد أحداً •• لم أجد سوى الأطلال •• وابن الشحات الذى يريد أن يشتريها ليعلن أنه الفلكى الجديد •• أمثاله يتكاثرون ، يخرجون من الشقوق ، من تحت الأرصفة ، من طين الأرض ••

أما أولادنا فلا أمل لهم فى مواجهة هذا الزحف •• لقد خدعناهم •• قلنا لهم انهم أولاد الأسياد •• قلنا لهم تعلموا اللغات الأجنبية •• عودناهم على السينما ، والمسارح ، وحياة النوادى •• ولكنهم يشعرون بالضياع أمام الزحف الذى يفرض عليهم التراجع والفرار والهجرة •• انهم يواجهون عالما من نوع آخر لا صلة لهم به •• هل أروى لك ما حدث لخادمى فرج •• عدت من الخارج فجاءنى يبكى مصيبته •• أتدرى ما هى مصيبته ؟ • علم ابنه بالمجان فأصبح مدرسا وسافر وعاد تاجرا •• وحرم على والده ان يخدم فى بيوت الناس ، لأنه تزوج ولا يريد أن يعرف اهل زوجته أنه ابن خادم •• قلت له : عظيم يا فرج •• مبروك يا فرج ، آن لك أن تستريح ••

ولكن فرج يبكى لأن ابنه الذى حرم عليه أن يعمل لا يعطيه أبيض ولا أسود •• ابن فرج تحول الى دودة شرهة •• تلتهم وتلتهم ولا يهمها ما تلهمه حى لو كان جسد أبيه •• هذه الديدان تلتهم الماضى ولن تبقى عليه •• انظر الى بيتكم فى جاردن سيتى من الذى اشتراه ، ومن الذى شيد تلك العمارة الكبيرة ، أليس بائعا سريحا كان يسير بالأمشاط والفلايات ، هل قابلت الذى اشترى بيت جدك فى محرم بك ؟ أنا قابلته •• يملك ملايين الجنيهات ولا يعرف القراءة ولا الكتابة •• كل المتعلمين فى خدمته ، يدخل اى بنك ، ينتقل الى أى مكان ووراءه حاشية من المحامين والمهندسين وا لمحاسبين •• بالاضافة الى عشرات الفتوات والبلطجية والحشاكيل •• أسياد المستقبل يا عزيزى •• بينما يهاجر أولادنا ، ونهرب ما تبقى من أموالنا الى بنوك سويسرا ••

اختلطت كلمات ميرزا عن ذكرياته ، بتعاليمه فى فن اللعب •• اقترب يا عزيزى من الكرة بعد أن تبتعد عنها لتحدد الاتجاه بخطواتك نحوها •• امسك بالمطرقة كالسيف •• لا تقبض عليها ياعزيزى بيد متشنجة •• ولا تقبض عليها بطراوة •• مزيج من الثبات واللين •• هذا كلام يجب أن يفهمه بسهولة حفيد يوسف باشا منصور الرجل الذى يعتبر السيف هو حسبه ونسبه •• كان لهذه الكلمات الأخيرة وقعا غريبا فى نفس يوسف ، رأى فى خياله السيوف المعلقة على الجدران ، ورأى نفسه صغيرا فى حجرة جده يثب على قدميه

محاولا الامساك بسيف ، وشعر فى نفس الوقت بانقباض ، كانت لهجة ميرزا قاسية ساخرة ، ربما كان فيها تشف أو تحد ، كأن الرجل يتلاعب به ، أو يدبر له أمرا فى الخفاء ، وبلغ الشعور بأنه محاصر ذروته حتى لم يعد يطيق ما يشعر به ، فامض عينيه وضرب كرته السوداء بالمطرقة وفتح عينيه ليراها تمرق من الهدف وميرزا يصيح :

ـ عظيم ·· عظيم ·· عظيم ··

ولكن يوسف لم يعد قادرا على تحمل المزيد ، لا اطراء ، ولا تعليمات ولا ذكريات ·· أصابه فزع من نفسه فتوقف مكانه وقال لميرزا :

ـ يكفى هذا ·· لابد أن أنصرف الآن ··

قال ميرزا بلهجة ريبة كلها تحد :

ـ ماذا يا ابن منصور سالم ·· هل أنت عنيد مثل والدك·؟

همس يوسف :

ـ لابد أن أذهب ··

فاقترب منه ميرزا والمطرقة تتأرجح فى يده · وأمسك بكتفه وهزه فى غضب قائلا :

ـ لا تكن مغفلا مثل أبيك ··

ارتاع يوسف لهذا الهجوم المفاجىء ·· وقال محتدا :

ـ لا أسمح لك ··

فقاطعه ميرزا :

ـ لا تسمح لى بأن أقول رأيى فى أبيك ·· ان ما بينى وبينه من صداقة يسمح لى أن أسبه وأشتمه ·· لقد سمع منى أكثر من هذا ··

قال يوسف منفعلا :

ـ ولكنه أبى ··

فهتف ميرزا بلهجة قاسية :

ـ ليته لم يكن ·· هو السبب فى نكبتك ·· هو الذى شجع فاطمة هانم شريف على أن تفقد حياءها ·· وتسعى وراء الرجال ·· لولاه لما فكرت فى لطيف صبرى ·· الذى رفضها فانتقمت منه واستخدمتك لاثارة الفضيحة فكتبت لك خطاب العصابة السوداء ··

استمع اليه يوسف ذاهلا ·· كانت الكلمات تتطاير من حوله خفافيش فى كابوس ·· كان أشد ما يفزعه هذه القسوة التى تخرج مع كلمات ميرزا ·· شعر بالحرمان من الحنان ·· الدنيا ليس فيها حنان ولا عطف ولا حب ·· أو ذلك الشىء الذى قد لا يكون حنانا ولا عطفا ·· ولا حبا ·· ولكنه فى حاجة ملحة اليه ·· لو يجد هذا الشىء فى نظرة أو كلمة ·· أو يجده عند أى انسان ·· أى انسان ·· أى انسان ·· يتعاطف معه ·· حتى لو كذبا ·· انسان يقدم له انسانيته لا أنانيته ·· حتى لو كان تصنعا ·· أين هذا الشىء ·· لماذا لم تجده يا مغفل · لماذا لم تعثر عليه فى لحظة ؟ · كانت تساوى كل ما مر به يا كلب ··

كان ميرزا يقول له :
ـ يجب أن تواجه الحقيقة •• المشاكل التى عانيت منها ، ورثتها لأنها كانت موجودة من قبل ان تسمع بكلمة مشاكل ••

قال يوسف بصوت ضعيف متعب :
ـ لماذا قلت لى •• ؟
صاح ميرزا مقاطعا :

ـ حتى تفيـــق من أوهامك •• حتى تعرف أن كوثر هانم تحملت الكثير من أجل المحافظة على بيتكم ••
قال يوســـــف محاولا التخلص من هذا الكابوس الذى يخنقــه :

ـ على أية حال •• لابد أن أنصرف ••
قال ميرزا فى الحاح مقتحم :
ـ مازلت بعد كل هذا مصرا على أن تدعى لنفسك القدرة على تحقيق العدالة •• لست أنت الذى يستطيع أن يصـــنع شيئا •• ما ستفعله هو أن تقحم نفسك فيما أنت عاجز عنه •

نظر اليه يوسف نظرة طويلة سكب فيها شعورا بالكراهية للرجل وكلماته وقال :
ـ لماذا تكرهنى •• لماذا تكره أبى •• ؟
قال ميرزا ساخرا وابتسامة تشق وجهه :
ـ هـــذا كلام فارغ يا عزيزى •• أنت لا تريد أن تفهم ••

تماما مثل أبيك •• هو وأمثاله كانوا السبب فى ضياعنا •• تعاملوا مع الحياة بخفة •• بذروا فى ســـفه •• لم يراعوا حرمة ولا تقاليد •• اكتفوا بالمظاهر •• ونحن لم نكرههم •• بالعكس حاولنا مســـاعدتهم •• تحملنا أوزارهم •• نكبنا بسببهم •• وفقدنا أملاكنا ثم فقدنا هيبتنا وسلطتنا •• لأنهم وضعونا معكم ومع فاروق فى مركب غارقة واحدة ••

قال يوسف غاضبا :
ـ لا أريد أن أســـمع المزيد •• ولا يهمنى أن أفهمك •• يكفينى أن الحوت ينتظر •• وهو فرح بعودتنا •• يســـتعد للمواجهة وللاتصال بالمحامين والصحف •• وأعضـــــاء البرلمان ••

صاح ميرزا بكل قسوة :

ـ وهل ستتصل بأولاد الدكتور أبو الفضـــل وزوجته •• لقد فقدوا رجلهم بسبب خناجر نفذت فى صـــدره كان أحدها خنجرا من يد ابنك •• انت أبو القاتل •• وهم أبناء القتيل •• كلاكما يتفرج على المأساة •• ولا تدركون شيئا عن أبعادها •

صاح يوسف :
ـ كفى •• لن أسمح لأحد أن يظلمنى ••
وسمع يوسف صوتا يقول له بالفرنسية :
ـ أنت أيضا مظلوم ••

التفت فرأى كوستا يقترب ·· معلنا سروره بأن يراه يلعب الكروكيه ··

وقال ميرزا :

ـ ولكنه يريد أن يتركنا يا كوستا ؟ ·

قال كوستا ·· ساخرا :

ـ آه ·· مازلت تحلم ··

قال ميرزا بسخرية أشد :

ـ يريد أن يعود لينقذ ابنه من ظلم وقع عليه ··

قال كوستا :

ـ كلكم هنا تتحـــدثون عن الظلم الذى وقع عليكم ·· لم أسمع أحدا يقول انه ظلم الآخرين ·· الحـوت مظلـوم ·· وآدم ريشفسـكى البليونير مظلوم ·· وأنت يا ميرزا مظلوم ·· وها هو صديقنا يوسف منصـور مظلوم ·· هذا مدهش ·· كلكم مظلومون ·· ولا أحد منكم ظلم ··

قال ميرزا مقهقها :

ـ أنا لا أشكو الآن ··

فالتفت كوستا الى يوسف وسأله ··

أتسمح لى بأن أسألك بصراحة ؟ ·

قال يوسف :

ـ تفضل ··

قال كوستا :

ـ أرجو ألا تضايقك صراحتى ؟ ·

قال يوسف :

ـ الصراحة لا تضايق أحد ··

قال كوستا :

ـ هذا ما أرجوه ·· لذلك اســـــالك ألم ترتكب ذنبا فى حياتك ·· ؟

قال يوسف فى دهشة ··

ـ ماذا تعنى ·· ؟

قال كوستا فى عصبية :

ـ أنت لا تفهمنى ·· أم لا تريد أن تفهمنى ؟ ·

قاطعه يوسف :

ـ بل أفهمك ··

فسأله كوستا :

ـ أعنى ألم تسرق ·· ؟

ثم أردف قائلا :

ـ أنا سرقت ··

وعاد يسأله ···

ـ ألم تزن ·· ؟

وأردف قائلا :

ـ أنا زنيت ··

قال يوسف مرتبكا :

ـ لماذا تسألنى ·· ؟

قال كوستا :

ـ ولماذا لا تجيب على أسـئلتى ·· أنا أعرف الآن على الأقل أنك كذاب ··

هتف يوسف منفعلا :

ـ ماذا تقول ؟

قال كوستا بعصبية :

ـ أقول لك ·· أنت كذاب ·· لأنك قلت انك مسـتعد لأن تجيب على أسئلتى بصراحة ·· ثم تهربت من الاجابة ··

قال يوسف مرتبكا :

ـ أريد أن أفهم غرضك ؟ ·

قال كوستا :

ـ أجب على أسـئلتى ·· هذا كل ما اعنيه ·· ألم تهتك عرضا ·· ألم تمارس شذوذا جنسيا ·· انا فعلت فى الحرب ·· عندما انتقلنا من صقلية ·· الى أنزيو ·· ثم دخلنا روما ·· هناك فى قصـر فى « فيا آبيا » كنت راقدا على أريكة ·· وشعرت بيد تتحسسنى فى الظلام ··

وضحك كوستا وقال ليوسف :

ـ لماذا يحمر وجهك ·· لماذا يخجل الانسان من افعاله ·· لماذا ترتبك ·· هذا شىء فظيع ··

قال يوسف :

ـ لأنه فعلا شىء فظيع ··

فقال كوستا :

ـ لا أمل لك فى الخلاص من هنا ·· أو فى الخلاص من أى شىء اذا لم تواجه نفسـك ·· وتعترف بجرائمك ·· الحياة ليست قناعا نتستر به ··

قال يوسف بحدة :

ـ لن أضيع وقتا أكثر من هذا ·· أنا عائد الى بلدى ··

قال كوستا باستخفاف :

ـ وأنا ذاهب الى صاحبتك ·· آن الأوان لتصـوير الفيلم ·· ولسوف أختار أجمل وضـع فى أجمل لقطة ·· ثم اطلب منها ·· ان تخفينى فى مكان بالصـحراء ·· يقولون ان لها بيتا مخصوصا ·· أو استراحة خاصة ·· سأعيش هناك أقضى وقتى أتفرج على أعظم انجاز بشرى قام به انسان ·· ما رأيك فى أن تنضم الينا فى هذا المكان الذى اكتشفته ؟ ·

وجم يوسف ·· فسأله كوستا فجأة :

ـ ما الظلم الذى وقع على ابنك ··

قال يوسف :

ـ حكم عليه بالسجن ·· ·

فسأله ··

ـ كم ولدا لديك ·· ؟

أجاب يوسف :

ـ لنه الوحيد ٠

قال كوستا فى دهشة :

ـ هذا ريب ٠٠ نادرا ما يحدث فى بلادكم ٠٠

وبدأ عليه استغراق فى التفكير قبل أن يسأل ٠

ـ وكيف كنت تمنع الحمل ؟ ٠

سأل يوسف فى ضيق ٠٠

ـ ماذا تعنى ٠٠ ؟

فهتف كوستا ٠٠

ـ حتى هذا لا تريد الاجابة عليه ٠٠ انى أعنى الوسيلة التى لجأتما اليها لمنع الحمل ٠٠

صمت يوسف ٠٠ فواصل كوستا أسئلته ٠٠

ـ أعنى من الذى اتخذ الاحتياطات ٠٠ أنت ٠٠ أم زوجتك ٠٠

قال يوسف وكأن قوى قاهرة أجبرته على النطق :

ـ انا ٠٠

فسأله كوستا ٠٠

ـ وكان هذا يضايقك ٠٠ ؟

اجاب يوسف ٠٠

احيانا ٠٠

فعاود كوستا سؤاله ٠٠

ـ ولماذا لم ترفض ٠٠ ؟

أجاب يوسف :

ـ لأنها كانت تخشى استخدام وسائل منع الحمل ٠٠ تخشى مخاطر الحبوب ٠٠ الأمراض الخبيثة ٠٠ أعنى السرطان ٠٠

فصاح كوستا :

ـ وأنت ٠٠ ألا تخشى أن تهدر مئات الآلاف من الحيوانات تتسابق ليأخذ أقواها حظه من الحياة ٠٠

قال يوسف فى عصبية :

ـ وماذا تفعل بالحياة ٠٠

قال كوستا باهتمام :

ـ تكبر ٠٠ تتحول الى ذكور واناث ٠٠ تتدفق منها الحيوانات ٠٠ وهكذا ٠٠ وهكذا ٠٠

فقهقه ميرزا ٠٠ وضحك يوسف بالرغم منه ٠٠ واستدار فجأة منصرفا ٠٠ ولم يلتفت وراءه وهو يسمع ميرزا يخاطبه أو يخاطب كوستا قائلا :

ـ كلاكما مجنون أحمق ٠٠ والشى الوحيد الذى افتقده ٠٠ هو وجودكما هنا كلاعبى كروكيه ٠٠

امينة يوسف

اســـئلة كوســـتا ، وكلماته عن ارتكاب الشر والظلم ، وألا أمل فى الخلاص الا بالاعتراف بالجريمة • أيكـون خـلاص الانسـان فى ارتكـاب الشر ؟ أهـذا هـو الطريق الوحيد لراحة الانســـان ؟ يرتكب ما يرتكبه يأثم ويفسق ويفجر ويتورط ليحصل بعد هذا على راحة العفو والمغفرة والتوبة ؟ أيكون الاعتراف بالعجز والذل والمهانة هو المسلك الوعر الدامى الذى يهتدى به الانسان ؟

لقد ارتكب الشر • انه لن ينكر هذا الآن وهو فى طريقه الى قاعة الدومينو حيث ينتظره اللواء الحوت ، ارتكب الشر بكل المقاييس التى لا تقبلها أحكام ولا اخلاق المجتمع ولا نصوص قوانين الدولة • ارتكب الشر بالفعل وارتكبه بعقله وخياله • لم يصل ولم يصم ولم يحج ولم يزك • ولكنه وجد السماحة فى عينى الشيخ عبد الســلام ، حتى قضت على هذه الســماحة نظرات ابنه الشرسة • كم امرأة تشـــهد انه ارتكب معها ما ارتكبه ؟ بعضهن يشهدن باكيات لأنهن طمعن فى الزواج ، وبعضهن حانقـات لأنه تخلص منهن قبـل أن يتخلصن منه • دفع الرشاوى ليضمن وصول أعماله الى ستديو التصوير • سرق مصلحة الضرائب وهنأ نفسه بقدرته على خداعها •

سرق كتبا من مكتبة الشـيخ ، سرق أربطة عنق وجوارب من لطيف صبرى • اختلس نقودا من أمه • حقد على أمه •

شـــعر فى لحظة وهو ثمل مع مراد حسنين انه قد يكون بينهما متعة شاذة • أحلامه وخيالاته طرقت كل أبواب الفسق والدعارة والفجور • أهذا هو ما يجب عليه أن ينبشـــــه ويواجهه • لقد حرمته القيود التى تربى عليها أن ينبش هذه الافعـال •

فرضت عليه أن يسترها • ان يتجاهلها • انها تقاليد الأب المحافظ الذى فرض عليه الأدب والكبرياء • هـذا الأب الذى يقول ميرزا انه كان بلا أدب ولا حياء • لماذا حبســـوه وهو صغير داخل الحصن الغبى ذى الجدران السـميكة ، حصن التظاهر بالأدب والوقار •

زينب هى أول من واجهته • أحبته وكرهته • ثم نســـيته وأســـقطته من حياتها • أرادت يوما ما أن يكون كل شىء فى حياتها • كانت ترى فيه عالمها الوحيد • ليس لها عالم غيره • أرهقته • لأن من يختار عالمه يسعى دائما الى تغييره • كانت تريد أن تعيش حياة البيت والاولاد وطهو الطعـــام • وكانت تريد اكثر من هذا • كانت تريده هو • تريد أن يعطيها مثلما تعطيه • ولكنه ظل سرا مغلقا عليها !



عندما تقدم مع مراد حسنين للزواج منها ٠ ســألوه عن أهله ٠ سأله أبو زينب معاون مستشفى الرمد بشبرا ٠ لماذا لم يحضر أهله معه ٠ قال له : ان مراد حسنين هو أهلى ٠ ورفض فى عناد أن يخبره بشىء عن أبيه أو جده ٠ وكان لا يهمه فى ذلك الوقت أن يرفضه الأب ٠ لولا أن حسنين أخبر الرجل بحقيقة عائلة يوسف ، فانبهر ، ولكن زينب كانت تخفى قلقها من تجاهل عائلة زوجها لها ٠ وعندما علمت من يوسف انه حر وليس فى حاجة الى موافقة أحد ، لم ترحهـا كلماته ٠ ربما خففت من قلقها ، ولكن التحـدى والتحفز لازماها ٠ وظهرا منذ البداية عنـدما قال لها وهو يثرثر بغير احتياط : انه يتمنى لو أن تكون له حجرة نوم مستقلة ٠ قالها ببساطة ، لتثور وتبدى دهشتها التى تحولت الى غضب جامح ، حجرة نوم وحدك ، لماذا تزوجتك ٠ الغريب انها فى تلك الأيام كانت لا تهتم بالجنس ، كانت لا تمتحنـه ٠ لا تتحـداه ، كانت ترضى ، وكان جسـدها حنونا ، يتقبله بترحاب ، ولكن الأيام تمر ، وهو يبتعد ويبتعد عن الحب كما تفهمه زينب وكما تريد له أن يفهمه ٠ ولم يدرك أنه يعانى من الشعور بالعزلة ، ولم يدرك أنها اكتشفت غربته عنها قبل ان يكتشف هو غربته ، ولم يدرك أنها سوف تتأمل حياتها ٠ ثم تتأمل الحياة كلها ٠ فرى فيها غيره ٠ ترى الذين يبحثون عن المال ، والذين يبحثون عن الجاه ، والذين يتمسكون بالمناصب ، والذين يسـعون الى السلطة ٠ والذين يتباهون بثقافتهم ٠ ولم يدرك أنها تعيش

معه بذلك التحدى والتحفز لعائلته ٠ لأمه التى لم ترها ٠ لزوج أمه ٠ لشيخ الأزهر شقيق زوج أمه ٠ لجده يوسف باشا ٠

كانت الأسـماء والسلطة والنفوذ فى عائلته يدفعونها دفعا الى الحذر والترقب ثم الى الاتهام ٠ كم تملك ؟ لماذا لم تكمل تعليمك ؟ لماذا لا يساعدونك ؟ لم يعد هناك شىء تستطيع أن تقبله أو تقتنع به ٠ رفضـت الواقع الذى يربطها به ٠ كان حياته الماضية التى تجهلها زينب أو سـمعت بها ولم تتعرف عليها ، تلوث هذا الواقع وتدينه ٠ ثم هى ترفض الواقـع ٠ لأنها لو قبلته فستتورط فيه ، وسـتقبله الى نهاية حياتها ٠ ستقبل هذه الغربة التى فرضها بينه وبين اهله ٠ ثم فرضـها عليهـا ٠

انها ترفض الواقع لتحتفظ ببقايا يوسـف كما توهمته فى ايامها الأولى ٠ ترفض لتصـون ذكرى علاقة قديمة ٠ ذكرى وهم قديم ظننت يوما أنه حب حقيقى وزواج حقيقى ٠

انه يفهم الان ما كانت تعنيـه ٠٠ ومع ذلك فهو لا يريد أن يواجهها ويصارحها حتى لا تلومه أو تعاتبه أو تنصـحه ٠ لايريد أن يضـطر الى الاعتراف بما فى أعماقه ٠ ماذا يقول لها ٠ أيقول انه من نسـل أب خدعه بتقاليد لا صـلة لها بالحياة ٠ خدعه بتاريخ انقضى ؟ أيقول لها أنه من أم تخلت عن حياة ابيه وهربت منها ، واكتشفت الخدعة ٠ فصنعت لها حياة جديدة ٠ فى كنف لطيف صبرى ٠ وتبرأت منه ومن أبيه

ومن كل ما يمثله من تاريخ وتقاليد وأسلوب فى الحياة ؟

انه يدرك الآن أن هزيمته قد تمت وعجزه قد تحقق منذ ذلك اليوم الذى قرأ فيه قصاصة عصابة اليد السوداء • ولقد جاءت الضربة من عالم ابيه • عالم فاطمة هانم شريف التى كانت على علاقة بأبيه • تلك المرأة التى لوحت له بعصا أهداها لها أبوه ، وطلبت منه ان يتصرف كوالده ، مظاهر ، شكليات ، وكانت أمه تعلم بالعلاقة • وتخفيها وترضى بالمظاهر والشكليات • كل ماقالته له ان أباه هو الذى أعطى العصا الابنوس التى تشبه عصاه لفاطمة هانم • كأنها لا تحمل فى نفسها ضغينة ولا ألما ، كأن ذلك الرجل الذى يتظاهر بالوقار ، زوجها وأبوه •• وقور فعلا ، لا يرضى بفتح النوافذ ، ولا يرضى بسماع الجيران لهمسة فى البيت ، بيتنا اللؤلؤة ، لقد أعطى أبوه عصاته لفاطمة هانم كما لو كان يعطيها رجولته • أيستطيع أن يسخر الآن من كريم شاكر لانه يثبت غليونه منتصبا فى فمه •• ويروى للنزلاء انه قرأ عن فرويد أن هذا مظهر لادعاء الفحولة يلجأ اليه الرجل الذى يشعر بعجزه ؟

ان عصا والده التى أهداها لفاطمة هانم ، لأنها طلبتها منه كما قالت له أمه ، ينطبق عليها نفس الشىء • الأجدر به أن يسخر من والده • أو يسخر من نفسه • لا مبرر له لأن يضيق بمحاولات كريم شاكر لاظهار نفسه بمظهر المسيطر صاحب

الكلمة • كان يسخر منه ويرى فى تصرفه سذاجة أو حماقة من رجل مدع •

ولكن ها هو أبوه أكثر ادعاء وحماقة وسذاجة • هو الذى أفسد الحى • هو الذى أطلق الشر من عقاله فى شخص فاطمة هانم • فسعت الى تدمير لطيف صبرى وتدمير أمه ، عالم يحارب بعضه بعضا ، يأكل بعضه بعضا ، قضوا على أنفسهم ، زينب لا تعرف شيئا عن هذا العالم •

وهو لن يروى لها عن هزائمه وفضائحه • لن يعترف أمامها • انها الملجأ الذى هرب اليه من الهزيمة • لجأ اليها محتفظا بالسر • بالخيبة • حصن نفسه وراء الكلمات كل ما يعنيه أن يرد عليها بكلمة • تتدفق عواطفها • فتتدفق كلماته • كل همه أن يكسب العلاقة بالكلام • أن يتفوق بما يقوله ، هذا أهم عنده من أن يتورط فى العلاقة فيعرى أعماقه ويفضح نفسه ، فترى الهزيمة ، والرغبة فى الانتقام ، والتحدى العاجز ، ترى الفشل وكيف ينتشى به لأنه يفجع أمه ويبكيها •• ومع ذلك كان يملك العواطف ، وكان يحب زينب ، ولكن عواطفه كانت لا تجرؤ على الظهور الا وهو بعيد عنها ، أو يوشك أن يسافر مبتعدا عنها • انه يذكر رحلته فى قارب بخارى فى بحيرة « بايكال » بين الصين وسيبيريا ، كان مع وفد للكتاب ، عندما جاءت لحظة لم يتوقعها وهو يشاهد واحدة من أجمل بحيرات العالم وأكبرها • اختفت من أمامه المياه ، وقمم الجبال ومروجها وهضابها الخضراء ، واختفت الاشجار

العالية ، والسماء الصافية · اختفى الوفد والمرافقون والقارب الذى يجلس فيه ، ولم يعد يرى بين دموع رقيقة فى عينيه غير زينب وهى تضحك تقول له : أريدك ·· أريد أن أمتلكك ·· كانت عواطفها جارفة تغمره بدفء وبهجة ، وكانت مرحة جادة ، وكان مرحا جادا ، قال لها : أتظنين أنى قطعة أرض أو بضاعة ·· هتفت فى حماس : بل عبد أمتلكه افعل به ما أشاء ، قال لها : أمن حقك أن تقتلينى · قالت : أقتلك وأشرب من دمك ·· وهجمت عليه تقبله ·· كم يحبها · كيف ترك تلك اللحظات تفلت منه · جبال العالم ووديانه وبحاره لا تساوى أن يغمض عينيه فيعود الى أحضانها فى هذه اللحظة ·· ذهب الى حجرته فى الفندق وكتب لها خطاب غرام ·· أحبك ·· أحبك بجنون ·· أحبك بطفولة ، أحبك بحماقة وهبالة ·· أحبك بكل ما فى أعماقى من عجز وضعف لا خلاص لى منه بغيرك ·· أنت كل نساء الأرض ·· وأنا عبدك المطيع ·· عندما عاد اتهمته زينب ساخرة أن عواطفه لا تظهر الا اذا غاب عنها ·

قالت له : ان عواطفه رشوة · نوع من اطالة عذابها ، حتى لا يترك لها فرصة لتقطع الشك الذى يعذبها باليقين الأليم · قالت تتحداه : انه لا يعرف كيف يحب ، وعليه أن يعترف أنه لا يحبها · صرخت · الشك يعذبنى وأنا لا أعرف ما الذى تريد أن تفعله بى · اتريد أن تطيل حبل الأمل ليلتف ويخنقنى بخيبة الأمل · قال لها مدافعا عن نفسه : أقسم لك أنى صادق فى كل

حرف كتبته فى الخطاب · هتفت ساخرة : كلمات تكتبها · فطلب منها الخطاب · أراد أن يعيد قراءته،فرفضت · سألها خائفا اذا كانت قد مزقته · فصمتت واجمة · ثم قالت وهى تقاوم انفعالها غير راضية باعترافها ، انها تحتفظ به ، ولكنها لن تسمح له بأن يقرأه ·

كان يدرك أنه لا يستطيع أن يعبر عن عواطفه تعبيرا مقنعا · انه يحاول ، ولكن المحاولة تبدو كما لو كان يقدم مشهدا يؤلفه فى سيناريو ·· كيف يعبر هذه الهوة التى تفصل بين روح وروح ·· تقف حاجزا بين أعماق نفسه وأعماق نفسها · كيف يحطم الحواجز التى تحيط به · كيف يعيد الاتصال بالحبل السرى الذى يربطه عاطفيا بحبيبته أو أمه · انه محاصر بالفراغ الذى تعود عليه · فراغ لم يدخله صديق ولا حبيب · حتى صداقته بمراد حسنين قد توطدت ، أو استمرت لأن مراد سافر وابتعد ولأنه أصبح شخصا آخر يعيش فى عالم آخر ، ولا يلقاه الا فى فترات متباعدة · لولا مراد لما كان الزواج ، هو الذى اكتشف له زينب توءم مريم · هو الذى شجعه على أن يتقدم للزواج · نصيحتى لك يا يوسف ان تفعل مثلى · انا وانت وزينب ومريم · فنضمن صداقتنا طوال العمر · الزوجات يفرقن بين الاصدقاء ·· ستكون قريبا لى ، وأكون قريبا منك · كان يوسف فى حاجة الى الصداقة ، وكان فى حاجة الى قرابة جديدة · عندما وقع حادث السيارة ، وذهبت مريم بكى كما لم يبك أباه أو جده · وتشبث بزينب لانها كل ما بقى

له ٠٠ كل أمله فى الصداقة والأهل ٠ فى التعرف على الحياة ٠ وكان مراد يقول له : هذا الزواج هو بداية الطريق ٠

أنت وزينب معا ستتغلبان على كل أحزانك ، ستضطرك أن تكمل تعليمك ٠ ستدفعك الى جمع ثروة فوق ثروة أعمامك ٠ كانت كلمات مراد تستحثه ، وتملأه بالحماس والطموح ٠ ولكن مجرد التفكير فى خطوة عملية ليشرع فى اتمام تعليمه ، كتسجيل اسمه فى الكلية كانت تفجر فى عماقه كل نوازع الغضب والحقد والشعور بالمهانة ٠ مراد حسنين هو الذى لم ييأس ٠ ظل يبحث عن مخرج لصديقه ، فلما وجده مهتما بقراءة ملفات التحقيقات ، يأخذ بعضها خلسة الى البيت ليقرأها ٠ شجعه على أن يصنع منها قصصا ٠ كانت تحقيقات مدارس البنات هى المفضلة لديه لأنها مليئة بقصص مثيرة يتهلف على قراءتها ٠ بنات هربن من الداخلية مع شبان صغار ٠ شكاوى صحيحة أو كيدية ضد مدرسات متهمات بسلوك مريب مع رجال ٠ مشاكل وشجار بين مشرفات الداخلية والبنات ٠٠

كان يقول لمراد : أنه يقرأ ليتسلى وليتفرج على أحوال الناس ، فقال له : لماذا لا تصنع منها شيئا مفيدا ؟ تذكر كلمات مراد بعد أن تركه وسافر ٠ فسقط فى فراغ مخيف لم يخلص منه حتى وهو يحتضن زينب ٠ كان ما بينه وبين زينب من همسات ولهاث وضحكات حادة ، أو دعابة جارحة أو مرح شديد ٠ ينتهى الى مخاوف تنتابه تطل عليه من أعماقه ٠ تهدده

انه يوشك ان يخرج من حصنه الذى يحتمى به ، فيفضح نفسه ، ويكشف تلك الاغوار المظلمة داخله ، بما فيها من احساس بالغربة وعدم الاطمئنان الى الاخرين ٠ انه لا يجد الراحة فى غربته ووحدته ، ويتمنى أن يخلص من هذه الوحدة ، بأية وسيلة ، بأى ثمن ٠٠ ولكن كيف ٠٠ كيف ؟! لقد أصبح شعوره بالوحدة مرضا مزمنا عليه ان يتقبله ويتلاءم معه ٠ والويل لمن يريد أن يشفيه من هذا المرض لأنه فى الحقيقة يريد أن يفضحه ، يريد أن يقضى عليه ٠

كان يدافع عن نفسه أحيانا بالصمت ، يتألم فى صمت ، ويكبت ردود أفعاله فى مواجهة الاحداث من حوله فى صمت ، ويتعامل مع همس لحوح فى أعماقه أن أحدا لن يفهمه ٠ وأن التعامل مع الناس يحتاج الى بعض المظاهر التى يصنعها بسهولة وخبرة اكتسبها من بيئته منذ طفولته ٠ انه واثق من قدرته على كسب ثقة مدير التليفزيون ٠ قادر على أن يغرى مخرجا بالتعامل معه ٠ الكل يطمئن الى دماثته ٠ يستريح الى حديثه اللبق ٠ انسان مجامل ٠ لا تتوقع منه الشر ، ولا يخطر ببالك أنه وهو يتحدث عن قصصه التى اشتهرت بتناولها لموضوعات عن بنات المدارس وبنات الداخلية والمراهقات وتجارب الحب الأولى ٠ لا يحترم القضايا التى يتحدث عنها باحترام ، لا يثق فى الحلول التى يطرحها فى ثقة لعلاج المشاكل ٠ لا يحترم فى قرارة نفسه صديقه المخرج ٠ أو صديقه الممثل ٠ أو صديقته الممثلة ٠

أو صـــديقه مساعد المخرج أو صـــديقه سكرتير التحرير · أو صـــديقه عامل المطبعة · الكل أصـــدقاؤه · الكل يشعرون باحترامه العميق لهم · الكل أوغاد وحثالة البشر كما يراهم فى ســـره ·

قالت له زينب ذات يوم : انه لولاها لما كان له نفع · وقالت له مرة أخرى : ماذا تفعل لو عرفت أحدا غيرك ؟

وكان دفاعه ضـــــد مثل هذه الهجمات التى تسعى الى استفزازه واخراجه قسرا من حصن وحدته ، هو الصمت ، وقد يقول لنفســـه ، وكأنه يرد على زينب وهى تهدده بأن تبحث لها عن رجل آخر ، أنا لم أفعل شـيئا عندما بحثت أمى عن رجل آخر بعد أبى · ســـكتت ورضخت ، أنا عاجز لا حول بى ولا قوة ، ارتكبى الخيانة اذا شئت ، ولسوف تندهشين عندما تكتشفين عجزى · عندما ترين انى مشـــلول غير قادر على التصرف ، ولكنه ما يكاد يخلص من هذا الحديث الذى يردده بينه وبين نفسه · حتى يثور ، ويرى فى خياله أعمالا من العنف ينتقم فيها من زينب · التى تخونه · يمزقها بســكين · يفقأ عينيها · يقطع لحمها بموس للحلاقة · فتظهـر عليه علامات العنف · بخروجه من البيت ، واختفائه فى بار أو فى بيت أحـد الفنانين · فيشرب وهو لا يدرى كيف تكون نهاية سهرته ·

أحيانا تنتهى سهرة كهذه بشـجار وصياح وشتائم ثم بكاء وهلوسة تثير العطف أو الرثاء ، أو ينقلب الى انســـان مرح

مجنون يقف على حافة شرفة فى الطابق الخامس أو السادس ، ويتشقلب ، ويتقبل أى شىء من الســـخرية الى الاهانة الى الصفعات الى الشــتائم البذيئة التى تنهال عليه ، ولكنه يفيق ويعود الى هدوئه ووقاره وكأنه شخصـان منفصـلان تماما لا يعرف أحدهما الآخر · ويصـــعب على أحد أن يتعامل مع احدهما تعامل صديق أو أى تعامل حميم ·

كانت زينب لفترة طويلة ، هى صـــلته الحقيقية بالناس ، لولاها لسقط يوسف فى بئر يوسـف فلم يخرج منه ، واحتملته زينب · تسأله فى ادق الأمور الشخصية · أتحبنى ؟ ما رأيك فى بنت مع الولد ؟ ساعدنى فى مذاكرة حسن ·· أى ســـؤال شخصى ، يجيب عليه اجابات عامة · العواطف تتحـــول الى منطق · والمشاعر تصبح مواقف شكلية ·

كان يجيب على أســـئلتها ، وهو يدرك بعقله أنه لابد أن يحاول أن يدخلها فى أعماقه على نحو ما أن يشـــترك معها فى مشاعر واحدة ، ولكنه لا يجد غير المجاملة ، والتظاهر بالأدب ، واللباقة ·· ليعبر عن نفســـه فى اللحظات التى تتأزم فيها العلاقة بينهما · نفس اللحظات تحتاج فيها زينب الى احساس بدفء العاطفة ، وحرارة الاهتمـام · فتتعقـد الأمور · لأنها تتبين بســـرعة أنه لا يدعوها الى نفسه ، ولا يمنحها حقها فى دفء العاطفة ·· بل يصنع عامدا دروعا شائكة مخيفة يحمى بها نفسه من الأزمة · كانت تتهمه فى هذه اللحظات بأنه يتعمـد

ازلالها . كيف تتصور أن هذا هو يوسفكما يعرفه الجميع ؟!

وكان يخطر لها ، انه يتعالى عليها ، وانه يعاملها كما لو كان من طبقة أعلى من طبقتها ، فتثور ، وتسبه وتشتمه هو وأهله وآباءه وأجداده ، النصابين الأدعياء ، الذين لم تر لديهم ثراء . أو جاها يذكره الناس ، فيستمع اليها غاضبا . يتمنى لو استطاع أن ينقض عليها ويفتك بها ، أو يطلقها ويستريح ، ولكنه عاجز عن أن ينقض أو يفتك أو يطلق. يتساءل في قرارة نفسه ، هل هذه الاهانات أبشع أو أقدح مما لحقه من اهانات يوم تزوجت أمه لطيف صبرى . هل هذه الاهانات أبشع أو أقدح من أهانة أعمامه له ولشقيقته وأمه ؟

كان مراد حسنين هو أقرب الناس الى فهمه ، أو على الاقل أكثر الناس قدرة على التعامل معه . وكان من رأى مراد ان يتصرف عمليا ليواجه أزماته مع زينب .

قال له مراد انه اذا لم يستطع أن يكسب زينب بالمشاعر ، فلا أقل من أن يلجأ الى وسائل أخرى .

فسأل يوسف :

ـ أية وسائل ؟

قال مراد :

ـ تهور يا أخى .

فسأله :

ـ كيف ؟

زعق مراد ..

ـ أى شيء اصرف . انفق نقودك في بذخ .. تصرف بحماقة .. اشتر بكل ما معك ملابس أو عطورا لها .. على العموم لابد أن تتهور في شيء ما .

حاول هذا البذخ المحدود . الذى يقيده دخل محدود . وحاول أن يتهور في علاقته الجنسية ، فتظاهر بالعنف . وبالرغبة المفرطة الجامحة . ولكنه زاد الموقف تعقيدا . فرغم هذه المحاولات . بل بسببها اكتشفت زينب بسرعة هذا الفراغ الذى يتعامل به . شعرت بغريزتها أنه يتظاهر . أنه يفتعل ، ورفضت ان تصدق أنه يعذب نفسه ويتورط في هذا التظاهر المرهق . لانه يريد أنيتقرب منها ، وفقدت زينب طعم الجنس، وقاومته لأنها لا تريد منه التظاهر السمج ، ونفرت منه ، وكان ذكيا ، فأدرك فشله،وأدرك أنهجرح مشاعر زينب ، وأن لديها العواطف التي تعبر عنها بحرية ، على عكس عواطفه الخرساء . وأدرك أن تصنعه ومحاولته تأدية دوره كممثل بارع ، لا صلة لها بالعواطف . قد تكون محاولة لشرح العواطف . ولكنه شرح منفر . ولم يعد قادرا على مواجهة لقاء مع زينب قد ترضى به . الا بعد أن يشرب حتى يخمد كل قدراته على التصنع والتظاهر . ولكنه كان يفقد في نفس الوقت قدراته الكاملة كرجل .

وكان لابد أن يأتى اليوم الذى تدرك فيه زينب كل شيء ..

ولم ترحمه ·· قصصك وسيناريوهاتك منقولة من ملفات التحقيقات ·· باردة لا حياة فيها ، فيتألم ، ويشعر أنه لا يستطيع أن يجد من يمنحه حرارة الاصالة ·· أو جنون العبقرية ·· ليصبح فنانا حقيقيا ·· ويلوم زينب لأنها تخلت عنه فحرمته من موهبة كان واثقا أنه سيمتلكها لو صبرت عليه ، ووقفت معه حتى النهاية ·

وجاءت سنوات الذل · زينب تكمل تعليمها الجامعى ·· زينب تلتحق بوظيفة ساعدها فى الحصول عليها مراد حسنين ·· زينب تشترى عربتها الخاصة ·· وتعتمد على مرتبها الكبير فى فندق برستيج · ما عادت تهتم به ، وما عاد يشعر نحوها ، الا بأنها مصدر اهانة وتحد ·

وأفاقا ذات يوم على كارثة الولد ، ولكنها لم تكن البداية ·· كانت خاتمة ما حدث فى العلاقة من انهيارات ·

ولم تبق له الا وحدته ، وقد تخلى عنه الجميع · بعد ان تخلت عنه زينب ·· زينب التى لن تتكرر فى حياته، وتخلى عنه ابنه · ابنه الذى لن يتكرر فى حياته ·

حاول أخيرا أن يخلص من أزمته · بكتابة سيناريو لحلقات تتناول مشاهد من حياة والده وجده والشيخ عبد السلام ·

قال له المخرج محمد صفوت :

ـ هذا سخف · الناس لا تهتم الآن بمثل هذه الشخصيات ·· لقد اختفت من المسرح منذ أيام على الكسار ·

ثم أردف قائلا :

ـ أما أن نصور حلقات تظهر فيها شخصية لشيخ الأزهر فهذا محال · لا داعى لأن نورط أنفسنا فى أمور اذا غضب أصحابها · نسفونا فى لحظات ·

كانت آخر المحاولات لكتابة السيناريو ، عندما طالبوه بأن يبدأ من جريمة ابنه فيكتب حلقات يدين فيها الارهاب باسم الدين · معتمدا على وقائع القبض ومحاكمة جماعة « التقوى والتقية » واعدام زياد الأسمر ، والحكم بالاشغال الشاقة المؤبدة على ابنه حسن ·

ورضخ أول الأمر للطلب ·· وحاول الكتابة ·· ولكن احساسا دنيئا انتابه · انه يستثمر كارثة ابنه ·· انه يتصرف بنذالة لينقذ نفسه من الاتهامات التى يتسلى الناس باطلاقها للتلذذ برؤية الفريسة التى وقعت تتلقى الاهانات والركلات والطعنات ·

كان يتلفت حوله مذعورا ، لا يدرى من أين المخرج من هذه الكارثة ·· وكان يطوف به خاطر غامض لا يكاد يتبينه ·· أنه لو كان قد عرف الحب ·· لاستطاع على نحو ما أن يحلق فوق هذه المصائب التى تلاحقه ·

لو كان عرف الحب ·· وانتفض ، وهو يرى أمامه باب قاعة الدومينو ·

قبـــــــــــــل

أن تمتد يده ليدفع باب قاعة الدومينو ، سمع صوتا خشنا حادا آمرا يناديه :

ـ يوسف ·· يوسف ··

التفت وراءه ، فرأى عجوزا مقوســـة الظهر تســـتند فى انحنائها على عصا الأبنوس التى يعرفها جيدا ·· عصا والده أو عصا فاطمة هانم شريف · لم يتردد لحظة فى معرفة العصا ، لم يخالجه أدنى شك أن هذه العصــــا هى نفس العصــــا · تسمر مكانه متصلبا متشنجا يكاد يتهشم لو بدرت منه حركة ·

صاحت العجوز :

ـ يوسف ·· تعال هنا ··

أهــذه هى فاطمة هانم الشريف · أهو يحلم · أهى حقـــا فاطمة هانم أهذا كابوس · أتكون هذه المرأة هى فاطمة هانم ؟ رفعت العجوز العصا الأبنوسية بنشاط لا يتوقعه · وأصدرت أمرها ·

ـ قلت لك تعال هنا ·· ألا تسمعنى ؟

لابد أنه مشى اليها · خطوات مشاها فى الكابوس · ها هو وجهها المســـــتدير المكرمش · عيناها الزرقاوتان فى فجوتين

غائرتين ، عينان جافتان ، شـــــعرها الابيض تغطيه عمامة بيضاء · شفتاها خطان حادان فى وجه من الجبس · فستانها أحمر منقوش بورود كبيرة صفراء ·

سمعها تقول :

ـ لماذا لم تنتظرنى ؟

لم ينبس بكلمة ، كان مشـغولا بالبحث عن شئ يفتقده ، شئ ما له أهميته القصوى ، ولكنه عاجز أن يحدده أو يدرك كنهه · او عثر على هذا الشئ الذى افلت منه ، لاستطـــاع أن يواجه ، يجيب على الأسئلة ، ويلقى الأسئلة · لاستطاع أن يفعل أشياء أخرى ، يقدم على تصرفات يعلم عن يقين أنه قادر على القيام بها · لولا أنه لا يستطيع الا أن يحدد هذه التصرفات قبل أن يعثر على هذا الشئ الذى ضاع منه ·

سمع المرأة تقول :

ـ أنت لا تشبه منصور ·



فهمس :

ـ أنا ·

وضاعت منه بقية الكلمات ·

قالت المرأة بلهجتها الآمرة :

ـ لن تقف هكذا ·· تعال نجلس ·

واشـــارت الى أريكة بجوار أحد الأعمدة الرخامية فى البهو • كان الرجل الأصلع واقفا عند الاستقبال أوراقا بين يديه ، وكان بعض النزلاء يجلسون فى جانب بعيد مشغولين بحديث •

تقدمته العجوز • تتوكأ على العصـــا الأبنوس ، عيناه تلاحقان العصا • وصوت ملح يدوى فى رأسه ، فى صدره ، اهذه هى فاطمة هانم شريف •

قالت له :

ـ اجلس •

جلس بجـوارها • ثقبـان زرقتهما كالحـة ، حصـوتان مصوبتان الى عينيه •

قالت :

ـ ميرزا اخبرنى بوجودك معنـا •• طلبت منـه أن اقابلك لأطمئن عليك •

وجد نفسه يهمس :

ـ حضرتك فاطمة هانم شريف ؟

قالت بصوت خشن ويدها تتشبث بالعصا الأبنوس :

ـ نعم •• أأنسيتنى ؟

همس حائرا ، يفزعه الفراغ الذى يسقط فيه • يفزعه انه لا يستطيع أن يجد ذلك الشىء الذى يبحث عنه •

آسف ••

قالت وقد رفعت صوتها :

ـ أبوك كان لا يعرف كلمة آسف •• ولكنك لم تعرفه •• لقد ربتك كوثر •

همس :

ـ أنت ••

ولم يكمل •• كان يريد أن يقولهـا أنت عصـــابة اليـد السوداء •

قالت :

ـ نعم •• انا جارتكم •

همس وهو يتشبث بنظراته بالعصا الابنوس :

ـ هذه العصا •• لأبى •

افتر خطا شفتيها عن شق يعلن أنها تبتسم • وقالت :

ـ نعم •• أعطاها لأنى كسرت عصا وأنا أضربه •

نظر اليها فى غباء ، فاتسع الشق فى فمها ، ومدت يدها وقبضت بأناملها على أصابع يده ، شعر بملمس خشن بارد ، واهتز رأسها ، وارتفع صوتها كأنها تخاطب كل من فى البهو •

ـ عندما نتشاجر لا ندرى ماذا نفعل •• ولا المجانين •• شىء لا يتصـــوره العقـل •• كان راقدا أمامى على السرير متظاهرا بالنوم •• لا يريد أن يسمعنى •• أحضرت عصـــا كنت أحتفظ بهـــا فى الدولاب •• لا أدرى لماذا ؟ ربما كنت اقول لنفسى لعلى أحتاج اليها لو هاجمنى اللصوص •• عصا

جميلة من الجوز التركى ٠٠ كانت لزوجى الأول ٠
ووقفت على رأسه ٠٠ وقلت له : قم يا منصـــور ٠٠ فتظاهر بأنه لا يسمعنى ٠٠ فرفعت العصا وهبطت بها بكل قواى وعزمى على ظهره . فانكسرت ٠ خفت ، قلت منصور راح ، فلما رأيته سليما هجمت عليه أخربشه وأعضه بأسنانى وقد تملكنى الغيظ ٠

وتصالحنا وجاء لى بهذه العصا ، لأن قلت له انى حزينة على العصا التى كسرتها على ظهره ، كنا كالمجانين ٠ جاءنى بهذه العصا ، تماما مثل عصاه ، وقال لى انها لن تتكسر ٠

وهزت العصا فى يدها قائلة :

ـ هذه هى كل ما بقى من منصور ٠

أينتزع العصا الأبنوس منها،أيصرخ فيها انه الوحيد الذى بقى من منصور ٠٠ انفجر فى رأسه ، يريد أن يلم أشـــتاته المبعثرة ، يريد أن تتوحد فى أعماقه المشاعر ٠

وهو الآن يدرك تماما أن عليه أن يواجه هذه المرأة ، وكأنه منصور الذى عاد فى شخص ابنه ، ليخلص من هذه الشمطاء ويلفظهــا الى الأبد ٠ ولســوف يحســم هذا الأمر الآن وفى الحال قبل أن يتجه الى قاعة الدومينو ، سيقول لهذه المرأة انها مجرمة شريرة ، ســيقول لها أنا ابن منصــور ســـالم احتقرك ، واذا كان أبى قد قضى معك بعض الوقت فى علاقة منحطة محرمة ، فأنا ابنه أستنكر وأشجب هذه العلاقة ٠ انها

جريمة ، ولن أســمح لها بأن تمد آثارها ، الجريمة لا تعم ، انها تحاصر بالمقاومة والصمود ، بالقدرة على التصــدى ، انها تعم بالسكوت والاذعان كما فعلت أمى ٠

رفع صوته :

ـ أنا الذى بقيت بعد أبى ٠٠ لا هذه العصا ٠

قاطعته ساخرة مستنكرة :

ـ أنت ٠٠ أنت لا صلة لك بمنصور ٠

قال غير مصدق ما يسمعه :

ـ انه أبى ٠

قالت بسخرية أشد :

ـ أنا لا أحدثك عن رجل تقول انه أبوك ٠٠ أنا أحدثك عن حبيبى ٠

فقاطعها قائلا فى تحد :

ـ لا يعنينى الحديث عن نزوة ارتكبها أبى ٠٠ ما يعنينى هو جريمة ارتكبتها عصابة اليد السوداء ٠

هتفت بسرعة ، وقد تحول الشـــق فى وجههـا الى فجوة تكشف عن أسنانها الصناعية :

ـ أنت غبى ٠٠ لا تفهم شيئا على الاطلاق ٠

ورفعت العصــا فجاة ، وضربته على ساقه قائلة بلهجتها الآمرة :

ـ انتم السبب فى تعاسة منصور ٠٠ انت وامك كوثر ٠٠

وأختك كريمة .. وجدتك وأعمامك ومحمود البواب وزوجته نور .. وابراهيم السائق .. كلكم .. كلكم .. لم ترحموه لحظة واحدة .

وعادت تضربه مرة أخرى على ساقه ، قائلة :

ـ أنتم أعداؤه .. وأنا وحدى حبيبته .

جلجل صوتها فى البهو ، لا يعنيها أن يسمعها أحد ، بل بدا وكأنها فخورة بالحديث عن فضائحها ، وكان لضربة العصا وقع غريب فى نفس يوسف ، فمع الألم الخفيف الذى شعر به ، انتابه احساس مفاجىء بالألفة ، كأنه يتذكر أباه ، كأنه يتسلسل الى عالم بعيد الأغوار يختبىء فيه أبوه ، عالم فيه دفء ولذة لها مذاق خاص .

وبهذا الاحساس الذى اختلط به فضول لمعرفة المزيد عن أبيه ، أو عن نفسه ، استسلم لفاطمة هانم تروى له ذكرياتها مع أبيه ، ترويها كما لو كانت بطلة تحكى عن أمجادها لصحفى أو مذيع تليفزيون .

منصور هو الرجل الوحيد الذى أحببته ، وأنا المرأة الوحيدة التى حبها . انتهم لا تعرفون الحب كما نعرفه . الحب الذى عشنا به سعادة ، هى النعيم وأتعسنا وحرقنا بجحيم لم يحترق به أحد غيرنا .

منصور هو أسعد أيامى وأتعسها . هو رجلى وأنا امرأته. كان يهيننى ويذلنى ويجعل منى ، من جسدى وروحى ، جارية

بلا كرامة ولا كبرياء ، وهو الذى كنت أذله وأهينه وأخضعه كعبد بلا كرامة ولا كبرياء . ولكن ما بيننا كان فوق هذا الكلام الفارغ . الكرامة والشرف والاحترام .

وهذه المظاهر التى كانت تبيعها له كوثر فى بيتكم . كان لا يستريح الا بين ذراعى ، يتعذب فى بيتكم . مسئوليات وواجبات ، يتشاجر مع كوثر فيأتى الى ليستريح ، تمرض أنت فيحضر لك الطبيب ويقلق وتقلق كوثر فيطفش من بيتكم ويأتى الى ليستريح .

الدنيا كلها بما فيها لا تساوى عنده غير تلك اللحظات التى كنا نلتقى فيها .. أدلله،أرقص،أغنى له ، أنت لم تر منصور يضحك كما رأيته أنا ، ولم تره يبكى كما رأيته أنا ، أنت لا تعرف عنه الا أنه أبوك ، أما منصور سالم الحقيقى ، منصور بلحمه وعظمه ودمه ، فهو أنا .

لم أنجب غيره ، فهو ابنى وأبى وأخى .. روحى وحياتى . أنا التى ضاع منها منصور . لا كنت أريده زوجا ولا رجلا يتحمل مسئوليات ولا متاعب ولا مشاغل ، ولا أى شىء . أريده هو لذاته ، لا لشىء سواه . أما أنتم فقد صنعتم له مصيدة ، بيتكم كان مصيدة لاضطهاد منصور .. مسكين ، كان لا يحتمل البهدلة ، منصور الحلو الرقيق .

ورفعت فاطمة هانم يدها المعروقة الخشنة الى وجهها ، وتحسست الاخاديد فى بشرتها المكرمشة ، وقالت :

ـ لست مثل الاخريات ينظرن الى المرآة ويتحسرن ‥ هذه الكرمشة فى وجهى ليست بفعل الزمن ‥ انها بفعل منصور ‥ زمنى هو منصور ٠

وهتفت بحدة وشراسة :

ـ اتفهم هذا ‥ يا من تدعى أنك ابن منصور سالم ٠

قبل أن يجيب ، كانت تهتف :

ـ أنت تذكرنى بكوثر ، يوم جاءت الى تتوسل وتبكى لأترك لها منصور ‥ قلت لها : انا أحبه وهو يحبنى ‥ ولكنها قبلت أن تعيش معه ٠ كان لا يعنينى أمرها ‥ ما عداى وما عداه لا قيمة له ‥ أشـــياء تمر ‥ حياة يومية ‥ زواج وبيت وأولاد وعلاقات اجتماعية وناس تقابلهم ‥ كل هذا يمر ‥ فقط ‥ تفاهه ٠

المهم هو ان منصور لى وانا له ‥ لا يعنينى ولا يعنيه أن تقول كوثر أن ما بيننا عشق أو فسق او أى كلام تقوله ‥ لأنها لا تفهم الحب ‥ انها تفهم الخداع ، والعجز والكذب والجبن والخوف ‥ انا التى ضاع منها منصور ، أما هى فلم تخسر شيئا ٠

قال يوسف هامسا وهو يقاوم دوارا يهاجمه بقسوة ٠

ـ تحقدين على امى الى هذا الحد ؟!

قال فى قحة وشراسة :

ـ انا امراة وهى امراة ‥ ونحن نفهم بعضنا جيدا ‥

انها لا تستطيع أن تدعى أمامى أنها حزينة على فقد منصور ‥ هى التى جاءت الى بيتى على استعداد لأن تقبل حذائى ‥ وقد ظنت انى أريد أن اتزوج منصور ‥ لم أشعر فى يوم ما انى فى حاجة الى أن اتزوجه ‥ ولو ردت لفعل ‥ ولكنى لم أطلب منه شيئا على الاطلاق ‥ ما كنت فى حاجة الى أن اطلب منه لأنه لى ‥ انا وهو كيان واحد ‥ وأنتم الغرباء عنـــا ‥

قال يوسف وهو يقاوم السقوط فى حلقات الدوار :

ـ اذا كان هذا صحيحا فلماذا أرســـلت لى ذلك التهديد باسم عصابة اليد السوداء ٠

قالت بسرعة :

ـ كان منصور قد ضاع منى ‥ ومرت بى لحظات خيل الى أن منصور قد تقمصنى ‥ روحه تلبستنى ‥ أردت أن أجعلك تتصرف كأبيك ‥ أنبهك الى خداع كوثر ٠



قال يوسف بصعوبة باذلا جهـدا يفوق طاقته لمقاومة الدوار :

ـ أنت التى ســـعت للزواج من لطيف صبرى ٠

فاهتزت ضاحكة ‥ ضحكاتها خشـــنة عالية وقحة ‥ وقالت :

ـ اذا كانت هناك من هى فى حاجة الى المواساة فهى انا ·· اتزوج لطيف كما تزوج منصور كوثر ·· ولكنها هى التى تزوجته ·· تغور به ·

همس يوسف وهو يتنفس بصعوبة ·
ـ ولكنك أفسدت حياتى ·
صاحت ساخرة :
ـ هل تفهم أنت معنى الحياة ·· لتقول لى ·· أفسدت حياتك ·· على أية حال لست المسئولة ·· أبوك هو الذى عاش حياته وحياتك ·· وحياة الناس كلها ·· لم يكن على استعداد لان يترك لأحد لحظة واحدة من حياته ·
همس يوسف يبذل محاولة مضنية للتخلص من ارهاق الدوار ·
ـ لن أكرر الخطأ ·· سأعطى من الآن كل حياتى لابنى ·
هتفت :
ـ حدثنى ميرزا عنه ·· الجميع هنا يعرفون الحكاية ·· يرويها محام اسمه رأفت الحلوانى ·

وأمسكت بذراعه قائلة بصوت خفيض :
ـ انه يقول انك اتفقت مع التليفزيون فى مصر على كتابة حلقات تتبرأ فيها من جريمة ابنك ·· وانك قبضت الثمن ·
همس :
ـ لم استطع كتابتها ·

قالت بسرعة :
ـ ولن تستطيع أن تفعل أى شىء على الاطلاق ·
قال وهو لا يدرى كيف حصل على القدرة على النطق ·
ـ معى الدليل الذى يثبت براءته ويخرجه من السجن ·
صاحت مستنكرة ·
ـ تخرجه ليقتل من جديد ·
همس :
ـ ليعيش حرا ·
صاحت :
ـ معك ··
ارتجف ·· وسمعها تقول :

ـ لو كان بقى لديك شىء من منصور لعلمت أننا نعيش لحظات نهائية ·· ليس فيها تردد ، ولا عودة ، هذا هو ما كان بينى وبين منصور ·· كل لقاء هو أول وآخر لقاء ·· ولذلك كان لقاء مستمرا متجددا ·· ولكن هأنت بعد أن اتهمتنى بأنى افسدت حياتك بقصاصة ورق أرسلتها اليك ·· تريد أن تصنع نفس الشىء ·· تريد أن تنقض على ابنك ، لتخرجه من السجن الذى أراده لنفسه ، وتقول له انفض الظلم ، واخرج الى الحرية التى اتمتع بها ·

رأى حسن وهو يسمعها · كان حسن يقول له السجن أحب الى مما تدعوننى اليه ، وتجمعت فى صدره صرخة ، يريد أن

يطلقها ، سبابا وشتائم ·· يا أولاد الكلب ·· كلكم كلاب ·· صرخة مدوية فى فضاء حياته بكل ما فيها من وعى وذكريات ، أهذا هو الجنون الذى يتحدثون عنه ، لابد أن يحطم شيئا ·

سمعها تقول :

ـ عندما أرسلت لك تلك الورقة ·· كنت مازلت أتوهم انك ابن أبيك ·· ولكن منصور ليس له أبناء ·· ولسوف تفهم هذا

ـ عندما أرسلت لك تلك الورقة ·· كنت مازلت أتوهم أنك تريد أن تشعر ببعض المهانة ·· لتدرك حقيقة الأمر ·

صرخ :

ـ أنت كاذبة ·· لقد جئت تسعين ورائى لأنى ابن منصور سالم وقلت انك تريدين الاطمئنان على ·

قالت هازئة :

ـ لماذا تتمسك بكلمات مجاملة ·· لقد جئت لأطمئن على نفسى ·· لأرى كما تبينت الآن أنى على حق ·· أن منصـــور بأكمله لى ·· لم يترك شيئا لأحد غيرى ·· حتى أنت الذى يحمل اسمه ·

ـ لماذا تتمسك بكلمات مجاملة ·· لقد جئت لأطمئن على خلف عمود الرخام ·

ـ مدام فاطمة تجلس مع الأستاذ ··

والتفت الى يوسف قائلة :

ـ ظننت انك سافرت ؟

قال وهو يلم شتاته :

ـ سأفعل الآن ··

قالت ليلى وهى تقترب منه تمد يدها تتحسس جبينه :

ـ أنت مرهق يا أستاذ ·· لقد تركتك آخر مرة رأيتك فيها وأنت أحسن حالا ·· ما الذى حدث لك ·

تمتم هاربا من التفكير :

ـ لا شىء ·

فقالت فاطمة هانم بصوتها الخشن مخاطبة ليلى :

ـ لماذا لا تتولين علاجه ؟!

قالت ليلى وهى تجلس على مقعد قبالتهما :

ـ هذا ما حاولته يا فاطمة هانم ·· ولقد جاء ومعه كتاب رجوع الشيخ ·· وقلت له انى سأقرأه معه ··

قاطعتها فاطمة هانم وهى تردد كأنها تتذكر شيئا ·

ـ رجوع الشيخ ·· رجوع الشيخ ·

ثم هتفت بأعلى صوتها فى حماس :

ـ آه ·· نعم ·· رجوع الشيخ الى صباه ·· وامسكت بالعصا الأبنوسية ، وضربت ركبة يوسف بانفعال وسألته :

ـ من أين جئت بهذا الكتاب ؟

همس يوسف :

ـ من مكتبة ابى ·

صاحت فاطمة هانم :

- هذا الكتاب .. سرقه أبوك من مكتبة الشيخ عبدالسلام .. لقد قرأته معه .

وأردفت متهللة :

- لقد أضفنا الى هذا الكتاب فصولا لا تخطر ببال أحد .. ولا فى الخيال .

والتفتت الى ليلى تسألها فى فضول شديد .

- وهل قرأتما معا ؟

قالت ليلى بصوت بارد :

- للأسف .. وجدت أنه مشغول بأشياء أخرى .. تجعله غير مستعد للتجاوب مع العلاج .. وكما تعلمين لابد أن يطلب المريض العلاج بنفسه .. ويثق فيه .

قالت فاطمة هانم ساخرة :

- بينى وبينك .. أنا لا أفهم ما تفعلينه .. انها مسألة مزاج ورغبة ومتعة .. وأنتم تحولونها الى وظيفة .. انه قد يقرأ معك كتاب رجوع الشيخ .. وقد تدرسين له كل مواقف الكتاب .. ولكن هذا يختلف تماما عما عرفناه أنا ومنصور .

قالت ليلى باهتمام :

- لعلك تساعدينى ؟

صاحت المرأة بلهجة انتصار :

- كيف ؟

- تشرحين لى .

فالتفتت فاطمة هانم الى يوسف قائلة فجأة :

- أريد أن أرى الكتاب ؟

همس يوسف :

- انه فى حقائبى ..

قالت :

- اذا سافرت .. فاتركه لى .

فنظر اليها واجما .. بينما قالت فى ثقة وبلهجتها الآمرة .

- لن تنسى .

التفت يوسف الى ليلى وسألها .

- كنت أظن أنك مشغولة الآن مع كوستا .

سألته فى دهشة :

- لمـــاذا ؟

قال يوسف :

- يقول انك ستذهبين به الى مكان فى الصحراء يختفى فيه .. فتنهدت ليلى قائلة :

- لا أدرى من الذى أطلق هذه الاشاعة ؟

ثم قالت فى حيرة :

- أحيانا اكاد أصدقه .. حتى أنى سأحاول أن أبحث معه عن ذلك المكان الذى يقول انه موجود فى الصحراء .

صاحت فاطمة هانم :

ـ كلام فارغ ·· لا يوجد مكان آخر فى هذه الصحراء ·
ونهضت تتوكأ على عصاها الأبنوس ·· قائلة ليوسف :
ـ ساصعد الآن الى حجرتى ·· ولا تنس اذا سافرت ان تترك لى الكتاب·

احنى يوسف راسه بالتحية ·· واحنى راسه بالتحية لليلى ·· وأسرع هاربا من نفسه وافكاره الى قاعة الدومينو ·

ما لم يتوقعه أحد ، ولا يوسف نفسه ، ما كاد يدفع باب قاعة الدومينو حتى وجد نفسه وجها لوجه امام كريم شاكر · غليونه منتصب فى فمه ، وبلا تردد وكأن قوى خفية تدفع يوسف ، اذا به يهجم على كريم شاكر ويعانقه ويقبله فى خديه بحرارة كأنه صديق حميم افترق عنه منذ سنوات ، لم تبد الدهشة على كريم شاكر ، وتقبل حرارة العناق وكأنها أمر عادى ، واندفع يوسف فيما اندفع اليه بشوق وحنين بلا تفكير فيما يفعل ، الذى أدهشه هو نظرات اللواء الحوت اليه ، وكان جالسا الى منضدة خلف كريم شاكر يلعب الدومينو مع فؤاد برعى والدكتور المنجى وآدم ويشنفسكى · وكان الحوت قد توقف عن اللعب يرقب يوسف وكريم شاكر ، والدكتور المنجى يحتج لأنه لا يحتمل توقف اللعب والتلكؤ فيه ، والتفت الى يوسف قائلا له فى عصبية :

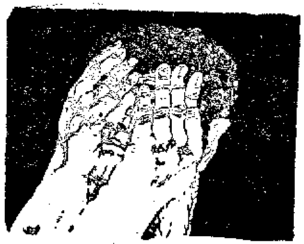
ـ انا لا افهم لماذا يربك أمثالك لعبنا ·· ما الذى جاء بك ·· أرجوك لا تعطلنا ؟

قال يوسف ضاحكا :
ـ لا شأن لى بك يا دكتور ·

فصاح المنجى ·
ـ كيف وقد عطلت اللعب ·· غور يا أخى وخلصنا من وجهك العكر ·

فهتف كريم شاكر فى مرح :
ـ آه منك يا قليل الأدب ··
بينما دوى صوت خليل فى القاعة وهو يلعب فى الركن البعيد ·

ـ ها هو قد جاء ·· مسكين حظه من الخلف ·
صاح المنجى :
ـ حظه من الخلف ·· من قدام ·· لا يهمنا ·
قال خليل هاتفا :
ـ هل نسيت يا دكتور أن الولادة من قدام ·· يا اهبل من عليها ترلم ترلم ··
كان الحوت قد انتهز الفرصة · ليهمس فى اذن يوسف وصوته لا يخلو من الدهشة والعتاب ·



ـ ماذا حدث يا أستاذ ·· هل غيرت رأيك ؟
قال يوسف :
ـ لا ·· ولكنى انشغلت بعض الوقت ·

فصاح المنجى فى الحوت ·
ـ هذه سخافة ما بعدها سخافة ·· كيف تنهض وتترك اللعب ·

همس الحوت فى أذن يوسف متجاهلا صياح المنجى :
ـ على أية حال خذ وقتك ·· لسنا فى عجلة ·· لا فرق اذا سافرنا اليوم أو غدا ·
ونهض آدم ريشفسكى ·
وصاح المنجى :
ـ أنت أيضا ·· ماذا حدث لكم ·· ما سر هذا الهياج ·
وصاح خليل فى آخر القاعة ·
ـ هياج يا أهبل من عليها ترلم ترلم ·· قلت لك انه حظه من الخلف ·· افهموها بأه ·
همس آدم ريشفسكى قائلا لكريم شاكر بلهجة جادة :
ـ خذ مكانى يا كريم ·· أريد أن أتحدث مع الأستاذ يوسف ·
همس الحوت فى أذن يوسف محذرا :
ـ أنا لم أقل لهم شيئا بعد ·· ولكنهم يتوقعون سفرنا ··
صحب آدم ريشفسكى يوسف الى الحجرة المجاورة ، وهو يقول بلهجة جادة حزينة :
ـ عندما رأيتك هنا لأول مرة ·· أصابنى تعب ·· وأنا أحاول أن اتذكر أشياء هامة حدثت فى حياتى ·· لها صلة بك ·

جلسا متجاورين ، وعينا آدم ترمقانه بتلك النظـــرات الحزينة ، قبل أن يقول :

ـ لقد مضى وقت طويل نسيت فيه كل شيء ·· ولم أعد فى حاجة الى أن أتذكر ·· أنت تعرف أن أيامنـــا هنا تمضى فى اللعب ·· لا نعرف لليوم اســـما ولا للشهر اسما ولا نذكر السنة ·· ولا نهتم بالمواقيت ·· أو الفصـــول ·· هذا هو الوضع الذى يريحنا ·· فعندما يحدث أن تأتى مناسبة مثل حضورك ، تتحرك الذكريات ·· ولكن ببطء وصـــعوبة ، وهذا يرهقنا ·· لم نعد نتحمل نبش الماضى ·· ولكنى بمجرد أن رأيتك خيل الى أنك تعرف العبرية · وســـألتك فقلت لى انك لا تعرفها ·· وسألت نفسى ما الذى جعلنى أعتقد أنك تعرف العبرية ولكنى الآن أعرف كل شيء ·· لأنى تذكرته على مهل ، اعرف انك لم تفهم كلمات بسيطة من العبرية ، كلمات عاطفية مثل « أنى أو هيفيت أو تخا » ·

وابتسم آدم محتفظا بعينيه الحزينتين ولهجته الجادة ·

وسأل يوسف :

ـ أتعرف معناها ؟

تمتم يوسف فى دهشة ·

ـ لا ··

قال آدم باسما بصوت هام :

ـ كانت جابى اسكنازى تقولها لك ·· يوما ما ·· قبل أن

تضحيا بحبكما من اجل قيام اسرائيل ·

انتفض يوسف مذعورا هاتفا بصوت يكتمه الانفعال :

ـ أنا ·· ما صلتى باسرائيل ؟!

أطرق آدم برأســه لحظة ، واغمض عينيــه ثم فتحهمــا ، وصــوتهما الى يوسف ، أضــاف الى الحزن فى عينيه لمعة باردة · وقال :

ـ ضحيتما بحبكما ··

همس يوسف فى دهشة :

ـ أنا لم أضح ؟

قال آدم فى هدوء مريب :

ـ هى ضحت وهى تعلم ·· وأنت ضحيت وأنت لا تعلم ·

همس يوسف :

ـ لا أعلم ماذا ؟!

قال آدم فى هــدوء :

ـ انك تضحى بحبك ·· تضحى بمن أحبتك ··

تدفقت مع كلمات آدم ريشفسكى فترة من حياة يوسف كان يظن حتى تلك اللحظة ، انها فترة عابرة ، فترة انتقالية بين الطفولة والرجولة ، فترة كتب عنها قصة قصيرة ظن أنها تافهة ·· فترة السنوات الأولى لدراسته فى كلية الحقوق ، أوائل الأربعينيات الحرب ، وجابى اسكنازى ، وحفلات الماتينيه فى سينما رويال والمتروبول ، والرقص فى جروبى سليمان باشا ،

واغانى باهيا ، وكوكا راتشا ، وسامفونى ، وجوزيف جوزيف ·

الأيام التى سمع فيها لأول مرة عن الكاشير والطريف · الحاخام الذى يذبح الدجاجة بأن يسحب السكين على رقبتها مرة ونصف مرة · اللبن الذى يشربه اليهود واللبن الذى لا يشربونه · القلنسوة على الرأس ، والبكاء والكتب الصفراء التى كانت الملاذ يوم هبت تلك العاصفة التى قلبت نهار القاهرة ليلا ·· كان يحب جابى بكل مراهقته ، بكل شبابه ، بكل حريته أمام المستقبل ·

ولكنه كان يتفرج على حياتها ، وأهلها ، ويدهش أو يتعلم ، لانه لابد أن يعلم شيئا عن حياة الفتاة التى أحبها ، ويتوقع أن يأتى اليوم الذى يطلبها فيه للزواج · كان شقيقها كلود يكثر من القراءة ، هو أول من حدثه عن الشيوعية والفاشية ان الفارق بينهما كبير ، كان لا يعنيه كثيرا أن يعرف الفارق ، ولكن كلود كان لحوحا ، جاءه ذات يوم بكتاب رواية لكاتب روسى اسمه « أوستروفسكى » ·

قال له يوسف انه لا يجيد الفرنسية ، وان عنوان الرواية نفسه لا يستطيع أن يترجمه · حدثه كلود عن الحديد الذى أصبح صلبا · قال له انه سيعلمه الفرنسية ، وسيترجم معه الرواية ليتعلم هو أيضا العربية · ضحك يوسف وقال ما الذى يشغلنى برواية عن الحديد الذى أصبح صلبا ؟

حول تلك الأيام ظهر دافيد · فوجىء به · عندما ذهب الى شاطىء النيل حيث تنتظرهم المركب البخارية التى أجروها فى رحلة تحت ضوء القمر الى القناطر · كان قد انشغل مع طلعت طوال اليوم فى تجهيز السندويتشات وصناديق الكوكا ·· وزجاجات البيرة ، والجرامفون والاسطوانات لأربعين ولدا وبنتا · عشرين كوبل ، فى رحلة العمر · وجدها جالسة عند الحاجز على سطح المركب على الأرض بجوارها الولد الأشقر ذو العينين الزرقاوين فى ملابس عساكر الجيش الانجليزى · ما كادت تراه حتى هللت · تعال يا يوسف أقدم لك دافيد · كانت العصبية فى صوتها أخطر من جلستها على الأرض بجوار هذا العسكرى الغريب ·

ها هو آدم ريشفسكى يقول له : ان دافيد كان مع دفعة من الجنود البولنديين اليهود · وانه كان عليه أن يعد لهم برنامجا للترفيه ، ولتعريف اليهود فى مصر بأن هناك من يحارب من أجلهم لاقامة وطن لهم فى فلسطين ·· لابد أن يعرف يهود مصر صغارهم قبل كبارهم أن هناك عدوا خبيثا يحرق من يقع منهم تحت براثنه فى الأفران · وأن هذا العدو قد وصل الى العلمين · لابد من قتاله ·· لابد أن يدافع كل يهودى عن نفسه ·· انها حياة أو موت للجميع ·· ليست حياة أو موت فرد واحد ، أو جماعة معينة · أن شعبا بأكمله مهدد بالفناء · ثقافته وتاريخه وديانته ·· لقد طردوا اليهود من الأرض فبقيت لهم الأجساد ، والآن يحرقون هذه الأجساد ، حتى لا تكون هناك

أرض تحفظهم ، ولا تكون هنـــاك أجســــاد تحفظ أفكارهم ومشاعرهم ٠٠ وكان على جابى أن تتولى مسئولية ضـــيافة دافيد ٠ لتتعلم مســئولياتها ، لتعلم واجباتها ، لتدرك ابعاد حياتها ، ومن اين جاءت والى اين هى ذاهبة ، ولتقدر المصير الذى سوف تتعرض له كيهـودية اذا أهملت وتجاهلت الواقع الذى تعيش فيه ٠

احتجت « جابى » بأنها لا تستطيع أن تتخلى عن يوســـف حبيبها فى ليلة كذلك ، انتظراها منذ أسابيع ، ليلة يغزوان فيها أفاقا جديدة فى حبهما ٠ قال لها آدم وهو يراجع قائمة أسماء الجنود قبل أن يترك بيت ليفى اسكنازى ليتم جولته فى البيوت اليهودية الأخرى :

ـ ليس لدينا وقت ليوسف ولا وقت لجابى اســـكنازى ٠٠ لكل شىء وقت ٠٠ وهذا هو وقت اسرائيل ٠

رفضت جابى ٠ ولكنه تحدث معها ٠ ظل يتحدث حتى قال لها : ان دافيد الذى سيحضر الليلة ليس لديه أمل فى الحيـاة أكثر من واحد فى الألف ٠٠ قال لها آدم ريشفسكى : ولمـاذا لا يذهب يوسف ليدافع عن بلده ضد غزو الهمج ؟! قالت له : انها ليست حرب يوسف انها حرب الانجليز ، فقال لها : انها حرب الانسانية ضد الهمجية ٠ لا أحد يقف متفرجا فى هذه الحرب ٠ من يتخلى عن الدفاع عن الانسانية يفقد انسانيته ٠

نفذت جابى ما طلبناه ولكنها كانت تحبك يا يوسف ٠ سألته

دافيد عن معنى كلمة أحبك بالعبرية ؟ تعلمتها منه لتقولها لك ، ولكنك عاملتها بقسوة وجفاء ، لم تتشاجر معها ، لم تصرخ فى وجهها أنك تحبهـــا ، تجاهلت ما حدث منهـــا ، ورفضت أن تفهمـــه ، أو تبدى أى اهتمـــام به ، تعمدت أن تظهر احتقـــارك لما أقدمت عليه ٠٠ كانت تحبك وكانت تتألم ، وعنـــدما يزداد ألمها تقول لك بالعبرية « أنى أوهيفيت أو تخا » حتى لا تفهمها ٠

اذا أردت أن تفهمها فعليك أن تتعلم ما تقول ، لتفهم وتقدر ما أقدمت عليه ؟ كانت تقولها لك همسا ، أو قولها فى ســرها



أو قولها بصوت مرتفع بسرعة حتى لا تسألها ماذا تقــول ، أو تقـــولها ببطء ، متعمدة اغاظتك فتسألها ، ماذا تقولين فتقول لك ؟ ٠ أقول أى كلام ٠ لو عرفت العبرية ، لدافعت عن حبك ، وعن نفسك ٠ لقد روت لى جابى حكايتهـــا فى بيونس ايريس ٠ كنت أحتفل بعيـــد ميلادى ، وكان زوجها شارل مسافرا فى ســـانت لويس ، وقضينا ليلة نتذكر فيها أيامنا فى مصر ٠ بعدها سافرت الى

اسرائيل ..

وتوقف آدم فجأة عن الحديث ونظر الى يوسف وقد لمعت عيناه بصلابة ومكر ، وقال بلهجته الحزينة :

ـ لا أستطيع أن أراك أمامى .. وأكتم عنك هذه المعلومات ؟

همس يوسف :

لقد نسيت كل شيء ..

فنهض آدم متثاقلا وهو يقول :

ـ لعل هذا هو أفضل شيء .. وأحيانا عندما تكتمل المعلومات .. يصبح نسيانها أسهل ..

وابتسم ينفض عنه لهجته الحزينة وقال فى مرح مفاجيء :

ـ متى تتعلم الدومينو .. تعال وحاول ..

قال يوسف وهو مازال جالسا مكانه :

ـ ربما أجرب حظى معكم ..

صاح آدم :

ـ اذن هيا ..

همس يوسف :

ـ دعنى .. أستريح بعض الوقت ..

قال آدم بصوته المرح :

ـ لا ترهق نفسك بالتفكير .. فلم يعد هناك شيء يستحق .

قال يوسف :

ـ ربما ..

ورأى آدم يختفى خارجا من القاعة . خارجا ومعه جابى اسكنازى ويوسف منصور الذى أحبها يوما ما ، يوسف منصور الذى كان مشغولا بأبيه وأمه . مشغولا بجده وسيوفه مشغولا بشيخ الأزهر وشقيقه ، يوسف منصور الذى ضاع منه الحب . سواء الحب الذى عرفه أبوه . حب العشق الملتهب الفاجر الذى يشترى به العاشق .. الدنيا وما فيها .. أو الحب كمعنى أو عاطفة أو مسئولية .. ضاع منه الحب . وضاع منهالزواج . ضاع كل شيء .. ربما لأنه لم يحارب لقضية لم يحارب لأى شيء يستحق الحرب .. لعل ابنه حسن أفضل منه ألف مرة وقد أمسك بالسلاح يقتل به ، حتى ولو كانت قضيته فاسدة أو ظالمه . أو خاسرة .. المهم أنه يعرف أن الانسان لابد أن يحارب من أجل شيء حتى ولو كان يحارب نفسه .. حتى جابى اسكنازى حاربت عواطفها وضحت بها . لعلها تفخر الآن بما فعلته .. أو لعلها تجد بعض العزاء عندما تمشى فى شوارع اسرائيل وتقول لنفسها دفعت بعض الثمن . الشيء المخيف حقا . أنه هو أيضا دفع الثمن ، وهو لا يدرى لتقوم اسرائيل . فقد الحب ، وضاع معناه وتاه فى الحياة ضالا مشردا . لتقوم اسرائيل . أهذا نوع من الغباء أو البلاهة أو السخف . أو هو كل هذا ؟! جابى اسكنازى ضحت بحبها ، وهى تشعر بنفس المشاعر التى تمتع بها أعظم أبطال الدراما وهم يصارعون العواطف المتناقضة المتضاربة . الحب ضد

الواجب • الأسرة ضد الوطن أما هو فقد دفع الثمن بلا صراع ولا بطولة •• وتاه فى مشـاعر غامضـة من الأنانية والكرامة والعزة بالنفس ••

أيعود لحسن ليخرجه من السجن ؟!

وبعد أن يخرج حسن « ماذا يقدم له » •• ؟

أيقدم له الأب • يقدم له يوسف منصور كما عرف نفسه ، انه مصيبة سوف يقدمها لابنه فى صورة يوسف منصور الأب •

أيقدم له جده •• منصـور سـالم • ومعه جدته كوثر هانم وعشيقة جده فاطمة هانم شريف ، وزوج جدته لطيف صبرى •

ما ذنب الولد الصغير فى كل هذا ؟!

أيقدم له مدرسته •• أيقدم له السـلطة برجال الشرطة •• والمنافقين والشامتين والنهازين ؟!

صدقت فاطمة هانم وهى تقول له : ان عودته لانقاذ حسن ، سوف تكون أسـوأ من قصـاصة عصـابة اليد السوداء التى أرسـلتها له •

انه لا يستطيع أن يقدم له أفكارا جديدة تبهره أو معـانى جديدة تضىء طريقه •

أيتراجع • أيترك حسن فى السجن ولكن هذا مسـتحيل لابد ان يبحث ويفتش من جديد ليجد منفذا للخلاص فى هذا الجدار الذى صنعته الذكريات والأيام من اليأس • لابد أن يصـل الى شىء ولا بأس من الانتظار والتروى • ولا بأس من أن يتسـلى بلعب الدومينو ، ينضم اليهم فى القاعة •• ويفرض على نفسه

راحة اجبارية لبعض الوقت ، حتى تهدأ مشاعره وتنظم أفكاره وتتسلسل •• وتستقيم الأمور •

لا أحد يستطيع أن يقدر الوقت الذى انقضى بعد ذلك ، فى مكان يتجاهل رواده قياس الزمان بالساعات والأيام والشهور والسـنوات •

ولكن مضى وقت كاف ليتعلم أثناءه يوسـف منصـور • اللعب ، وما كان يخطر بباله أنه سيكتشف فى نفسـه قدرات مذهلة ، وسـوف تتفتح أمامه أسـاليب فى اللعب ، كأنها المعجـزات •

انه يجلس بين الصحوة والنوم ، يزفر الهواء من صـدره بصعوبة •• ولكنه متحفز للانقضاض على خصـومه • كل خصم يجلس أمامه على منضدة الدومينو ، هو صيد يفترسه ، يفتك به ، يهتك عرضه • يقضى عليه بقسوة لا حدود لها • يداه ترتجفان •• عيناه ملهوفتان ، وهو يتابع النقط السـوداء على الحجـارة البيضـاء •

يبحث عن مكسب ، ويتحاشى خسـارة ، ويتعامل مع تلك الطاقات التى حصل عليها • طاقات غريبة من سـيطرة النفس أو العقل على المادة • فهو يمد يده الى الحجارة ، ليأخـذ واحدة • وكل ذرة فى جسده تفرض الرقم الذى يسـحبه كل أنفاسـه مركزة على الحجر المعين الذى يريده • كل ما عرفه طوال حياته من عجز واحباط ومرارة وفشـل يطرده طردا

كأشباح غامضة لم يعد يتبين ملامحها فى وضـوح · ويمد يده يزيح الأشباح ، وتمسك أصـابعه بالحجر الذى ينقذ حياته · ويقضى على عدوه ·· ويسـحب الحجر الذى تمناه · وترتفع الصـيحات ·

– بركاتك يا شيخ يوسف ··

– حظ عوالم يا عم يوسف ··

وهو لا يكاد يسمع ما يقولون ، أنفاسه تتلاحق ، يكاد يصدر شخيرا مسموعا تتردد أصـداؤه فى القاعة ·· ولكن أحيانا أخرى تمر به لحظات سـوداء ·· أسـود من كل ما مر به فى حياته · يخسر ويخسر · ويشتمونه ويسـبونه ، ويتأخر فى اللعب ، ويتلكأ فى انتظار أن تعـود له قدراته التى يفتقدها لبعض الوقت ، والتى يثق فى أنها لابد أن تعود له ·

وترتفع الصيحات ·

– يوسف محطة البليدة ··

– العبى يا قطة ··

فاذا ما استمر فى الخسارة ·· تتلاحق أنفاسه التى يجدها بصعوبة بالغة ، وقد يسقط فيحملونه الى الحجرة المجاورة ، ويأتى المازنى ليفحصه ، ثم يعود ، وهو يهز كتفه ، قائلا كلمته التقليدية · ماذا يحدث له · أسوأ مما حدث · اتركوه سيفيق بعد قليل ويعود لكم ·

ويصدق كلام المازنى · ينهض يوسف · ويعود ليواصـل

على لقب أستاذ فى اللعب ·

ولابد أن وقتا ما · لا يستطيع أحد أن يحدده قد انقضى قبل أن يصل يوسف منصور الى مرتبة اللعب مع خليل · فيجلس واثقا من قدراته يتعامل بالحجارة بين أصابعه وكأنه عازف ماهر يعزف أروع الألحان ·

ويتبادل مع خليل ، انشاد · يا أهيل من عليها ترلم ترلم ··

وأحيانا يصيح يوسف ، فى القاعة :

ـ انا فعلا ·· حظى من الخلف ·

تمت بحمد الله ...